Shero4jesus@gmail.com

كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

تأليف السيدة ا . ل . بتشر الانكليزية

المجلد الرابع

«ثمن جميع المجلدات اربعون غرشا صاغا»

طبع على نفقة صاحب جريدة مصر سنة ١٩٠٧

طبع بمطبعة مصر بالفجالة

الفصل الحادي والستون

تخريب الكنائس وهدمها

سنة ١٣٠٠ مسيحية و١٠١٦ للشهدا و٧٠٠ للهجرة

أن الوقائع التاريخية التي جرت في غضون الجيل الثامن للهجرة الموافق الجيل الرابع عشر للمسيحيين هى اعظم شاهد صادق يدلنا على عظم الاضطهاد الشديد الذي عاناه الاقباط على يد الحكام المسلمين الذين تعاقبوا حكم مصر في ذلك الجيل

ولو أن المؤرخين المسلمين قد اثبتوا واكدوا أن تلك الاضطهادات قد جلبها الاقباط على انفسهم اي انهم كانوا السبب في وقوعها عليهم وقد جارى المؤرخون المسيحيون اخوانهم في اثبات ذلك بلا بحث في الحوادث والوقائع للحصول الى الحقائق التاريخة كما هي عادة اغلب المؤرخين الافرنج فقد كانوا يستعملون كلمات نيبل المؤرخ الفرنساوي (حدث بسبب خطأهم) الا اني قد فحصت تلك الوقائع التاريخية فحصاً دقيقاً في تاريخ المقريزي الذي يعتبر اصدق مؤرخ مسلم وبعض كتب تاريخية اسلامية اخرى توجه هذه التهمة الى الاقباط فاتضح لي بعد التمعن أن اولئك المؤرخين لم يكونوا على ثقة تامه من اثباتها . فالحقيقة التي تجلت لي بعد البحث والمقارنه التاريخية في اسباب ذلك الاضطهاد العظيم هي أن الاقباط كانوا يشكون من الغطرسة والقساوة التي كانت تقع عليهم ويقولون انه مادامت الحكومة الاسلامية لاتستغنى عنهم في

دوائرها فيجب ان يعيش هولاء الموظفون احراراً وليس ارقاء تحت سلطة الحكام المسلمين واعتقدوا ان هذا الاحتجاج لاشك فيه ولذلك كانوا يرفضون الرضوخ للمعاملة المؤثرة ويعترضون على الاوامر القاسية التي كان المسلمون في الازمنة السالفة يجبرونهم على اتباعها بقصد ازلالهم ومضايقتهم فلبسوا العمامة البيضاء بدل السوداء التي قد كان حرم عليهم تغييرها لتكون شعاراً مميزاً لهم وتمكن كبار موظفى الحكومة منهم بالسير في الشوارع على ظهور الخيل ووراء الواحد منهم كثير من مقدمي العرائض يطلبون قضاء المصالح العوميه والخصوصيه . فلما آنس المسلمون هذا الخروج عن المألوف من الاقباط ولاحظوا تنفسهم الصعداء من تلقاء انفسهم ونالوا حريتهم بأيديهم عقدوا النية على اتخاذ الوسائط العقوبية لازلالهم فاقر كبار المسلمين على طلب هدم كل الكنايس المسيحية وتنفيذ كل مواد قانون العقوبات الصارمة على جميع افراد الاقباط . وقدموا هذين الطلبين لمحافظ القاهرة فانكر عليهم تنفيذ الطلب الاول وهو هدم الكنائس ولكنه لم يجسر على رفض الطلب الثاني . فاستقدم في الحال البطريرك يوحنا الثامن وكبار اعيان الاقباط واليهود واخبرهم انه لايكون مسئولا عن العواقب الوخيمة التي تحل بهم اذا كانوا لايرضخون للقوانين والشرايع التي يطلب منه تنفيذها

فكتب في الحال البطريرك يوحنا الثامن الى جميع الاروشيات يحضهم ويدعوهم الى التشديد على الشعب القبطي يلبس عمامة وحرام زرقاوين وان

لاركبوا الخيل والبغال مطلقاً ومن يخالف هذه الاوامر يحرم من عضوية الكنيسة وانه لا بد من الرضوخ لاوامر القوة الحاكمة

فلم يقتنع المسلمون بذلك بل هدموا بعض الكنائس بالقاهرة كانت مشيدة حديثاً ثم طلبوا من البطريرك انه يغلق كل الكنائس الباقية بلا تخريب فابى البطريرك تنفيذ هذا الطلب فلم يلحوا عليه بالتنفيذ واهمل ذلك قليلا ولكن في اثناء هذه الفترة قام هياج وشغب شديدين بين المسلمين

واعقب ذلك هدم وتخريب كل الكنائس . فلم تغد وقتئذ حكمة البطريرك ولا قوة سياسته السلمية بالتأثير في اطفأ نيران هذا التعصب ولا تهدئة تلك العاصفة الشديدة

ثم عمد الحكام المسلمون ثانياً لرفت كل الموظفين الاقباط من دوائر الحكومه . وقام بعد ذلك جماعة الاوباش والرعاع من المسلمين يزدرون ويستهزئون بالاقباط ويرجمون المارين منهم في الطريق العمومي ويتحرشون بمن يركب حماراً صغيراً (وهي الركوبة الوحيده التي صرح للاقباط بركوبها) ويطرحونه أرضاً بحالة وحشيه ويمثلون به أفظع تمثيل . وكانت المشاغب والاضطهادات فكانت على اشدها في مدينتي الاسكندريه والفيوم ووقعت اضطهادات وتعذيبات عموميه عظيمه على اقباط اهاتين المدينتين واستفحل امرها حتى لم يكن في وسع الحكومه منعه أو تحاشيه . وحرّم الاسلام على الاقباط الاحتفال بعيد النيل (١) الذي قد حل أوانه

(١) أمر السلطان بابطال عيد النيل المذكور بحجة افراط الاقباط في شرب

وقتئذ (ويعرف عند الاقباط بعيد الشهيد) وصارت ارواح وأملاك الاقباط واليهود على السواء في جميع انحاء الديار المصريه تحت خطر الهلاك في ساعة واحدة . هكذا كانت أحوال مصر مدة ثلاث سنوات حتى اتفق مجيء وفد الى الديار المصريه من قبل ملك بارسلونه يحمل فدية اسيراً من عيته كان قد أخذه سلطان مصر في حرب (والاغلب في حرب سوريا) فاذعر اعضاء ذلك الوفد وارتعدت فرائصهم مما شاهدوه من اضطهاد الاقباط وسوء الحاله العموميه في مصر فهزتهم نخوة المروّة والعاطفه الدينيه والتمسوا من السلطان أن يسمح باعادة فتح الكنائس لذويها ومقابل ذلك يقدمون له مبالغ مالية عظيمة بصفة هديه علاوه على الفديه التي يقدمونها له عن اسيرهم . فقبل السلطان منهم هداياهم وتسامح في فتح بعض الكنائس وتخفيف الضغط عن الاقباط . ولكن المقريزي ذكر في تاريخه بان السلطان لم يسمح الا بفتح كنيستين فقط . ثم أثبت أيضاً ان السلطان بعد ان اعتق الاسير البارشلوني واطلقه ليرحل مع اصحابه عاد فأمر

الخر اثناء هذا العيد وذلك لان الاقباط كانوا يحتفلون في ٨ بشنس من كل سنه باقامة هذا العيد في ناحية شبرا بجوار النيل ويسمونه (عيد الشهيد) زعماً منهم ونقلا عن آبائهم الفراعنه أن النيل لا يفي الا اذا ألقوا فيه تابوتاً من خشب فيه أصبع من أصابع آبائهم المائتين فكانوا يجتمعون من سائر القرى القريبه على اختلاف درجاتهم ويكثرون من الغنا والترتيل وشرب المسكر فكانوا ينفقون مبالغ فاحشه في هذا السبيل وكان فلاحو شبرا يعتمدون على وفاء مال الاطيان مما يبيعونه من الخمر ايام هذا العيد

بعدئذ باقتفاء اثرهم في الطريق والقبض عليهم فلحقتهم رجال السلطان واوقفوهم ونهبوا ما كان معهم واسترجعوا ما أعطاهم السلطان واخذوا الاسير ثانياً وألقوه في السجن مكبلا بالسلاسل الحديدية . وفي سنة ١٣٠١ مسيحيه بينما كان الاضطهاد على اشده في بحر الثلاث سنوات المذكوره تمرد سكان الصعيد من المسلمين وعصوا وتذمروا من حكم المماليك وكان هؤلاء المسلمون من سلالة العرب الذين كانوا ضاربين في تلك الاقاليم القبليه وقد رحلوا اليها من بلاد العرب . فأرسل السلطان كثيرين من المماليك الامرأ لقمع تلك الثورة في الصعيد فادى هؤلاء المماليك مأموريتهم بحالة وحشيه وقلوب قاسية لاتين ولا ترحم ان اعملوا السيف في اعناق معظم السكان حتى امتلا الفضاء بالجثث وقبض هؤلاء المماليك على محتة عشر الفاً من اصحاب الارض ووضعوا ايديهم على أراضيهم واموالهم . وراح في هذه المذابح كل من المسلم والقبطي والبريء والمذنب وفي بعض الاقسام لم يبق رجل واحد على قيد الحياة ماعدا النساء والاطفال الذين اخذهم الامرأ اسرى أرقاء وفي السنة التاليه أعقب ذلك الخراب والهلاك زلزلة عظيمه زادت في انحطاط البلاد وعم بسبب ذلك الخراب . وقد خربت هذه الزلزله بلادا كثيرة أخصها مدينة قوص التي دمرت عن آخرها . وأما اربع مدن العاصمه (مصر والقاهره ومصر القديمة وبابليون) فلم يصبها شيء من الزلزلة لان يد الاعداء قد سبقت الزلزلة فخربتها واهلكت من فيها

وشعر السلطان الشاب بتعاسة حالته في مملكته . اذ تحقق تعدد

بالتدريج شيئا فشيئاً ان اضطهاده للاقباط وشدة ضغطه عليهم لم تأت الا بالوبال وسوء الحال وتعميم الفوضى . وفضلا عن ضرورة الاحكام المدنية الى الفوضى والارتباك فانه رأي مع كل ذلك عدم رضا رعاياه المسلمين عنه ولم يعرف كيف يرضيهم ولاسيما الامرأ المماليك الذين كان يخافهم ويخشاهم كثيرا والظاهر ان الحوادث الطبيعيه من زلازل وقحط وطاعون وغيره . اثرت في اخلاق المصريين فجعلتهم عديمي الثبات فانقسموا احزابا ضد بعضهم ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر السلطان الشاب وهذا ماكان يتوقعه منهم كما تقدم

ففي سنة ١٣٠٩ مسيحيه لما زادت متاعبه من كثرة الشكاوي والمنازعات وشعر بسؤ المصير ورأى انه لا يقوي على دفع هذه الويلات وخاف على حياته من الهلاك فتظاهر بالرغبة في الحج الى بيت الله الحرام وزيارة المقام النبوي فسار مع بطانته الى الكرك تاركا الملك وما فيه الى المماليك وكان له في الكرك ثروة عظيمة تبلغ نحو سبعة وعشرين الف دينار ومليون وسبعماية الف درهم فاستولى عليها وحصن المدينة ثم ارسل ختمه السلطاني الى مماليك مصر واخبرهم بتنازله عن الملك وفوضهم في انتخاب من يريدونه وتوليته سلطاناً عليهم في مصر . فوصل اليهم كتابه في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هجرية فبايعوا الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثاني وهو احد مماليك الملك المنصور بن قلاوون ويؤيد ذلك انهم وجدوا بين اسلحته سيفا منقوشا عليه اسمه ومشفوعا بلقب

(المنصوري والسيفي) وبعد ان بايعوه لقيوة بالمظفر

وفي اواخر السنة المذكورة كان قد اتفق صاحب قبرص مع الصليبيين لغزو دمياط بحراً فخاف بيبرس الثاني من غزو الافرنج لبلاده ودخولهم القاهرة فاتفق مع الامراء المماليك على اقامة سد عظيم يمتد من دمياط للقاهرة حتى يتعذر وصول الافرنج ايام الفيضان في النيل الى دمياط . فجمع في الحال ثلاثين الف رجل وستماية رأس من البقر لحمل الاثقال وادوات البناء وانتهى من بناء هذا الجسر العظيم بعد شهر واحد فكان طوله من دمياط الى قليوب وعرضه اربع قصبات من اعلاء وسته من اسفل ومشي فوق عرضه ستة من الخيل جنبا لجنب . ومن اثار بيبرس الثاني جامعه المشهور بالقاهرة باسم جامع جانشكير في الجمالية لا يزال يصلي فيه الناس الى الان وهو على شكلا جامع السلطان حسن

ثم عاد الملك الناصر وتاقت نفسه الى الملك والعظم والنفس البشرية ميالة بطبيعتها الى العلى فوبخ نفسه وندم على استقالته وتخليه عن مملكته لاحد مماليكه فعمد الى اتخاذ الوسائط اللازمة للحصول على العرش المصري للمدة الثالثة ففي شعبان سنة ٧٠٩ هـ بارح الكرك بعد ان اقام فيها احد مماليكه المدعو ارغون وسار الى دمشق اولا فرحب به اهلها بصفته السلطان الاصلي الحقيقي ثم بايعوه عليهم بجند بواسطة امرأها جيشا عظيما وسار به الى مصر . وبوصوله اليها كان لحسن حظه ان احد زعماء المماليك في مصر المدعو برلك قد نبذ طاعة بيبرس فلما علم بقدوم

فلما علم بقدوم الناصر اسرع لملاقاته بالترحاب . اما بيبرس فخاف على نفسه ولم ير سبيلا لنجاته من الخطر الا بالهروب فاشهر استقالته في الليلة الاولى من شهر شوال بعد ان اسرع فجمع كل الاموال التي في خزينة القلعه والتي يقال انها تبلغ نحو ٣٠٠ الف دينار كان اغلبها مجموعا من نهب الاقباط الذي وقع أخيراً وكثيراً من الجمال والخيل وعم هارباً الى مصر العليا على امل الاستيلاء عليها فوقف في طريقه خارج القاهره جمع عظيم من اسافل القوم واوسعوه رجما وشتما فصار يرشقهم بما معه من النقود وسار حتى وصل الى اخميم . وفي اليوم الثاني من مبارحته القاهره دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي ثالث مرة تولى عليها وكان ذلك اليوم عيد رمضان فصار العيد عيدان وفي الحال اقتفى اثر بيبرس الهارب ومن معه وقبض عليهم واسترجع الاموال التي مع بيبرس ثم قتله

وكان سن الملك الناصر وقتئذ خمسة وعشرين سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال من المماليك حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يثبت قدمه في السلطنه وظل باقي ايام حكمه نحو ثلاثين سنة وبعضهم يقول ثلاثة وثلاثين حتى توفى لكنه أظهر في هذه الدفعه اختلافا عظيما في الاحكام والنشاط اكثر من المرتين الاولى والثانيه . وعلمه الاختبار ان يحامي عن الاقباط بكل قواه ويحميهم من نهب واستبداد المماليك والتعصب الديني من مواطنيهم المسلمين . واشغل نفسه في عمل اصلاحات عموميه عظيمه وفي تمهيد تأسيس حكومة منظمه لتلك البلاد المختلة النظام

ولكن نية السلطان الحسنة ومبلهالذلك وان كانا قدائرا في ايجاد الاصلاحات ولكنه كان في غالب الاحيان لا يمكنه ان يتغلب على اطفاء نار التعصب العامالتي تأجج من كل صوب فبعد عشرة سنوات من اعتلائه العرش في هذه الدفعه الاخيره اي سنة (١٣٢٠ هـ) وقعت فظائع عظيمه ساقت الاقباط قهرا بعامل تأثير رد الفعل الطبيعي لمقابلة الشر بمثله بقصد الدفاع عن انفسهم .

ومن المعلوم ان معظم النار من مستصغر الشرر فان السلطان الناصر اراد ان يبني رصيفا على شاطئ النيل لتحسين منظر ميدانه(١) ومما يحسن ملاحظته واثباته ان شاطئ النيل سنة ١٣٢٠ هـ لم يكن كما هو آلان لان النهر قد تحول مجراه كثيرا لجهة الغرب ومحل مجراه القديم ملآن بمنازل القاهره الحديثه بل هو القاهره المتوسطه تقسمها لانه بعد ان تحول مجرى النيل كما تقدم اقام الناس المنازل في الحال بعد ان جفت الارض على المجرى القديم . وفي عصر الناصر ابن قلاوون كون طمي النيل جزيرة حديثه ما بين القاهره وبولاق فبني عليها الناس في الحال مسجداوطاحونه وكثيرا من المنازل بحدائق فيحأ حتى اصبحت متنزها لسكان الفسطاط . وقيل انه في سني الفيضان كانت تغمر تلك الجزيرة بالماء وتحول شوارعها

(١) معنى لفظة ميدان هنا اي محل لتعليم الركوب فيه ولكنه اسم على غير مسمى لان التعبير على غير الواقع فان هذا الميدان كان عبارة عن متسع عظيم امام احد قصور السلطان الشاهقه اعتاد ان ينزل فيه يوميا من القلعه .

الى ترع وكان السكان ينتقلون فيها بالقوارب اما فرع النيل الشرقي الذي يطفو ماؤه على مدينة الفسطاط فكان دائما فسيح الشواطئ وعند ما ينقضي زمن الفيضان تنشف شواطيئه حالا . والعصر الثامن من التاريخ الهجري مملؤ بالادلة التي تثبت خبر تكون جزائر نيلية جديده كثيرة العدد اصبحت بتوالي السنين جزأ من شاطئ القاهره الشرقي وينبئنا تاريخ ذلك العصر ايضا عن النفقات الباهظه التي كان ينفقها حكام مصر المسلمين بقصد التسلط على سير النيل الطبيعي ومحاولة منعه تغيير مجراه فكانت تروح اتعابهم ادراج الرياح والبقعه التي خصص السلطان فيها بناء جسره كانت ملأي بالسكان مع انها اشبه ببوغاز لم ينشف تماما بعد الفيضان وعلى قطعة ارض قديمة مرتفعة كانت قد شيدت كنيسة الظهري . واتفق أن السلطان الناصر اراد حفر مجرى مياه من النيل ليدخل فيه الماء لوسط الجزيرة واتفق في هندسة ذلك المجرى أن الكنيسة تعترضه في طريقه فاما أن تهدم واما ان تظل قائمة في وسط المجرى والماء حولها . ولو تركت هكذا منفردة في الجزيره وحدها وسط المجرى تكون في شكل ظاهر يستلفت الانظار وهذا يعتبر عيباً في نظر المسلمين لانه لا يصح في اعتقادهم ان تكون كنيسة للنصارى ظاهرة بهذه الكيفية ولما أشاروا على السلطان بضرورة ازالتها من موضعها صعب عليه ذلك ولم يصدر امراً بهدمها بل امر فقط بالحفر حولها بالقرب من جدرانها حتى تسقط من نفسها عند ما يختل الجدار فلما حفروا حولها واصبحت الكنيسة

معلقة في الهواء بقيت مع ذلك ثابتة في موقعها ولم تسقط وعندئذ تذمر الفعله المسلمون وازداد هياجهم وتأججت نار التعصب في قلوبهم في جميع انحاء القطر بحالة شديده مزعجة لانهم راؤا أن السلطان يلاطف الاقباط ويحامي عنهم ويحافظ عليهم فانتهز المتعصبون من المسلمين هذه الفرصه فاوقعوا بالاقباط اهوالا عظيمه ولكن لم تعلم كيفية وقوعها ولا من الذي دبرها بل انفجرت براكين ذلك التعصب وطار لهيبه في الفضاء فجأة واليك البيان: في يوم جمعه من ايام شهر يونيو الشهير بشدة قيظه في مصر أعطيت اشارة في ساعة صلاة الظهر وقت اجتماع (المؤمنين) في المساجد في كل من مدن القاهرة والاسكندرية ودمنهور واسيوط ومنفلوط وقوص واصوان وخمسة مدن اخرى من اشهر مدن القطر. وبعد انتهاء الصلاة قام درويش يظهر انه ليس مصريا وخرج في وسط الجمع المحتشد بغتة في جامع القلعه وتقدم الى الامام عند المنبر وصرخ باعلا صوته وهو يرتجف ويتكهرب كأنه قد نزل عليه وحي من السماء فأخذ يصيح الله اكبر — الله اكبر — ياخواتي المؤمنون — فلتتقدم ونهدم كنائس النصارى

ومما يحسن ملاحظته هنا ان المسلمين كانوا لا يحتاجون الى من يكرر عليهم هذه الدعوى — وفي اللحظة التي انتهى فيها ذلك الدرويش من دعوته سمع في الحال صراخ هائل في ثلاثة اماكن في القاهره. في جهة الحفر امام كنيسة الظهري. وفي جامع القلعه — وفي كلية الازهر العظيم بل واول كنيسة هدمت كنيسة الظهري التي كانت معرضة لنظر

المتعصبين التي لم يترك فيها حجر على حجر وقد سرقوا كل الاشياء الثمينه فيها ثم ركضوا الى كنيسة ماري مينا في حي الحمرا وهذه الكنيسة كانت منذ زمن مديد موضع الاحترام لدى الاقباط عموما وكانوا يرسلون اليها نذوراً من جميع انحاء البلاد المصريه حتى اصبحت خزينتها في ذلك الوقت اغنى خزائن الملكه المصريه على الاطلاق ليس فقط لكثرة الاموال بل ولكثرة الامتعه الجميله والاواني الثمينه الفاخره وغير ذلك من الاشغال الفنيه الغريبه وكانت محاطه بشبه مستعمره يسكنها الاقباط الزاهدين في العالم في مساكن متفرقه حول الكنيسة

فتسلق أولئك الرعاع المتعصبون جدران تلك المنازل وفي مسافة ساعة واحده كانوا قد هدموها عن آخرها وضربوا ساكنيها المساكين ونهبوا ما يمتلكونه ولم يمكنهم الدفاع عن انفسهم ولما كان اهم اغراضهم السلب والنهب اكثر من الهدم لم يكملوا هدم تلك المباني بل تركوها زاحفين على كنيسة العذارى بقرب الساقيه التي كانت مجاورة لهذه الكنيسة ويسكن على مقربة منها عدد كبير من الرهبان والراهبات. فكسر المتعصبون الابواب ودخلوها هاجمين واخرجوا منها ما يزيد عن ٦٠ راهبة قد كن التجأن اليها هاربات من هذه الوحوش فنزعوا ثيابهن عن اجسادهن وسلبوا كل ما وجدوه معهن وما هو داخل الكنيسة من الاشياء الثمينة ثم اشعلوا فيها النار واشعلوها أيضا في كنيسة اخرى بقربها ولما لم تنطف نار التعصب بعد زحفوا من القاهره الى جهة الجنوب قاصدين بابليون

ولكن كانت قد سبقتهم اخبارهم الى بابليون فلما علم الاقباط بذلك اسرعوا الى غلق بوابات الحصن القديم وكان داخل سوره ستة كنائس واستعد الاقباط داخل الحصن للدفاع عن انفسهم وكنائسهم وكانت في اثناء ذلك قد وصلت الاخبار للسلطان الناصر وعلم بما اتاه اولئك الثائرون وعن وجود عصابة أخرى كانت تنوي هدم كنائس الموسكي وحارة الزويله فارسل السلطان في الحال لتحقيق هذا الخبر ومعرفة الاسباب التي دعت لذلك فلما عرف حقيقة الامر قام في الحال بنفسه مع رجاله ليمنع هذه الاخطار ويوقف المشاغبين والثائرين عند حدهم . ثم اتاه نباء بان قصر الشمع (اسم اطلقه العرب على حصن الرومان في بابليون) محاصر بالثائرين والاقباط داخله يجاهدون في الدفاع عن انفسهم ولكنهم لا يثبتون في دفاعهم ما لم تلحقهم نجدة قوية

فاصدر السلطان امره باعداد هذه النجدة فركب في الحال الامير اوجامش واخذ معه اربعة من الامرأ وفرقة راكبة واسرعوا الى بابليون ثم تقدم قائد الفرقة وسبق الامير اوجامش واجتهد ان يبدد شمل المحاصرين ولكنه صد حالا اذ اخذ الثائرون يرجمونه بالحجاره حتى تقهقر وعاد الى جنوده

وكان الامير أوجامش قد وصل فرأى المعتصبون شارعين في حرق البوابة التي بذلوا كل قوتهم في كسرها فلم يمكنهم ذلك فلما رأي الامير هذا الامر اشهر سيفه في يده امام جنوده وصاح على قائدا لجنود بالهجوم

على الثائرين ففي الحال تفرق الثائرون وفروا هاربين من حول ذلك السور . وانتهز الامير أوجامش هذه الفرصه فاعلن بصوت عال ان من يبقى في هذه البقعه بعد ساعة من الزمن يعرض نفسه للموت العاجل

فتفرق الجمع على اعقابهم باسرع ما يمكن وبذلك سلمت كنائس الحصن من العبث والتدمير وعلاوه على ذلك فان أوجامش ظل في هذا المكان حتى صلاة العشاء خوفا من ان هولاء الثائرين يعودون الى هجومهم على الحصن . ولما عاد الى القاهره في المساء اصدر اوامر صارمه لقائد الحرس ليسهر طول الليل برجاله حول الدير وترك معه خمسون جنديا للحرس ولكن الامير (الماز) الذي يظهر انه لم تصدر له اوامر تخول له حق فهم هذه الثوره وحماية الكنائس وجد ان الذين امرهم الامير اوجامش بالبقاء للحراسه قد ناموا كلهم فاسرع مهرولا واخبر السلطان بذلك

ثم أمر السلطان الناصر بالقبض حالا على ذلك الدرويش الذي نادى على المصلين في جامع القلعة يدعوهم لتخريب الكنائس فقيل له انه غير موجود . وكانت الشوارع ملآى من الذين تجاروا على نهب الاقباط وهدم كنائسهم . ولما استدعت الحكومة رؤساء العصابات والمتهمين في هذا الجرم الفظيع وشرعت في التحقيق معهم قالو أن السلطان نفسه هو الذي امر بهدم وحرق الكنائس ولم يمكن الحكومة ان تثبت التهمة على احدهم ولكن الذي قاله هولاء الطغاه لا يصح تصديقه واسناده الى السلطان الناصر ومن ثم أخذت ترد كل يوم على السلطان خطابات من الاقاليم

المصرية تنبئ بحدوث ثورات مثل ثورة القاهرة تهدم وتحرق فيها الكنائس القبطية . فاغتاظ السلطان غيظاً شديداً وسخط على رجال حكومته وامر بوجوب معاقبة زعماء الثورة عقاباً صارماً . فلما رأى الامراء اصراره على تنفيذ هذا الامر اجتهدوا بكل صعوبة في التأثير عليه وارجاعه عن عزمه واوضحوا له ان في الامر سراً عجيباً لادخل فيه لبني البشر لانه لم يكن لاحد ما حتى ولا للسلطان نفسه أن يحقق من الفاعل والمتسبب الاصلي في هذه الثورات مع شدة رغبة السلطان في الوقوف على معرفته . وبذلك التأثير امكنهم أن يقنعوا السلطان بان يعتقد أن يد الله هي التي ارادت معاقبة الاقباط نظراً لما ابدوه من الغطرسه بخراب الله كنائسهم (١) فهذه الاحوال المحزنة لم يمكن الاقباط احتمالها . واصبحوا حانقين متذمرين لعدم انصافهم من هولاء الاعداء وخيف أن يكون بعض ظن

(١) أن الكنائس التي هدمت وحرقت وامكن حصرها هي : — في القاهرة كنيسة الظهري وكنيسة داخل اسوار القلعة في المحل المدعو خرائب النترر وكنيسة في حي الحرا وكنيسة العذاري بقرب السبع سواقي وكنيسة ماري مينا وكنيسة حارسي العهود وكنيسة في حي الاروام وكنيسة جهة الحربية وكنيستين في حارة الزويله وكنيسة قرب مخزن اللوا وكنيسة في الخندق واربع كنائس في اسكندريه وكنيستان في دمنهور واربع كنائس في مديرية الغربية وثلاثة كنائس في مديرية الشرقية وستة كنائس في مديرية البهنسا وثمانية كنائس في مديرية أسيوط ومنفلوط واحدى عشر كنيسة في مدن اسيوط واصوان والمنيا وكنيسة في اطفيح وتسعة كنائس في الفسطاط ودير البغل وعدد عظيم لا يمكن حصره من الكنائس والاديره .

المسلمين حقيقة من تدبر مكيدة بواسطة رهبان دير طره المعروف بدير البغل انتقاما لانفسهم من مضطهديهم

وبعد مضي شهر من تاريخ تخريب الكنائس وهدمها واذا بنار شبت فجأة واخذت تحرق البيوت في عدة نواحي من مدن القاهرة والفسطاط . ودامت النار مستعرة من يوم السبت لغاية يوم الاحد مساء وكل ما اراد الناس أن يطفئوها في جهة تظهر في جهة اخرى واتفق في ذلك الحين ان قامت زوبعه شديده ساعدت النار على التدمير والتخريب فكانت هذه النار تقلب البيوت على اعقابها وتهوي بها الى الارض والرياح تقلب القوارب والمراكب في البحر وهكذا تعاهد الريح مع النار على اتلاف المدينة . ثم تلبد هواء المدينة كله من الدخان حتى اصبح كضباب كثيف وطلع الدراويش واولياء المسلمين على مآذن المساجد كلها يصرخون ويصيحون طالبين من الله أن ينتقم من هذا المصاب . وجاء مساء ليلة الاثنين والهواء لم يزل يحمل اصوات الصياح والعويل والنار تزداد التهاباً بحالة وحشية مريعة وفي صباح يوم الثلاث امر السلطان بغلق كل بوابات المدينه وامر باحضار جميع السقائين ليحضروا المياه بالقرب ويساعدوا في اطفاء الحريق ثم أمر النجارين والبنائين أن يهدموا البيوت القريبه من النار قبل أن تصل اليها ليحصروها في نقطة واحده . وهكذا لم يبق احد مهما كانت درجته ورتبته الا اخذ يساعد بنفسه في انقاذ البلاد من النار وامتلاء الشارع العظيم الذي يبتدي من باب الزويله بالماء حتى اصبح

اشبه بنهر عظيم . ثم خمدت النار ولكن كان كل يوم يظهر حريق جديد مع سهر وتيقظ رجال الحكومة واخيراً اعلن السلطان أن سكان كل ناحية يلزم أن يضعوا زيراً أو برميلا من الماء في كل شارع من جيبهم الخاص ليكون الماء جاهزاً عند الضرورة فارتفعت اثمان الازيار والبراميل الى درجة عظيمه . ثم ظهرت في الحال غاغة عظيمة وتصفيق حاد في الشوارع وصياح هائل من المسلمين قائلين أن النصارى هم سبب حرق المدينة واخيرا في يوم الجمعة شهر (يوليو) قبض على راهبين خارجين من كلية القاهرة بعد أن ظهرت النار في جدران تلك الكلية وتأكد المسلمون أن هذين الراهبين هما اللذان اشعلا النار وابلغ السلطان الامر عند القبض عليهما فامر في الحال بتعذيبهما وما كاد أن ينزل الامير بهذا الامر من القلعة الا ورأى المسلمين المحتشدين قد قبضوا على راهب آخر وجدوه في جامع الظاهر يحمل على ظهره عدة اكياس من النفط والزفت ولما طرح على الارض لتعذيبه امام الامير اقر انه اعطى هذه الاكياس ليضع واحداً منها في جامع الظاهر

واقر ايضا الراهبان الاخران اثناء تعذيبهم انهما من دير البغل وانهما هما اللذان أحرقا كلية القاهرة . فلما رفع الامر الى القاضي كريم الدين الذي التهمت منزله النار ونجا بنفسه اقترح استدعاء بطريرك الاقباط لانه لابد أن يكون عالما بسر ما اتاه شعبه من هذه الامور المنكرة ولا بد انهم استشاروه في كل امر . وكان البطريرك وقتئذ يوحنا التاسع الذي

خلف يوحنا الثامن بعد بضعة اشهر فا حضره رجال الحكومة الى القاضي في ظلام الليل تحرسه فرقة من الجند خوفا من أن يصيبه اذى من ايدي هولاء القوم الثائرين . ولما جأوا بالثلاث رهبان امامه وسألهم عنما فعلوه اقروا ثانياً امام القاضي كريم الدين انهم عملوا ذلك نكاية بالمسلمين الظالمين الذين حرقوا كنائسهم فلما سمع البطريرك ذلك أزرفت عيناه الدموع واوضح للقاضي انه يوجد بعض الاقباط قد حملهم التعصب الديني أن ينتقموا لانفسهم من رعاع المسلمين الذين هدموا كنائسهم . فصرح القاضي كريم الدين (١) للبطريرك أن يعود لمركزه بكل احترام وخرج معه فاستحضر له بغلاً وامر بعض رجاله أن يسيروا في حراسته حتى يصل الى البطريكخانة ولكن جماعة الاوباش المتوحشين الذين كانوا يملاون الشوارع عرفوه واحتاطوا به وكادوا يمزقونه اربا لو لم يسر بجانبه ضابط الحرس حتى ابعده عنهم ووصل الى مقره بسلام وفي صباح اليوم الثاني بينما كان القاضي خارجا من منزله كعادته ومتوجها الى القلعة احتاط به ايضا كثيرون من هولاء الاوباش وهم يصيحون حوله ويتهمونه بالكفر لتعرضه لحماية النصارى الكفار الذين حرقوا منازل المؤمنين (المسلمين) فلم يخف منهم كريم الدين بل تشجع وسار تواً فقدم تقريراً للسلطان فحواه انه يوجد بعض من جهلاء الاقباط هم الذين ينسب اليهم هذا التعدي الفظيع فامر

(١) أن كريم الدين هذا هو قبطي الاصل وعائلته قبطية منذ جيل تقريباً قبل أن يعتنق الاسلام

السلطان باستمرار تعذيب الرهبان المسجونين تعذيباً اشد من الاول بدرجة قاسية جداً لكي يعترفوا ويدلوا على اسماء بعض اغنياء الاقباط او ذوي النفوذ فيهم فيقبض عليهم في الحال ولكن الرهبان وهم في اشد درجات العذاب ظلوا مثابرين على اعترافهم الاول امام البطريرك والقاضي واثبتوا أن اصل المؤامره مدبرة بواسطة اربعة عشر راهبا من رهبان دير البغل تعهد ثمانية منهم بحرق القاهرة وستة بحرق الفسطاط . اما بابليون فاقروا بعدم مسها بسوء وسبب ذلك ان تلك المدينة القديمه كان كل سكانها من الاقباط في تلك الايام كما هو الغالب في هذه الايام . ولما اعترف الرهبان في هذه الدفعه بان زعماء هذه الفظائع هم رهبان دير البغل ارسل المسلمون رسلا كثيرة في الحال الى دير البغل ليخرجوا كل الرهبان الذين يجدونهم فيه ويأتون بهم اسرى الى القاهره فاتوا في الحال بكل من وجدوه في دير البغل وحرقوا منهم اربعه احياء في وسط الجمع الذي كان محتشداً حولهم

ومن اللحظه التي اعترف بها اولئك الرهبان باخوانهم المؤامرين اشتد هياج المسلمين في القاهره والفسطاط لدرجة شديده جداً تفوق الجنون وتحمسوا حماسا هائلا ولم يعد احد يبالي باوامر الحكومه ولا يرهب قانونها . وصاروا كل ما يقابلون قبطيا في الطرق يذبحونه ويأخذون ماله بلا خوف ولا محاسبه من الضمير . ثم گروا جميعا مهرولين الى السلطان يحتجون عليه لتساهله مع الاقباط ومنحهم آيات العز والسلام

من مدة عشر سنوات وفي ذات يوم في الصباح بينما كان نازلا من القلعه الى الميدان رأى الشوارع محتشده بالوف من الاوباش والثائرين كموج البحر وهم يصيحون عليه باعلا صوتهم قائلين — الله ينصر الاسلام فلم يبال بهم السلطان واستمر في طريقه ولكن ما كاد ان يصل الميدان حتى اخبره قائد الحرس انهم قبضوا على اثنين من الاقباط وهم يحرقون منزلا فامر السلطان بحرقهما احياء في الحال امام الجمع المحتشد وبينما هم يحرقون الرجلين حسب امر السلطان واذا بالقاضي كريم الدين مر بملابسه الرسميه من مكان الحريق فبصر به جماعة الاوباش فاوسعوه رجما بالحجاره فركض من امامهم ليختفي عن نظرهم فاقتفوا اثره حتى دخل ميدان السلطان فشاهد السلطان الجمع العظيم الثائر خلف القاضي فسأله عن السبب فابلغه ما كان من امر رجمه بالحجاره فاغتاظ السلطان غيظا شديداً واصدر امره للامراء لتحقيق هذا الحادثه . فقال الامير سيف الدين بضرورة ارسال رسول يسأل الثائرين عما يريدون وقال الامير جمال الدين انه من المعلوم ان مسألة كراهة الموظفين الاقباط كانت في اواخر المسائل المطروحه امام نظرنا ولا لزوم الآن لاتخاذ وسائط شديده ضدهم ويكتفي الآن في عقابهم بعزلهم حالا من جميع وظائف الحكومه فلم يصادف هذان الاقتراحان قبولا لدى السلطان فامر رئيس بلاطه ان يستصحب معه اربعة من الامراء وعدداً من المماليك ويطوفوا القاهره من اول الميدان حتي باب الزويله ومنها الى باب النصر ويبددوا شمل

الثائرين ويضربونهم ضربة قاضيه ولا يدعون احدا يقف في وجههم وامر أيضا قائد الحرس ان يحافظ على باب اللوق وشواطي النهر ويقبض على كل هارب من هذه النواحي بلا استثناء ويحضره الى القلعه ثم قال متحمسا (وحياة رأسي اذا لم تستحضر لي كل من رجم القاضي كريم الدين بالحجاره فاني ساقطع رأسك بدلهم!!)

نخرج الامراء من حضرة السلطان . ولما كانوا في الحقيقة ميالين لما يفعله الثوار والمشاغبين وراضين سراً عن تصرفاتهم الممقوته تمددوا الامهال والابطاء في اتمام مأموريتهم حتى يكون ذلك التأخير فرصة سانحة لهولاء الثائرين فيهربون ويتفرقون كل الى سبيله فكان ذلك التدبير العجيب حسنا في بابه فانه ما كاد الامراء يسيرون للتجول في البلد حتى تشتت المحتشدون بانتظام واختفوا في الحال ولم يبق نفر واحد منهم باقيا ليقبض عليه رجال السلطان حتى ولا خدام اولئك المتحمسين لان الاخبار كانت قد انتشرت فيما بينهم كالبرق فهرب الناس عدواً كالارانب وقفلت بوابات كل الاسواق ووصل الطوافون الى بوابة النصر دون ان يقبضوا على فرد واحد بينما كان قائد الحرس من الجهة الاخري يطوف بولاق وشواطئ النهر وقد قبض على كثير من الشحاذين والملاحين (عساكر البحر) وكثير من عابري الطريق فاوقع هذا الصنيع رعباً شديداً في الاهالي لدرجة انهم صاروا يلقون بانفسهم في النيل الذي كان وقتئذ عميقا فيسبحون فيه ويهربون الى بر الجيزه وقبل غروب الشمس كان قد وقع

من اولئك البؤساء الذين لم يمكنهم الهروب في يد قائد الحرس ما ينوف عددهم عن مائتي شخص فاحضروهم امام السلطان . فلم يقل السلطان ناصر ابن قلاوون كلمة بشأنهم ولم يحقق اذا كانوا مظلومين أو ابرياء بل أمر في الحال بتقسيمهم الى ثلاثة اقسام . قسم يعلق على المشنقة . وقسم يقطع افراده الى شطرين . والثالث تقطع ايديه . فصاحوا جميعا واخذوا يولولون وينوحون متضرعين للسلطان قائلين ان لا شأن لهم في رجم القاضي كريم الدين بالحجاره

فبكي الامراء وتضرعوا للسلطان ليعفو عن هولاء القوم الابرياء وكانت نتيجة هذا التوسل ان رجع السلطان عن امره الاول ولكنه امر قائد حرسه ان ينصب المشانق على شكل خط مستقيم يبتدئ من باب الزويله لغاية سوق الخيل ويعلق صباح اليوم الثاني على كل مشنقة واحدا من هولاء الاسرى التعساء الذين اخذو عرضا من الطريق وسيقوا للموت ظلما بطريقة وحشية وكان الامراء الذين مروا امامهم غير قادرين على التمالك عن البكا والتحسر . ولما علم القاضي كريم الدين بان الشارع الذي سيمر منه مكتظا بالجثث البشريه بسببه لم يمكنه المرور تخلصاً من رؤية هذا المنظر المريع فغير طريقه الى القلعه ومر من شارع آخر

وفي صباح اليوم الثاني صعد السلطان على المنبر وامر باحضار قسم آخر من اولئك التعساء الذين تصيدهم قائد الحرس فلما مثلوا امامه أمر أن تقطع ايادي وارجل ثلاثة منهم . ولما رأى الامراء أن غضب السلطان

في ازدياد خافوا أن يمسهم بضرر فلم يمكنهم أن يتعرضوا للدفاع عنهم واتفق من محاسن الصدف وصول القاضي كريم الدين فرفع عمامته وتقدم راكعا امام السلطان على الارض يتضرع اليه ملتمساً العفو عن هولاء التعساء الذين يعتقد انهم ابرياء ولم يقترفوا اثماً .فقبل السلطان رجاءه ومنحه ارواح هولاء الاسرى بشرط أن يرسلوا للاشغال الشاقه في اعماله الاصلاحية على شاطئ النيل . ثم امر ايضاً بانزال جثث المشنوقين . ولكنه ما كاد ينزل السلطان من فوق المنبر حتى حدث فزع وانزعاج عظيم لشبوب الحريق في المنازل وقيل أن جامع احمد ابن طولون والقلعة نفسها كان يتهددهما خطر الحريق وفي صباح اليوم الثاني قبضوا على ثلاثة من الاقباط من اعضاء لجنة مؤامرة الرهبان السرية

ودام منظر الحريق المرعب في القاهرة مدة اسبوع حتى جنت الناس من شدة الرعب واخذ السلطان يبذل كل قواه في تهدئة الخواطر واطفاء الحرائق. وصار الاقباط يختفون تحت الارض خوفا على حياتهم واصبح المسلمون والاقباط معاً يذهبون فريسة لغضب السلطان وهياج الاوباش وفي يوم السبت من الاسبوع الثاني كان الخطب على أشده ولما نزل السلطان من القلعة الى الميدان رأى خلقا كثيراً من الرعاع والاوباش يزيدون عن العشرة الآف نفس قد احتاطوا به وجميعهم يحملون قطعة قماش زرقاء عليها رسم صليب ابيض ولما صار السلطان في وسطهم صاحوا جميعاً بصوت واحد — فلتمحي كل الاديان ما عدا الاسلام !! — الله

ينصر محمد !! فيا ائمة الاسلام وقادة لوائه ساعدونا على الكفار ! — لا ترحموا النصارى ! —

فرأى السلطان نفسه على شفا جرف هار من ثوره عمومية كبيرة وعلم ان ما أمر به من تعذيب المتآمرين على حرق المدينة وحرقهم احياً لم يطف ظمأ الثائرين من المسلمين المشتاقين لشرب دماً الاقباط فضاق ذرعه وخمدت شجاعته ورجع الى الميدان ومن هناك ارسل رئيس بلاطه يعلن الجمع المحتشد من المسلمين انهم احرار في قتل كل قبطي يجدونه وينهبون امواله !! فلما سمع القوم هذا الاعلان هزوا الفضاء بضجيج صياحهم واخذوا يمجدون السلطان لتصريحه لهم بما يريدون واخذوا يتراكضون كالبرق لتنفيذ هذا الامر

ولنترك القارئ الكريم الآن يتصور هذا الخطب الجسيم الذي يشيب لهوله الولدان وتلك المذابح الهائلة التي تقشعر منها الابدان

فاصبح الاقباط بالاجمال كاغنام تساق بالالوف الى المجزر . وذكر المؤرخون المسلمون ذلك الحادث في تواريخهم ومؤلفاتهم على وجه العموم ولم يشيروا اليه الا تلميحاً ولكنهم ذكروا بالتفصيل العذابات التي توقعت على الاقباط الذين بقوا احياء ونجوا من الذبح وهذه العذابات كانت من نوع التعذيب الذي وقع عليهم في العصور السالفة وهي تمييز الوان ملابسهم عن ملابس المسلمين بطريقة أجبارية وتعليق اجراس في اعناقهم عند دخولهم الى الحمام حتى يحاذر المسلمون الذين يكونون فيه لئلا يتدنسون

منهم ولا يجوز لقبطي الاستخدام في أي محل عمومي أو في دائرة أحد الامراء أو في أية وظيفة من وظائف الحكومة في الاقاليم . وكل قبطي يظهر لابسا عمامة بيضاء أو راكباً فرساً أو بغلا يسوغ ذبحه بيد أول مسلم يراه أو يقابله في الطريق وتصبح امواله غنيمة لقاتله والذي كان يسمح لهم بركوبه هو الحمار فقط على شرط أن يركبوه بالعكس . وبينما كان السلطان جالساً في ديوانه يجهز هذه القوانين كان القتل والنهب مستمراً على اشده حتى مل المتعصبون القاتلون الذبح وعافت نفوسهم مناظر الدماء وابتدأ ضميرهم الميت يحيا ويوخزهم فخافوا شر العاقبة وافاقوا من سكرهم فكفوا يدهم عن القتل بعد أن تأكدوا انهم نفذوا اوامر السلطان بحرارة اشد مما يجب وقالوا بعد ئذ انه من الضروري أن حكومتنا الاسلامية تؤمن علينا ثانية وطلبوا منها عفواً عاماً عن كل ما فعلوه مع الاقباط وفي صباح اليوم الثاني ظهر هياج وأخذ المسلمون يحتشدون وقصدوا سلطانهم ليشكروه وكانوا يصفقون مبتهجين . وقيل أن السلطان لما رآهم كذلك تبسم ضاحكا عليهم فرحا بخلاصه من شرهم !!

ولكن ذلك السكون لم يدم طويلا بل انه في الليلة التالية تأججت النيران ثانياً في القاهرة وانتشرت بسرعة هائلة في انحاء المدينة حتى خيف على القلعة ذاتها من الاحتراق وظل الاقباط مختبئين داخل منازلهم أياماً طويلة وظلت الكنائس مقفلة مدة سنة ونصف حتى أرسل امبراطور البيزانطيوم (اليونان) وملك اسبانيا وفوداً لحكومة مصر يتضرعون

اليها لاتخاذ الوسائط التى تمنع تعذيب الاقباط اخوانهم في الدين . لانهم خافوا أن يكون عدد عظيم منهم قد اعتنق الاسلام في تلك الظروف المدلهمة . اما البطريرك فلم يصبه ضرر وظل عائشاً مدة كل تلك الاضطهادات التي حلت بشعبه وعاش بعد ذلك خمسة عشر سنة . اما اثناسيوس الثالث بطريرك الكنيسة الملكيه فلم يجسر على المجيء لزيارة ابرشيته فى الديار المصرية وقت تلك المحن وظل كل تلك المدة فى القسطنطنية منهمكا في المشاكل التي كانت قائمة بين الامبراطور والاكليروس فى تلك المدينة واخيراً طرده الامبراطور من القسطنطنية فكان يخشى الحضور الى القطر المصري فنزل فى جزيرة امبوعا ومنها توجه الى اليونان حيث طرح هناك فى السجن

وكان ذلك الرجل كباقي رجال الاكليروس المصريين مكبا على مطالعة الطب فشفى سجانه وكان ذلك سببا فى خلاصه ولا نعرف اذا كان قد رجع الى مصر بعد ذلك ام لا

اما قانون العقوبات المختص بالاقباط فى ذلك الحين فلم يكن يسري مفعوله على اليهود ولكنه يظهر انهم نالوا النصيبهم من الامان وتخلصوا من عذابات الاقباط . وذكر المقريزي حكاية فى تاريخه وقعت بين يهودي وقبطي وهو انه كان لاحد الاقباط مبلغاً طائلاً من المال على احد اليهود فلما رفت القبطي من وظيفته فى الحكومة اصبح محتاجاً لماله لينفقه فتوجه الى منزل القبطي على غير ارادته وصار يتوسل اليه أن يرد له ما عنده من

الدين . فما كان من اليهودي الا أن اعطى اشارة الانزعاج والاضطراب من مداينه متظاهراً انه كان يقصد ايقاع الضرر به ففي الحال أجتمع جمع كثير من المسلمين ليقبضوا على القبطي ويقتلوه فاسرع القبطي المسكين واختفى داخل منزل اليهودي وتضرع الى زوجته أن تحافظ عليه من يد القاتلين فحن قلبها عليه وخبأته تلك الليلة بشرط أن يتنازل عن الدين الذي له على زوجها

وقبل أن تسمح له هي وزوجها بالخروج من منزلهما اجبروه أن يكتب لهم صك مخالصه بدينه

ولما تناقص الاضطهاد سنة ١٣٢٥ مسيحية وصل للسلطان الناصر خطاب من امبراطور الحبشه بضرورة اعادة بناء الكنائس التي هدمها المسلمون وحسن معاملة الاقباط والا اضطر أن يهدم كل مساجد المسلمين في مملكته ويحجز مجرى النيل عن مصر فضحك الناصر من هذا التهديد وطرد وفده دون أن يرد على خطابه فعادوا من حيث اتوا ولا ينبئنا التاريخ بعد ذلك ماذا تم لمساجد المسلمين فى الحبشه اما النيل فيظهر انه لم يحجز مجراه

وفي سنة ١٣٢٧ مسيحية ثار المسلمون على الاقباط ثورة كبيرة وهدموا كنيسة القديسه بربارة . وكانت حجة المسلمين فى هدم هذه الكنيسة أن الاقباط لما استأذنوا السلطان فى اعادة بنائها كبروا مساحتها ولم يتم بناء الكنيسة بعد هدمها ولم تزل آثارها باقية وراء قصر الشمع

مصر القديمة . وفى تلك السنة مات بطريرك الاقباط يوحنا التاسع وأخلفه بنيامين الثاني

وصرف السلطان الناصر ابن قلاوون باقي ايام حكمه فى الاصلاحات(١) الداخلية فابطل الضرائب الظالمة وهي ما كان يؤخذ من الرجل زكاة عن ماله ولو فقد منه ذلك المال فاذا مات الرجل يؤخذ من ورثته وغير ذلك من اشكال الضرائب التي لا محل لتفصيلها هنا وبذل كل قواه فى تشييد المباني الفخيمة . وفي سنة ٧١٧ هـ بنى جسراً بين بولاق وميت سيرج لحجز مياه النيل عند الفيضان لان الارض كانت واطيه فعند الفيضان كانت تجري المياه حتى نقطة قسم الازبكيه الآن وبعد بناء ذلك الجسر كفت المياه وتكونت هناك جزيره دعوها جزيرة بولاق ثم اتصلت بالبر وصارت مرسى للسفن ولا تزال باقية الى اليوم حيث يوجد قسم بولاق

ولكثرة مبانيه وعماراته جدد تقريبا مدينة القاهره وكان الفضل في ايجاد عدة مدارس وكليات ومساجد ينسب اليه . وكذلك انشاء عدة

(١) كان الاقباط ايام السلطان الناصر يقيمون احتفالا في ٨ بشنس من كل سنة يسمونه عيد الشهيد على ضواحي النيل عند شبرا توارثاً عن اجدادهم الذين كانوا يعتقدون ان النيل لا يفي الا اذا القوا فيه تابوتاً من الخشب فيه اصبع من اصابع اباتهم المائتين فكانوا يجتمعون على أختلاف درجاتهم من القرى الى تلك النقطة ويكثرون من الغناء والسكر واللعب وينفقون مبالغ عظيمة في هذا الاحتفال وكان فلاحو شبرا يعتمدون في وفاء خراجهم على مايكتسبونه من بيع الخمر فابطل الملك الناصر هذه العادة ولم يعد أحد يستعملها الى الآن

اسبله عموميه وفي سنة ٧١٨ﻫ بني جامعاً في القلعه دعاه الجامع الناصري وكان يصلي فيه مع حاشيته وبنى بجانبه جلهم محمد علي المدعو الجامع العتيق وتستعمله الحكومة المصرية في هذه الايام مخزنا للمهمات العسكريه ولكنها اخلته اخيراً وعرضته لفرجة السائحين ويرى الناظر على يساره جامع محمد علي في القلعه

وكانت مدة حكمه الاخيره كلها سكون وسلام ولم يخرج من مصر الا لزيارة الحج مرتين وتزوج بابنة ازبك خان ملك التتر سنة ٧٢٠ ﻫ ومن ضمن اصلاحاته العظيمه انه نزح الخليج الناصري سنة ٧٢٧ ﻫ وكان معدا للملاحة وقتئذ ويوصل الاسكندريه بالنيل وكان على وشك التلف قبل تطهيره وسنة ٧٢٨ ﻫ أنشأ سبعة جسور سنة ٧٢٩ هو شاد مرصداً في الميدان وقصراً على انقاض قصر الاشرف انتهى منه سنة ٧٣٤ ﻫ وبنى جسور شبين سنة ٧٣٥ ﻫ . وجامع عظيم بجانب جامع ابيه في شارع النحاسين لم يزل معروفا باسمه للآن يرى الناظر عند الدخول اليه اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف ابن قلاوون اتي بها من عكا تذكاراً لانتصاراته هناك . وفي الجامع كتابة تدل على ان الذي بناه هو السلطان محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي سنة ٦٩٨ ﻫ والمقريزي يقول ان بناه كان في سنة ٧٠٣ ﻫ وان الملك العادل كتبوغا هو الذي شاد اساسه ولكنه معروف للآن باسم الملك الناصر .

وحفر الناصر ترعة اخرى بين الخانكه وسرياقوس وقوي شواطي النيل وشاد داراً كبيره تدعي دار العدل وعيونا كثيرة ومدارس عالية وانم البيمارستان الذي كان قد شرع ابوه في بنيانه واوقف له اموالا ولما كانت اميال المماليك الامرآء متجهة للسلب والنهب فيظهر انهم كانوا غير راضين عن حكومة الناصر ونظامها فاصبح في عينيهم حقيرا ولما ادرك حقيقة اميالهم بحسن ذكائه دبر لهم امراً يشغلهم به عنه فاخذ يرسلهم حملات متتابعه لمحاربة النوبه وسلبها

وهذه كانت عادة سلاطين مصر في معاملة من ينازعونهم العرش فيشغلوهم عنهم بمحاربة السودان فلما وصل المماليك الى النوبه وحاربوها وارغموا سلطانها للخضوع عادوا الى مصر فرجع النوبيون الى طاعة ملكهم الذي رفض ثانيا ان يقسم يمين الطاعه والخضوع لسلطان مصر .

ولكن من الاسف ان كل روابط المسيحيه والوطنيه السودانيه انحلت وتلاشت سريعا بسبب دوام اختلال الاحكام وفسادها الناتج من تجارة الرقيق القهريه وغزو المسلمين المتتابع للبلاد النوبيه بسبب قيام مدعي نوبي جديد يطالب بالعرش وكان الناصر شديد الولع بتربية الخيل حتى قيل انه في بضع سنين من مدة حكمه كان يأتي الى اصطبلاته سنويا نحو ثلاث الاف جواد وفي سنة ١٣٣٧ م (٧٣٨ﻫ) فجع بفقد احب انجاله اليه وهو الامير اندق ولم يبرأ الناصر من المرض الذى اصابه حزنا على وفاة ابنه المذكور وظل بدائه حزينا حتى توفى في ٢١ ذى الحجه سنة ٧٤١ﻫ

الموافق ٦ يناير سنة ١٣٤١ وفاضت روحه وهو بمفرده ودفن حالا في الليل بغير احتفال وكان عمره ٥٧ سنة ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر وبموته ماتت مشروعات عظيمه كان يجتهد في اتمامها وكان المماليك بعد مماته يتشاجرون كالطيور الجارحه عند وقوعها على الجثث الباليه لكي يعيدوا احكام الفوضى والفساد التي قضى عشرون سنه في ازالتها(١) ومحوها وتوفى الناصر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الاخر الا ان تنصيبهم وخلعهم كانا بيد احزاب متضاربه من المماليك الامرآء فكانوا لا يستقرون على حال ولذلك كانت مدة حكمهم قصيرة كما ترى

وكان اولاد الناصر كلهم قاصرون عند وفاة ابيهم الا واحد منهم وهو ارشدهم الامير سيف الدين ابو بكر فسمح الامرآء بمبايعته فاعتلى عرش ابيه ولقب بالملك المنصور ولكن بعد اربعين يوما من حكمه عزله الامرآء المماليك وتغوه الى قوص في مصر العليا وظل هناك حتى توفي سنة ٧٤٢ هـ وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء أبيه واهانوهن ونهبوا متاعهن .

ثم اخذوا منهن طفلا من اولاد الناصر في السادسه من عمره اسمه علاء الدين قوجوق فبايعوه عليهم سلطانا بهزء وسخريه ولقبوه بالملك

(١) كان الناصر قبل وفاته يسيء الظن في كل واحد من الامرآء والكتاب والمورخون المعاصرون له يؤكدون انه سمم على الاقل مايه وخمسين شخصا واستولى على اموالهم وذلك لاعتقاده انهم يتآمرون على قتله

الاشرف . وبعد خمسة اشهر خلعوه وسجنوه في القلعه حتى توفى فيها .

وهكذا تعاقبت اولاد الناصر الثمانيه عرش الملك بالاسم فقط مدة تختلف ما بين اربعين يوما وثلاث سنين . ولم يسمح لهم الامرآء بالتمتع بالحريه في حكمهم بل ظلوا يتشاجرون فيما بينهم وتركت حكومة مصر ليد حكامها وموظفيها الدائمين من مسلمين واقباط فكان ذلك احسن فرصة ارتاح فيها الناس وكل الثمانية اولاد خلعوا من الملك ما عدا الرابع منهم الذي دام حكمه اكثر من ثلاث سنوات ثم مات موتا طبيعيا . واما السبعة الباقين فخلعهم المماليك عنوة وتغوا اثنين منهم وطرحوا واحداً في السجن كما تقدم وسجنوا ثلاثة واليك تفصيل ذلك بالايجاز

بعد ان خلع الاشرف ثاني انجاله وسجن في القلعه بايعوا اخاه الثالث شهاب الدين احمد بعد ان استقدمه المماليك من الكرك ولقبوه بالملك الناصر (الثاني)وخلعوه في ١٢ محرم سنة ٧٤٣ هـ وتغوه للكرك ثانيا . وبايعوا الاخ الرابع عماد الدين اسماعيل ولقبوه بالملك الصالح وهذا الذي تقدمت الاشاره اليه بانه بقي ثلاث سنوات فاعاد منصب الوزاره سنة ٧٤٤ هـ الذي كان قد الغاه ابوه وقتل اخاه شهاب الدين احمد سنة ٧٤٥ هـ وهو المنفي في الكرك وانتهت سلطته بموته في ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام . وبايعوا اخاه الخامس زين الدين شعبان . ولقب بالملك الكامل ولكن اعماله كانت ناقصه فكرهته الرعيه وعزل في جماد الاولى سنة ٧٤٥ هـ بعد ان حكم سنه وبضعة

أشهر وبويع اخوه السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك الظافر (الثالث) وكان اكثر استبداداً من سلفه فذبح فى ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ هـ بعد ان حكم سنة وثلاثة اشهر

وبويع بعده اخوه السابع ناصر الدين حسن سنة ١٣٤٧ مسيحيه (سنة ٧٤٨ هـ) ولقب بالملك الناصر (الثالث) فحكم اكثر من ثلاث سنوات ثم خلع وسجن فى القلعه ومما يروي عنه انه كان يسير سير ابيه ويقلده فى الاحكام فلم يحكم تلك المده القصيره الا وداهمه المماليك بالخلع وفى اوائل حكمه سنة ١٣٤٨ مسيحيه اصيبت مصر والبلاد الاروبيه بوباء فتاك نسميه فى بلاد الانكليز (الموت الاسود) وكانت نسبة الوفيات به فى مصر هائلة ومفزعه جداً فكانت افراد العائلات تنقرض عن آخرها ويستولى المماليك ونائب السلطان على متخلفاتها من اموال وعقار وغيرها ويقول المقريزي انه مات فى مصر وحدها خمسة عشر الف نفسا فى يوم واحد ومعدل الوفيات التي حصلت بسبب الكوليرا التي داهمت القطر المصري سنة ١٨٨٣ كان نحو ثلثمائة نفس يوميا فى القاهره . ولم نزل نعتقد حتى الآن بالاختبار ان (الموت الاسود) كان اشد فتكا بالناس من كل الاوبئة التي زارت مصر بعده لان موت الف نفس يوميا فى مدينة واحده وهو متوسط الوفيات كان امرا غريبا وكان البطريرك بطرس الذي اخلف بنيامين سنة ١٣٤٠ مسيحيه قد توفى فى تلك السنة وانتخب الاساقفه بدله مرقص الرابع . وفي ايام حكم احد اولاد الناصر ابن

قلاوون زار مصر يوحنا موند فيل . فكتب في تقريره عن تلك الزياره يقول انه مكث في مصر مدة طويلة وكان السلطان يتحبب له ويوده كثيراً وعزم على تزويجه بابنة احد الامراء اذا اعتنق الدين الاسلامي . وكتب السيد يوحنا هذا كتابات مهمة عن مصر ولكنها كانت ممتزجه ببعض عبارات خرافيه فمن ذلك قوله ان سلطان مصر سافر الى اوربا مع اربعة من اشرافه متنكرين على هيئة تجار وكانوا يتكلمون الفرنساويه جيداً وقال ايضا ان السلطان أخبره بأن الصليبيين اضاعوا املاكهم بمصر وسوريا لكثرة شرورهم وخطاياهم وقال له السلطان مرة اننا نعتقد انكم لو كنتم تعبدون الله بايمان لكان الله ساعدكم في فتوحاتكم واذا كانت يد الله معكم لا يقوى أحد على الوقوف امامكم ونحن نعلم جيدا من اخبار نبواتنا وحديثنا الشريف أن المسنحيين سيأخذون هذه الاراضي منا ثانيا (يعني بها مصر) عند ما يعبدون الله بايمان واخلاص .

الفصل الثاني والستون

اطول ازمنة الاضطهاد

سنة ١٣٥١ مسيحيه و١٠٦٧ للشهداء و٧٥٢ للهجره

وخلع الملك الناصر (الثالث) ما بع انجال الناصر ابن قلاوون في

غرة رجب سنة ٧٥٢ هـ الموافق ١٣٥١ مسيحيه وسجن في القلعه وبويع بدله اخوه الثامن صالح صلاح الدين ولقب بالملك الصالح (الثاني) تحت وصاية وزيره الامير شيخون العمري الذي نسب اليه جامع شيخون في الصليبيه بالقاهره وبقى الصالح ثلاث سنوات وثلاثة اشهر واربعة عشر يوما على عرش السلطنه المصريه ولم يحدث في عهده شيئا يستحق الذكر

وفي سنة ١٣٥٣ مسيحيه (٧٥٤ هـ) دهم القطر المصري طاعونا ذريعا وانتشر في انحاء البلاد وكان في القاهره على اشده فمات به بين المصريين الحاكم بامر الله الملك الصالح لان هولاء السلاطين المسلمين كانوا دائما يتخذون القاهره مقرا لهم .

فبويع بدله عمه المعتضد بالله ويظهر انه كان ذو تأثير شديد على رعيته لان البلاد اضحت بعد موته في اضطراب عظيم وفي اثناء مدة انتشار الوباء اتي رجل قبطى من الارياف الى القاهره واخذ ينادي علنا في الطرق محذرا الناس من تماديهم في المفاسد والشرور التي جلبت على بلادهم الوباء المهلك فقبض عليه في الحال واحضر امام قاضي الاسلام وبسوأله قال انه يريد ان يقنع العالم الاسلامي بخطاياه وخطائه في ترك الديانة المسيحية وعدم اتباعها وانه مستعد أن يموت شهيدا في سبيل تأييد مبادئيه بين المسلمين فامر القاضي بتعذيبه مدة اسبوع وبعدئذ امر بقطع رأسه وحرق جثته

وبعد هذا الحادث بمدة قليله وقع حادث آخر وهو ان المسلمين

في بلدمن بلاد الارياف شكوا احد الاقباط لقاضي البلد بدعوى أن جد ذلك القبطي كان متبعا الدين الاسلامي فيجب على زعمهم ان اولاده واحفاده يكونون من المسلمين وليس من النصارى فوافقهم القاضي على هذه الدعوى وذلك الزعم وامر القبطي ان يعتنق الاسلام في الحال فرفض الرجل فالقاه في اعماق السجون واصبح لامناص له من التعذيب والموت ولما كان اقباط ذلك الاقليم الذي وقعت فيه هذه الحادثة كثيرون ولعلمهم وثقتهم بان حاكم البلد الاداري ميالا لهم شفوقا عليهم . فطمعا بمحاباته لهم واعتقادهم بتغاضيه عما يفعلون قاموا ليلا الى السجن الذي زج فيه اخيهم في الايمان واخرجوه عنوة فلما علم المسلمون صباح اليوم الثاني بما حدث هاجوا وماجوا واسرعوا الى قفل حوانيتهم وهرولوا جميعا الى القاضي يتذمرون من عدم تنفيذ اغراضهم وتطرف جماعة الاوباش فقصدوا القبض على الحاكم وقتله فاستدعي حرسه فحضر منهم عدد كبير وحملوه على اكتافهم وهربوا به خارج المدينة وظل تحت رحمة رعاع بلده الذين قبضوا بعد ذلك على كل قبطي في البلد لم يمكنه الهروب مع اخوانه وعذبوهم عذابا اليما ثم هجموا على الكنيسة بتوحش وفظاظه وحرقوا صلبانها وايقوناتها واخذوا حجارتها فبنوا بها جامعا امام النقطه التي كانت قائمة فيها الكنيسة . وبعدئذ صوبوا سهام تعصبهم الوحشي الى قبور الاقباط فنبشوها واستخرجوا منها جثث الموتي وحرقوها . ووقفت حركة الاعمال واصبحت المدينه في غاية الفوضى والارتباك

فكتب حاكم المدينة الى الخليفه في القاهره يشكو من تصرف قاضي البلدة واعماله المهيجة ضد الاقباط الامر الذي كان سببا في ضياع خمسماية الف درهم من مال الحكومة على الاقل وكان الاقباط من الجهة الاخرى قد رفعوا شكواهم للامير حسام بالقاهرة مما حصل لهم من قاضي الاسلام وطلبوا اعادة بنا كنيستهم. فاستقدمت الحكومة الحاكم والقاضي الى القاهرة وحققت معهما الحادثة امام اربعة من حكام القاهرة والوزير وكثير من كبار رؤساء الحكومة . واسفرت التيجه عن توبيخ القاضي الشرعي فى المدينة التي حدثت فيها هذه الحادثة ولكن الاربعة حكام الذين حضروا المحكمة كانوا من حزب القاضي ومن المعادين للاقباط ولو أن الامير حسام واميرالوجه البحري قد دافعا دفاعا شديداً عن حاكم البلد الذي تعرض لحماية الاقباط الا انهما وقفا على الحياد لان نائب الملك الأمير شيخون كان تحت سلطة عاكم الدين شيخ جامعه الذي الهب نار الغضب في قلوب اعضاء تلك (المحكمة) التي عقدت لمقاضاة القاضي الشرعي بخطبة القاها على مسامعهم باللغة التركيه أوضح فيها انه مهما كانت ظروف تلك الحادثة فانه لا يصح الانتصار لمسيحي ضد مسلم وفي ختامها أخذ يوبخ الامير حسام قائلا انه اضاع حقوق الجامعة الاخويه الاسلامية بتعرضه للدفاع عن الاقباط وأن هذا العمل يعتبر كفر والحاد وأخيراً عقدت لجنة تحكيم من الحاضرين واقرت بعزل حاكم وقاضي مدينة (نهريريا) التي حدثت فيها هذه الواقعة وعدم التعويض على الاقباط

في خسارة كنيستهم وفي الحقيقة ان المسلمين كانوا يغيرون غيرة مره من الاقباط لارتفاع شأنهم وقتئذ وتقدمهم في العلوم والمعارف واتساع ثروتهم فلم يسع المسلمون كتمان حقدهم وعوامل غيرتهم من ذلك التفضيل بل انفجر الحقد من صدورهم كالبراكين وحدث اضطهاد عظيم ضد الاقباط

ذكرنا في الفصل السابق أن ناصر ابن قلاوون كان في اثناء العشرين سنة الاخيره من حكمه يميل للاقباط ويظهر لهم المودة وظلوا متمتعين بتلك المزيه حتى في نفس زمن حكم البلاد الاهلي حيث كانت قد سقطت مصر في ايدي المماليك الجهلاء الذين ارادوا أن يحكموها بانفسهم فاوصلوها الى حالة الارتباك والاضطراب الذي لا يرجى بعده اصلاح وفي ذلك الوقت اسلم كثيرون من الاقباط واخصهم اثنان بعد اعتناقهما الدين الاسلامي ترقيا حتى وصلا الى درجة الوزاره فاوجدا اضطراباً في حكومة البلاد بكثرة مشاجراتهم . الا أن معظم الاقباط ظلوا ثابتين في معتقدهم المسيحي وهولاء ارتكانا على وظائفهم الرسمية قد تجاسروا على أحتقار وازدراء القوانين التي تصدر ضدهم وصاروا يساوون انفسهم بالمسلمين في شؤون الاجتماع وسريان القوانين والامتيازات أن لم يميزوا انفسهم عنهم فصار المسلمون ينظرون اليهم بعين ملؤها الغيظ والحنق سيما لما يرونه من تقدمهم الادبي والمادي. وكثيرون من الاقباط الذين كانوا من المسيحيين فقط بالاسم سلكوا طريقاً رديا في الغطرسة والسلب والطمع ومن ذلك يتضح أن الداعي لقيام المسلمين عليهم واضطهادهم هو طموحهم لمساواة

انفسهم بالمسلمين فكان ذلك اعظم ذنب لهم في اعين المسلمين

ويقول المؤرخ المسلم العظيم وقد نتج من ذلك أن انفجرت نار الحقد من قلوب المسلمين فاتفق أن سكرتيراً مسيحياً مر امام جامع الازهر بالقاهرة راكبا جواده ولابسا شرائط أو عقالا ابيض على رأسه وامامه السياس يطردون الناس من امامه ويوسعون الطريق ويمنعون الزحام ومن ورائه عدد كبير من العبيد يلبسون الحلل الثمينه ويركبون الجياد المطهمة

فلما رآه المسلمون على هذه الابهه أخذتهم الغيرة والحنق الشديد فوثبوا عليه كما يثب الاسد على فريسته وانزلوه عن ظهر جواده واوسعوه ضربا حتى كاد يموت فالتف حوله خلق عظيم وتعرض بعضهم لحمايته وتمكنوا من انقاذه من بين ايدي هولاء الوحوش بعد تعب عظيم ثم تقابل جمع عظيم بالاميرطاز واخبروه بما كان وتحادثوا معه بشأن الاقباط فوعدهم بان يعدل بينهم وبين هولاء المسيحيين فلم يكتفوا بذلك بل كتبوا مذكره طويله ورفعوها للسلطان الملك الصالح وطلبوا ان تقرأ على الاقباط امام الملك بحضور الامرأ المماليك والقضاة الشرعيين وباقي رجال الحكومة . واهم ما في تلك المذكره الشكوى من سير الاقباط وتطرفهم في الحريه فعقدت جلسة لهذا الغرض وصدر الامر في الحال باستدعا بطريرك الاقباط ورؤسأ دينهم وحاخام باشي اليهود وشيوخهم والامرأ والقضاة المسلمون للمثول بين يدي السلطان فلما حضروا جميعا قام

القاضي علاء الدين على ابن فضل الله وقرأ شروط معاهدة بين المسلمين والاقباط وبعد أن فرغ من قرأتها وافق الجميع على شروطها وصدقوا عليها وتلا القاضي على الحاضرين كل الفعال التي اتاها الاقباط ضد ارادة المسلمين ولذا تقرر قطع علاقتهم ببلاط السلطان ودوائر الحكومة وحرمانهم قطعياً من الاستخدام بدوائر الامرآء ولو اعتنقوا الدين الاسلامي ولا يجبر احد منهم على اعتناق الاسلام . وكتبت صورة ذلك القرار لكل حكام الاقاليم

وكانت نتيجة ذلك القرار ان ابتدأ المسلمون بالتسلط على الاقباط البؤسأ وصاروا يتعقبون خطواتهم ويتعرضون لهم في الشوارع ويمزقون لباسهم ويضربونهم بقساوة شديدة وبلغ تماديهم في القساوه والاضطهاد ان صاروا يلقون عليهم النار المشتعلة فاضطر الاقباط المساكين أن يختبئوا في منازلهم . ولما آنس عامة القوم من المسلمين انه لا حرج عليهم في نكاية الاقباط واصبح اضطهادهم عاماً مألوفا لم يتأخر اولئك الاوباش من اتباع نصائح محرضيهم فاخذوا يهدمون كل بيوت الاقباط الكائنة امام بيوت المسلمين فسأحال الاقباط جداً واصبحوا في حالة يرثي لها وظلوا زمناً طويلا لا يظهرون في الطرق ولم يعد ينظر احد منهم أو من اليهود في الشوارع كأنهم انقرضوا جميعا

ولم يقتنع المسلمون بما اتوه من اذلال الاقباط بالطرق المتقدمه بل قدموا أيضا مذكره لدار العدلية (نظارة الحقانيه) في يوم الاثنين

الموافق ١٤ رجب سنة ٧٥٥ هجريه ادعوا فيها أن الاقباط عادوا الى الحياة من جديد وابتدأوا باعادة بنأ كنائسهم المهدومه وتكبير حجمها واجتمع وراء المقدمين لتلك المذكره خلق كثير من المسلمين في القلعه تحت سراي السلطان واخذوا يتضرعون اليه بان ينصرهم على النصارى . فامر السلطان الملك الصالح الامير علاء الدين علي ابن الكوراني والي القاهره ليركب مع الحجاب ويتوجه لتحقيق الامر . ولكن لم ينتظر القوم خروج الوالي بل اسرعوا وسبقوه فهدموا كنيسة امام جسر الاسود وكنيسة في شارع المعصره في مصر العتيقه وكنيسة الفهادين داخل حدود القاهره ودير نهيا في الجيزه وكنيسة بجهه بولاق الدكرور ونهبوا مفتنيات كل الكنائس التي هدموها واخذوا كل ما فيها من الاموال والاواني الفضيه والذهبيه ولم يتركوا شيئا فيها حتي الخشب الدقيق الصنعه وبلاط الرخام المرمر الجميل ثم هجموا على باقي كنائس مصر وكانوا على وشك هدم كنيسة البندقيين في القاهره . ولما ركب الوالي وسار بينهم وحاول أن يمنعهم عن هدمها ويخرجهم منها اخذوا يزيدون قحة ورعونة وحدة وتهورا ورفضوا الرضوخ لامر الوالي

وبعدئذ كتب الملك الصالح قرارا ارسل لكل اقاليم القطر المصري وبلاد سوريا بعدم استخدام النصارى واليهود في دوائر الحكومه حتى ولو اعتنقوا الاسلام . ولكن من يعتنق الاسلام لا يسمح له بالرجوع الى بيته أو الى حضن عائلته الا اذا اعتنق ايضا افراد تلك العائلة الدين الاسلامي

واذا اعتنق اي مسيحي الاسلام يكلف جبراً بتأدية فرض الخمسة صلوات يوميا وحفلة ايام الجمع في المساجد وباقي اماكن العباده الاسلاميه . واذا مات مسيحي فيتعهد المسلمون بتقسيم تركته على وارثيه اذا كان له ورثة والا تضاف امواله وممتلكاته الى خزينة الحكومة والزموا البطريرك بالتصديق على ذلك وتلي هذا المنشور علنا في قصر السلطان وفي يوم الجمعه — ١٦ جماد الثاني قرئ أيضا في احتفال عظيم

وآخر شهر رجب هدموا كنيسة شبرا واخذوا منها اصابع احد الشهداء كان محفوظاً في صندوق صغير واحضروه الى الملك الصالح فامر بحرقه امامه على قلعة الجبل وذر رماده في النهر لكي لا يأخذه النصاري

وفي ذلك الوقت جأت الاخبار تترى بان كثيرين من اقباط الصعيد (الوجه القبلي) والشواطي البحريه (في الوجه البحرى) اعتنقوا الديانه الاسلاميه وهم قائمون بدراسة القرآن وأن اغلب الكنائس المسيحيه قد هدمت وبنيت مكانها الجوامع الاسلاميه وأنه قد اسلم من بلدة قليوب وحدها اكثر من اربعماية وخمسون قبطياني يوم واحد . وفي اثناء ذلك كان قد مهد مزارعو البلاد الاقباط السبيل لانفسهم بطرق ووسائط بديده لاستخدامهم في الدوائر الرسميه ودواوين الحكومة واخذوا يتزاوجون مع المسلمين كي يتموا رغائبهم باختلاط الاجناس ولذا فان اغلب سكان القطر المصري الآن هم ذرية ذلك الخليط الجنسي من الاقباط والمسلمين .

ورفع المسلمون الى الملك الصالح تقارير مفصله بعد ذلك بما للنصارى من الاملاك الموقوفه للاديره فاحال السلطان تلك التقارير على ديوان الاحباس الذي بعد أن اجرى احصاء دقيقا عن كل الاراضي وجد اوقافه تحت ادارة الكنيسه القبطيه تبلغ نحو ١٠٢٥ فدانا وبعض المؤرخين يقول ٢٥ الف فدان كلها موقوفه للكنائس والاديره ومن الاطيان الجيده فعرضها الملك الصالح على الامير شيخون والامير حرغتمش والامير طاز الذين كان في يدهم تدبير الدوله فانعموا بها على الامراء زيادة على اقطاعاتهم

وفي اثناء ذلك الاضطهاد القوا القبض على البطريرك مرقص وسجن وعذبوه عذابا شديداً. فعلم بذلك ملك النوبيا المسيحي فالقى القبض على كل التجار المسلمين في مملكته ورهنهم اسرى حتى يطلق سراح البطريرك فالتزم المسلمون في مصر ان يتركوا البطريرك دون أن يضروه عند سماعهم ذلك الخبر

وفي منتصف زمن ذلك الاضطهاد كان بين المرشحين للوزاره وزيران قبطيان مرتدان وعند اسلامهما دعيا انفسهما موافق الدين وعلم الدين فتنازعا الوزاره وانضمت الى كل منهما احزاب ونشاء هذا النزاع بسبب دسيسة من شقيق الملك الصالح ناصر الدين حسن الذي كان مسجونا طمعا في خلعه واعتلاء عرش ابيه مكانه وكان الساعد الاكبر لناصر الدين في غرس بذور هذه الدسيسه الامير تاج الدين بعد أن اتفق معه الناصر على توليته الوزاره مكافأة له اذا نجح في ذلك واخذ العرش

من اخيه فنجح الامير تاج الدين في دسيسته وانتهى الامر بخلع الملك الصالح في ٢٢ شوال سنة ٧٥٥ هـ وفاز الناصر بمراده اذ بعد أن خلع اخوه أخرج من السجن وبويع بدله وبقي على العرش المصري ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام وعند اعتلائه العرش ولي الامير تاج الدين الوزاره مكافأة له كما وعده وبعد ذلك قتله الامراء بمكيدة دبروها بالاتفاق مع ابن اخيه البالغ من العمر ١٤ سنة وكان قتله في ٩ جمادي الاول سنة ٧٦٢ هـ الموافق ١٣٦١ مسيحية

ومن آثاره الباقيه للان جامعه المشهور في القاهرة المعروف بجامع السلطان حسن امام قلعة الجبل وهو من اجمل مساجد القاهرة واتقنها بناه الملك الناصر في ثلاث سنوات ويقول المؤرخون انه كان ينفق عليه حوالي ستماية جنيه يوميا وقيل انه اتى بحجارته الكبيرة من انقاض الاهرام وعليه نقوش وكتابات كوفيه وعربيه زادته جمالاً

ولما قتل السلطان حسن بويع مكانه ذلك الشاب ابن اخيه الذي تآمر على قتله وكان يدعى محمد ابن الملك المظفر حاجي ولقب بالملك المنصور بعد مبايعته وظل حاكما بالاسم فقط وكان ذلك من صالح المماليك لانهم رأوا أن هذه احسن وسيلة تمكنهم من التسلط على البلاد وبعد سنتين من حكمه أي في منتصف شعبان سنة ٧٦٤ هـ خلعه الامراء اكراماً لابن عمه وهو شاب من عائلة قلاوون اسمه شعبان ابن حسن عمره عشر سنوات فبويع ولقب بالملك الاشرف (الثالث) . وظل على العرش حتى بلغ

وطأة من المجاعة وذلك أنه سطت عصابة على يلبغا العمري نائب السلطان بتدبير الامراء المماليك فقتله حراسه في قصره وقطعوه اربا وهموا يريدون قتل السلطان ايضا فردهم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فولي امير اخر اسمه الجاي اليوسفي بوظيفة نائب السلطان وكان هذا النائب الجديد طماعا محبا للشهرة والفخفخه فتقرب من السلطان الشاب وتزوج بوالدته فنال منها ثروة عظيمة فقويت شوكته وكثرت اعوانه وطمع في السلطه فقتل زوجته المذكورة وتواطأ مع قاتلي سلفه على قتل السلطان الملك الاشرف ولكنه لما كان مماليكه من المخلصين له فقد التفوا حوله ودافعوا عنه وانقذوه من قاتليه بعد أن قتلوا رئيس المؤامره ونجي السلطان هذه المره ايضا من يداعدائه بعد أن قتل مماليكه كثيرين منهم واقتفوا اثر من بقي منهم حتى اغرقوهم في النيل . ولما كان في ذلك الحين في عنفوان شبابه وكفؤا لحكم بلاده حكماً فعلياً بارادته وآنس منه الامراء ميلا لحفظ حقوقه الشرعية المهضومه وحصر السلطه في شخصه لتنفيذ رغائبه الاصلاحية تذمروا عليه واضمروا له السؤ فدبروا له عدة مكائد ودسائس ولكنها لم تفلح واخيرا اخلى لهم الجو وترك لهم البلاد يعملون فيها ما يريدون وقصد الحج في مكه المكرمة ولكنهم لم يطمئنوا تماما فكمنوا له في مضيق العقبة عند عودته بعد زيارته الحرمين فقتلوا حاشيته اما هو فلم يقفوا له على اثر فظنوا انه قتل مع من قتلوا من حاشيته فعادوا الى القاهرة وعرضوا العرش المصري على الخليفة المتوكل بالله الذي

تولى الخلافه بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٣ هـ وفوضوا اليه مبايعة من يشاء . لان الخلفاء بعد أن فروا من سوريا واتخذوا القاهرة مقراً لهم قبل ذلك الحين بمائة سنة كانت لهم منذ مهاجرتهم سلطة روحية دينية محترمة نافذة المفعول على العالم الاسلامي كله ولو انها ليست مؤثرة اداريا . ولما رأى المتوكل ذلك حاذر كثيراً من المخاطره بمركزه اذا سلم بمطالب الامراء فكتب اليهم يقول (اختاروا من بينكم من تشاؤن وانا اصادق على ذلك) وفي هذا الوقت علم الامراء أن السلطان الاشرف الذي افتكروا انه مات رجع للقاهرة وكان مختبئاً بمنزل احد اصحابه فاسرعوا في الحال وهجموا على ذلك البيت وخنقوا الاشرف قبل أن يغيثه احد أو ينقذه من ايديهم وكان ذلك في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ

وبايعوا بدله ابنه الصغير علاء الدين علي وكان عمره وقتئذ ٧ سنوات وكانت حداثته الشفيع الوحيد لاعتلائه العرش ففرح بالعرش لحداثته ولم يدر انه مدفنه ولقبوه بالملك المنصور السادس وعينوا له وصياً يدعى الامير لاين بك ثم ابدلوه بالامير قرطاى واخيراً قبض الامير برقوق على هذا المركز العظيم وحفظه لنفسه لان هذه الوظيفة غاية ما كانت ترمي اليه مقاصده وما تتطلع اليه نفسه

وكان والد برقوق صبي من المسيحيين (المماليك) اشتراه تجار الرقيق من بلاد الشركس ليبيعوه في اسواق مصر فاشتراه الامير يلبغا سنة ١٣٦٤ مسيحيه والزمه بترك الديانة المسيحيه واعتناق الدين الاسلامي

كما هي العادة في معاملة باقي المماليك وكان له ابن يدعى برقوق ادهش الامير يلبغا بجماله وذكائه ونشاطه فارسله لدار التعليم المصريه فبرع في الفقه وسائر العلوم الاسلاميه فرقاه الى درجة أمير وكان برقوق عند قتل سيد والده الامير يلبغا ذو كفاءة وامتياز بمهارته وحذاقته بين كل مماليك يلبغا فزجه قاتلو يلبغا في السجن مع اخص اصحابه المدعو بركه بعد ان شتت باقي حرس يلبغا . فتوصل برقوق بعدئذ بمهارته أن يخلص نفسه من قيود السجن فهرب منه وخدم عند منجك حاكم دمشق حتى استدعاه ثانيا الملك الاشرف الى مصر قبل قتله وعينه قائد فرقة من المماليك وبعد قتل السلطان الملك الاشرف ظل برقوق يخدم ابن الاشرف علاء الدين الطفل بامانة واخلاص لما اسداه اليه والده من المعروف وظل بوظيفة نائب ووصي للسلطان الطفل لان هذه كانت اجل رغائبه كما تقدم

وكانت ماجريات الاحوال في النوبة (السودان) من زمن سائرة من ردئ الى اردأ لكثرة تداخل سلاطين مصر في امورها وعدم اتفاقهم مع امرائهم في مصر وكثرة تقاطعهم فانهم كانوا دائما يتفقون ويتكاتفون معاً لبذر بزور الحروب الاهليه وانتشار تجارة الرقيق في السودان

وحدث ان احد ملوك النوبه الصالحين الذي صرف اغلب مدة حكمه في محاربة مزاحميه في الملك ومدعي العرش تمكن بمساعدة حكومة مصر وتعضيدها فعقد اتحالفا مع قبيلة عظيمه تعرف بقبيلة اولاد كنز وتعاهدوا

مع اشراف قبيلة نوبيه اخرى عظيمة البأس واشهرت القبيلتان معاً حربا ضد جميع المسلمين وقطعوا كل الطريق ما بين اصوان وسواكن فقام يلبغا نائب السلطان من مصر يقود حمله عظيمه من المسلمين قاصداً السودان لقهر اولئك القوم متظاهراً بالمودة الى الملك الحاكم في النوبه فتمكنوا بهذه الخدعه أن انقضوا عليهم فجأة وقامت معركه هائله انجلت عن هلاك قبيلة اولاد كنز عن اخرها وخراب مدينة دنقلا فلم يبق من سكانها أحد على قيد الحياه على ان الفظائع القاسيه الوحشيه التي اتاها المماليك في حملتهم هذه هيجت الدم في عروق سكان اقليم اصوان فاحدثوا ثورة هائلة اخمدها المماليك بهذه الطريقه الوحشيه البربريه أيضاً

ولما كان برقوق بوظيفة نائب السلطان علي بن شعبان الطفل كان حاكم اصوان أميراً جباراً عاتياً فاق بقساوته ووحشيته عن كل امثاله من المسلمين خصوصا في معاملة من يقع تحت يده من افراد قبيلة اولاد كنز فانه كان يمثل به اشنع تمثيل . وارسل للسلطان الطفل اثني عشر رأسا من رؤوس هولاء المقتولين بعد تعذيبهم ومائتي اسير احياً من جهة الكنوز مكبلين بالسلاسل بصفة هديه وبما أن الضغط والمقاومه يظهران القوة الكامنه كما هو الناموس الطبيعي الذي لا مرد له لم يستطع اولاد كنز السكوت على تلك الفظائع البربريه فقاموا اخيراً دفعة واحده ضد الامير حاكم أصوان ونزلوا على مدينة أصوان يسلبون وينهبون ما فيها وتسلطوا على كل اقليم أصوان ودام تفوذهم عدة سنوات كان فيها هذا الاقليم كأنه ليس من

اقاليم المملكه المصريه .

ولكن قبل قيام أولاد كنز لهذا الغزو كان السلطان الطفل قدتوفى في ربيع أول سنة ٧٨٣ هبعد أن حكم أربع سنوات واربعة اشهر خدمه في خلالها الامير برقوق اصدق خدمه . وبويع بدله أخيه زين الدين خاجي وكان عمره ست سنوات ولقب بالملك الصالح (الثالث) وبقي على الاريكه المصريه نحو سنتين ويقول بعض المؤرخين سنة ونصف فقط ثم سئم برقوق من أخفاء مقاصده وطمعه في الملك خلعه ونفاه في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ واستلم مقاليد المملكه المصريه رسميا بدله في سنة ١٣٨٢ مسيحيه (٧٨٤ هـ) برضي الامرأ والخليفه المتوكل بالله والوزراء والعلماء

وكان الصالح الثالث آخر من حكم من مصر سلالة قلاون رأس دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية او التركمانيه حيث حكمت مصر نحو ماية سنة وثلاثين سنة كان اولها امرأة وآخرها صبي وقامت بعدها دولة المماليك الثانيه المعروفه بالمماليك الشراكسه التي ابتدأ حكمها برقوق كما سيجيء في الفصل التالي وجلس برقوق على العرش المصري ولقب بالملك الظاهر وفي ابتدأ حكمه سمع بمجيء تيمورلنك الفاتح التتري الشهير على حدود سوريا لاجل افتتاحها فحشد جيشا عظيماً من مصر وسافر الى سوريا فاوقف تيمور لنك عند حده ولم يكد يرجع بعد نصرته الى مصر وكان قد قضى نحو ثلاث سنوات على عرشها حتى ظهر له عدو داخلي يزعزع اركان ذلك العرش اذ علم أن الخليفة المتوكل بالله كان يدعو الامراء ويدس

الدسائس لخلعه فاتفق برقوق مع المشايخ والائمه والعلماء على خلع ذلك الخليفة فخلعه وسجن في القلعة سنة ٧٧٨ هـ واعلن العالم الاسلامي بخلعه فبايعوا شخصا آخر اسمه عمر اخا ابراهيم ولقب بالواثق بالله فلم يعش الا سنة ثم توفى سنة ٧٧٨ هـ فنصب برقوق بدله ابا يحيي ذكريا عمر ابن الخليفه المستنصر بالله ولكنه لم ينل الحظوى في عيني برقوق فخلعه في جماد اول سنة ٧٩١ هـ اكراما لخاطر المتوكل ثم ندم برقوق على خلعه فاخرجوه من السجن واراد اعادته الى الخلافه ورد شرفه اليه ولكن المتوكل لم يسامح برقوق على خلعه من الخلافه ولم ينس هذه الاسأة فلم يقبل بدعوته الى الخلافة . فتواطأ مع مناطش احد الامراء على خلع برقوق فخلعاه بموافقة بقية الامراء ومستشارى الدوله بعد أن حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام ثم سجنوه في قلعة الكرك

وفي ٦ جماد آخر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ مسيحية) استقدموا السلطان حاجي آخر رجال المماليك البحريه الذي كان قد خلعه برقوق وبايعوه وابدلوا اسمه بالملك المنصور بدل الملك الصالح ولكن لم يتمتع بارتقاء العرش للمرة الثانية الا ثمانية اشهر فقط وحدث من الامور الغريبة في اثناء هذه المدة القصيرة بمدينة القاهرة ما يستحق النشر في بطون التاريخ عن نهاية حكم دولة المماليك البحرية في مصر

وتحرير الخبر انه كان قد مضى في ذلك الحين نحو ستة وثلاثين سنة من عهد قيام الاضطهاد الشديد ضد الاقباط الذي اضطر عدداً عظيماً الى

أن يتركوا ديانتهم المسيحية وقلل عدد الثابتين في ايمانهم وكانت في ذلك الحين تحدث ثورات منشأؤها التعصب ضد الاقباط ومع أن الحكومة كانت وقتئذ تحذر من وقوع هذا التعصب وتقاومه فان مضايقة الاقباط من المسلمين كانت دائمة مستمرة

ويبعد عن الظن بان الاقباط الذين اسلموا في سنة ١٣٥٥ مسيحيه كانت لهم يد في تحريك هذه الثورة ضد اخوانهم الاصليين سنة ١٣٨٦ لان عدداً كثيراً من هولاء المرتدين كانوا تحت نير وضغط المسلمين كباقي الاقباط المسيحيين

ولم يذكر التاريخ أن المسلمين اظهروا سرورهم ورضائهم من هولاء الاقباط المرتدين الا واحد منهم وهو (الجاحد) ميخائيل شعبان فان هذا الرجل كتب المسلمون كثيرا عن مركزه الاداري السامي الذي ارتقى اليه بعد ارتداده بثلاث سنوات . ولما اعلن اسلامه طار المسلمون به فرحا والبسوه حلة ثمينه واركبوه بغلا من بغال السلطان وداروا به في موكب عظيم حول المدينه ثم كافأوه بذلك المركز الخطير السامي في الحكومة

ومن عهد جلوس البطريرك متي على الكرسي المرقسي سنة ١٣٧٥ مسيحيه ظهر الشعور الديني والحماس الوطني بين الاقباط ورجع كثير من المرتدين الى ديانتهم المسيحيه الاصليه

وفي سنة ١٣٨٩ مسيحية دخل القاهره جمع عظيم من الرجال والنساء وصاروا يصيحون باعلا صوتهم قائلين (نحن نصارى نحن نصارى)

وانهم تركوا ديانة الانبياء الكذبة وانهم لم يتركوا دينهم الاصلي الاخوفا من اضطهادهم . وكان غرضهم من هذا الاعتراف العلني أن يكفروا عن خطاياهم السابقه ويتطوعوا للاستشهاد

فاحتاط بهم المسلمون وحاولوا ارجاعهم الى الاسلام ولكن ذهب سعيهم سدى وصاحوا جميعا بصوت واحد قائلين قد اتينا الى هنا لنكفر عن خطايانا ونقدم ارواحنا لتكون قربانا على مذبح فادينا يسوع المسيح فتنال منه المغفرة

فلما أعيت المسلمين الحيلة قصدوا ارهابهم بالتعذيب فابتدأوا بتعذيب الرجال وقطعوا الكثيرين كقطيع الغنم الى الميدان العظيم تحت نوافذ مدرسة الصالح وابتدأوا بقطع رؤوسهم الواحد بعد الآخر . فلم يؤثر ذلك المنظر الفظيع على ثبات النساء في عزمهن وابدين الاصرار حتى الموت فامر احد القضاة الحاضرين احد الحراس أن يسوقوا النسوة بلا امهال الى سفح الجبل تحت القلعه ويقطعوا رؤوسهن . ففذ هذا الامر على ان الكثيرين من الناس حتى من المسلمين انفسهم لاموا ذلك القاضي على اعدام اولئك النسوة البائسات

ولم يقتصر ذلك الاضطهاد الفظيع على اقباط القاهرة فقط بل تناول ايضا الخارجين عنها . اذ أنه بعد تلك المذبحه العظيمه ببضعة ايام قبضوا على راهب وصاحبه وثلاثة نساء وقطعوا رؤوسهم وحرقوهم وكان ذنب الاول وعظه ضد الدين الاسلامي والثانيين لوقوفهم امامه وتشجيعه لينال

نخر الاستشهاد . وفي آخر تلك السنه المشؤومه قبض المسلمون على بطريرك الاقباط وحاخام اليهود والقوهما في السجن وفرضوا على البطريرك فدية مايه الف درهم والحاخام خمسين الف . الا ان قساوة الامير منطش والخليفة المتوكل اللذان كان في يدهما القوة والسيطره على السلطان الشاب لم تكن قاصره على الاقباط فقط بل على جميع المصريين فادي ذلك الى تذكر الناس أحكام برقوق العادله . فلم تمض سنة عليه في سجنه حتى أستقدموه باجماع الاراء .

فعاد وتربع على عرش الدولة المصريه في ٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ وتعلم برقوق عند المره ان يستأثر بالملك وكان اول عمله مذبحة عموميه حيث بادر حالا الى الملك المنصور وقتله هو وكل من كان على دعوته من أحزابه تخلصا من دسائسهم . ثم اصلح خارجية البلاد ووطد الامن في انحاءها ولعدم ثقته بمقاصد احزاب الخلفا تداخل بينهم واخذ يسير غورهم ويفرق بينهم حتى لا يتحدوا على خلعه

الفصل الثالث والستون

المماليك الشراكسه

سنة ١٣٩٠ ميسيحيه و ١١٠٦ للشهدا و ٧٩٢ هـ

جلس الملك الظاهر برقوق اول سلاطين دولة المماليك الشراكسه

للمره الثانية على العرش المصري سنة ١٣٩٠ و٧٩٢ هـ وظل هذه المره عشر سنوات وفى سنة ٧٩٤ هـ اهداه قرا يوسف امير الدوله الماديه مدينة تبريز فرد له برقوق هذا الجميل بهدية ثمينه وفوضه بفتح مايستطيع من البلدن على شرط ان يكون واليا عليها ولكنه اتى بعد ذلك بسنة دون ان يفتح شيئا ومعه احداعوانه فارين الى القاهرة من وجه تيمورلنك لانه ظهر في ذلك الوقت قائدان عظيمان مسلمان كانا يجاهدان في اوربا واسيا لينالا السيادة في هاتين القارتين . وكان احدهما تيمورلنك القائد التتري الشهير والثاني بايزيد ابن مراد رابع سلاطين عائلة الدولة العثمانية التركيه الظافره وهي التي كان قد قارب وقتئذ صبحها البزوغ وسميت بالعثمانيه نسبة لاول سلاطينها عثمان الملقب بالغازي لانه غزا آيالات المملكه الرومانيه الشرقيه . وقبل مجي قرا يوسف وصاحبه الى القاهره كانا قد طلبا من عمانوئيل أمبراطور القسطنطينية وقتئذ ان يؤمنهما نخاف منهما لانه كان في ريب من نجاته من يد بايزيد الفاتح التركي العظيم لانه تهدد القسطنطينية بدخولها واوشك ان يكون الحاكم المطلق في العالم الشرقي كله لو لم يفاجئه القائد التتري بجيشه من الوزراء فاوقفه عن مقاصده واصبحت اسيا ترتعد بين يدى فاتحين عظيمين شديدي البأس فلما تلاطمت امواج قوتهما هناك اهتزت لهما افريقيا واضطربت مصر من قوة دوي تلاطمهما

وبعث كل منهما وفداً الى سلطان مصر وكانت مطالب الوفدين من

برقوق تختلف عن بعضها اذ طلب وفد تيمورلنك الى برقوق بخشونة وفظاظة ان يخضع له فى الحال وأن يسلم له قرا يوسف وصاحبه احمد ابن عويس الملتجئان اليه اما وفد بايزيد فطلب الى برقوق أن يتعاهد معهم سلميا . وأن يقرهم الخليفه رسميا على سلطنة الاناضول

فطيب برقوق خاطر وفد تيمورلنك ولاطفهم فازدادوا جورا فامر بقتلهم . واجاب طلبات وفد بايزيد وعقد المحالفه معه

فشق على تيمورلنك قتل سفرائه لانشغاله وقتئذ في تجريد حملة مهمة لفتح الهند مما اخره عن الانتقام لهم ويقول بعض المؤرخين أنه ساق جيشه للانتقام من مصر فمر بالرها وحلب وفتحهما في طريقه لكنه قبل وصوله الى حدود مصر توقف لغرض في نفسه لاجل تمهيد افتتاح مصر بطريقه اخرى

على أن برقوق كان دائما متيقظا نخاف عاقبة قتل سفراء تيمورلنك فحصن البلاد واكثر من الجند والسلاح واستعد للهجوم والدفاع وتأهب لمجيء العدو وكان يتحين الفرص لاصلاح حال مملكته فنظم الحكومة بكيفية دلت على مقدرته في تكوين الحكومات المنظمه على طرق امتن من حكومة القوات الاستبداديه التي حكم بها مصر رجال دولتى المماليك البحريه والشركسيه

وقلل ضرائب الحبوب والغى ديوان العوائد التى كانت تؤخذ على الاثمار والفواكه الوارده بمينا بولاق الدكرور وكان يهب المساعدات للعلم

والعلماء المسلمين ويجعلهم تحت رعايته ويتصدق كثيراً على الفقراء

وبنى مدرسة كلية دعاها المدرسة الظاهريه نسبة له ومدينة القاهرة مدينة له باثرين من آثارها العظيمة اولهما جامع يعرف الى الان بجامع السلطان برقوق وكان قد بناه ليجعله قبر ابنته وهو بجوار جامع الملك الناصر في شارع النحاسين . وثانيهما مقام لعائلته في النقطة المعروفة بقبور الخلفاء وكان بين مشاهير رجال العلم والادب في ايامه المؤرخ المعروف بتنميق كتاباته التاريخية الحقيقية وهو اشهر مؤرخي الاسلام على الاطلاق المعروف باسم المقريزي وكان هذا المؤرخ من سلالة العرب الاصلية وقد صرف اغلب اوقاته في الدرس والمطالعة في احوال شؤون جميع الامم فتضلع من علم التاريخ وكان لمصر الحظ الاوفر من كتاباته حيث وصف احوالها وصفاً وافياً

ولد هذا المؤرخ العظيم في مدينة القاهرة سنة ١٣٦٤ مسيحية وكانت محبته وميله الطبيعي الى طلب العلم السبب الاكبر في انتصاره على صعوبة البحث في المواضيع التاريخية وادق الحقائق الدينية وتاريخ سلسلة الشعوب والقبائل وكان يتوق لتلقي العلم والاطلاع على الحقائق التاريخية من الاقباط واليهود مما يدل على انه فطر على الميل المجرد لاكتساب العلم بلا مراعاة للتعصب الديني كما كان شأن غيره من المسلمين. ولو أن تاريخه عن الاقباط تشم منه رائحة الكراهه من مسلم يتظاهر في كتابته باحتقار تلك الكراهة لهولاء القوم ولكنه على كل حال اعترف عند

تدوين الحقائق التاريخية بذكاء الشعب القبطي

وذكر بعض تفصيلات مهمة عن الاضطهادات التي قاساها الاقباط البؤساء

وكتب كثيراً في علم الفقه والتاريخ واللاهوت ووصف البلدان واسهب في وصف حكم القاهرة الاهلي . وكان ذو سلطة رسمية على جامع عمرو القديم في الفسطاط وجامع الحاكم في القاهرة واحد معلمي كلية معاوية وقد شغل وظيفة قاضي مدة من الزمن

ولما ارتقى برقوق سنة ١٣٩٠ على العرش المصري كان المقريزي في مقتبل العمر لايتجاوز السنة السادسة والعشرين ولا بد أن يكون قد مدحه عند عودته للسلطنه في المرة الثانية ورحب برجوع البلاد الى حكم رجل عاقل مفكر ارقى كثيراً من اولئك المماليك الذين حكموا البلاد بالسلب والحرب والاضطهاد

وكان برقوق ميالا لتقاليد عشيرته كباقي المماليك الامراء فصرف مبالغ وافرة في شراء المماليك (الصبيان) الاوروباويين وجمع منها آلايات في خدمته الخصوصية يركن اليها عند الحاجة . وكان له ولع خاص في اقتناء الاسلحة والخيول استعدادا للحرب . ونظم الجيش المصري بطريقة جديدة اكسبته قوة ومنعة فبعد ان كان فرقا تشتغل كل فرقة منه تحت قيادة امير من الامراء فتنهب وتسلب البلاد التي تحل بها . جمع هذه الفرق تحت سلطة واحدة وهي قوة الحكومة الرئيسية التي رتبها كما يأتي :

اولا — (اتابك العساكر) وهو قائد عام للجيوش المصرية

ثانيا — (رأس نوبة الامرأ) وهو رئيس الامرأ

ثالثا — (امير الذلوه) وهو رئيس الطوبجيه

رابعا — (امير المجلس) وهو الرئيس الاكبر للبلاط

خامسا — (امير الباخور) وهو رئيس السواري

سادسا — (دوادار) وهو حامل ختم السلطان وقاضي العدليه

سابعا — (رأس النوبه الثاني) وهو رئيس الامرأ الثاني

ثامنا — (صاحب الحجاب) وهو اشبه برئيس التشريفات

تاسعا — (النائب) وهو محافظ القاهرة

وتتكون من هولاء التسعة رؤساً حكومة رئيسية عليا خاصة وقد القى السلطان برقوق في يدهم مقاليد الحل والربط اوكانت كيفية حكمهم انهم يجتمعون بالخليفه والامرأ والقضاة وحكام المدينه ويشاورهم في الشؤون التي يعرضها عليهم السلطان وهو صاحب السلطة في تنصيبهم او عزلهم — فهم بهذه الكيفية اشبه بمجلس تشريعي اعلى — وقد اعطى برقوق السلطة لهذا المجلس في انتخاب سلطان جديد في المستقبل اذا وقع تنافس وتزاحم على تولي الملك

وفي سنة ١٤٠٣ مسيحية (٨٠٦ هـ) حلت بمصر مجاعة شديدة ويقول المقريزي في كتابه عن تلك المجاعة انه تصادف وقوع احدي بناته في مرض وقد اشترى لها كتكوتين دفع ثمنهما اربعة وسبعين قطعة من الفضة

ولم يحدث اضطهاد وحقيقي للاقباط في مدة حكم برقوق للمرة الثانية الا دفعه واحده

وتفصيل ذلك أن احد الامراء لشدة تعصبه تعهد بهدم كنيسة قبطية كان الاقباط يشتغلون فيها بعمل خمر التقديس المعروف عندهم بالاباركه . فسرق ذلك الامير ٤٠ الف جره من الخمر المذكور وامر بكسرها امام باب زويله في الميدان الذي تحت القلعه وسكب الخمر احتراماً لناموس الديانه الاسلاميه التي تحرم شرب الخمر

واقترح في المجلس الاعلى اضطهاد الاقباط . ولكن برقوق كان أعقل من أن يصادق على مشروع كهذا يعتبر خرقا لمبداء الحكومة الدستوريه وامر بقتل رجل اعلن اعتناقه الدين الاسلامي بعد ترك دينه المسيحي

وبينما كان مشتغلاً بتنفيذ مشروعاته اصيب بداء النقطه ومات في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وهو في الستين من عمره فأسف عليه المصريون اسفاً شديداً لعدله ويقظته ورفقه بهم

وبعد وفاته بايعوا ابنه البكر فرج زين الدين الملقب بابي السعادة وكان عمره ستة وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر وتمت مبايعته بلا جدال ولا نزاع وفي اول حكمه قام لقمع الثوره التي أثارها الاتابك يطمش وتنم الفرساني حاكم سوريا بتواطؤه مع بلبغا السالمي حاكم حلب فهزمهما وقتلهما مع اعوانهما ولكنه لم يكد ينجو من هذه النازله حتى داهمه ما هو اشد وطأة واصعب مراسا لان تيمورلنك الفاتح التتري الشهير

بعد أن انتهى من حروبه وانتصاراته في الهند وبغداد وسيواس وملاطيه سنة ٨٠٣ هـ اعاد فتح حلب وحمص بعد حرب شديدة فخاف فرج وفر الى مصر فجمع رجال حكومته واستعد للدفاع عن البلاد وفي اثناء ذلك كان تيمورلنك يحارب مع بايزيد التركي بعد فتح حلب فسكن روع فرج لاشتغال تيمورلنك عنه ولكن ماليث أن سمع بانتصار تيمورلنك على بايزيد في الاناصول واسره سنة ٨٠٤ هـ في واقعة انقره التي كانت القاضيه على القوات العثمانية . فخارت قوى فرج وقنط من الفرح وبينما هو في حيرته جاءه وفد من قبل تيمورلنك ومعهم فيل هندي لفرج وقد اخبروه أن مطلب قائدهم العظيم من سلطان مصر هو أن يعترف بالخضوع له وبنفوذ سلطنة التتر على مصر ويبعث اليه باحمد ابن عويس وقرأ يوسف اللذان كانا محتميان عند والده برقوق ورفض تسليمهما للوفد الاول الذى قتل افراده من مدة عشر سنوات . فلم يسع فرج الا الاذعان لقضاء الله والتزم بامضاء فرمان سيادة التتر على مصر واقر انه قائم بحكم مصر بالنيابه عن التتر فاشترى سلامة البلاد بهذا الاعتراف واصبحت مصر في حوزة التتر . ولكن ابي فرج أن يسلم احمد وقرأ يوسف وقال انهما احتميا به وبوالده وحقوق الضيافه تمنعه من تسليمهما لعدوهما فيكون هو الجاني عليهما ولكنه وعد بسجنهما وسجنهما بالقلعه ارضاء لتيمورلنك وفي سنة ٨٠٦ هـ شرقت مصر لبطؤ الفيضان في النيل فهلك في مدينة قوص وحدها ١٧ الف نفس ومدينة اسيوط ١١ الفا وغير ذلك في مدن اخرى

وفي ١٧ شعبان من السنة التالية ادرك تيمور القضاء المبرم في اوتار وتنازع أبناءه على سلطنة ابيهم فاغتنم فرج تلك الفرصه للتخلص من سلطة التتر وافرج عن ضيفيه المسجونين فمادا لبلادهما وتأهب لاسترجاع سوريا الا ان الممالك الامرأ بعد وفاة تيمورلنك بسنتين ضيقوا عليه في قصره لانهم حسبوا خضوعه للتتر خيانه وجبنا وايقنوا بعدم صلاحيته للملك فخلعوه وتنازل لهم هو ايضا عنه حفظا لحياته وذلك في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ هـ بعد أن حكم ٦ سنوات وخمسة اشهر و١١ يوم. وبايعوا اخيه عز الدين عبدالعزيز

ثم خرج فرج من قصره واختفى في مكان غير معلوم ولم يمكنهم معرفته فظنوه قتل ولكن لم يمض شهران على تولية اخيه حتى ظهرت للممالك خيبة ظنهم بعبد العزيز فملوا منه وندموا على اسقاط فرج فلما سمع بذلك ظهر من مكمنه ففرح به الناس ورجال الدولة واسترجع السلطنه ثانياً في جماد آخر سنة ٨٠٨ هـ ونفى اخوه عبدالعزيز الى اسكندرية فعاش فيها اشهراً قليلة حتى توفى في ٧ ربيع آخر سنة ٨٠٩ هـ ولكن بعد أن عاد فرج الى منصبه ثانية ظل غير قادر على استرجاع شهرته التي افقدها بقبوله شروط تيمورلنك القاسية. ولكنه عزا دمشق وغيرها من مدن سوريا واهتم براحة الرعية فساد الامن واطمأنت القلوب واكتسب بذلك اعادة ثقة الناس به الا انه صادفته بعد ذلك باربع سنوات ثورة دينية ذهبت بخيانه

وتفصيل ذلك انه في سنة ٨١٣ هـ قام أحد مماليك الظاهر برقوق وأخذ يدس الدسائس ليتوصل لان يكون سلطانا لمصر وهذا المملوك هو ابا نصر الملقب بالشيخ المحمودي الظاهري وكان الملك الظاهر برقوق قد عتقه ورقاه الى رتبة امير ووعده بوظيفة عسكرية سامية. وكانت دسائسه انه استعان بالخليفة المستعين بالله الذي تولى الخلافه بدل المتوكل. وكان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وهروب الخليفة منها واحتمائه عند بيبرس في القاهرة قد فقدوا كل سلطتهم السياسية وصارت الرعيه لا تغيرهم الا في حد السلطة الدينية التي كان لهم حق الرئاسة العليا بها على جميع العالم الشرقي وكما اصبح البابا في الايام الحاضرة في سلطته الدينية على العالم الغربي. وكان المسلمون يلقبون الخلفاء بائمة الدين. فقام الامير الشيخ المحمودى نجداء المعهود وقال للخليفة المستعين بالله انه بحيله سياسية عظيمة يمكنه أن يعيد اليه السلطة الزمنية تماما ويسترجع اليه قوة الخلافة السابقه واغراه بقوله (أن الناس ميالون اليك بكليتهم ومستعدون لمبايعتكم والخضوع لاوامركم) ولما كانت انفس البشريه ميالة بالطبع لحب السلطة والسيادة تحركت تلك الاميال في قلب الخليفة ووافق الشيخ المحمودي على ما اقترحه عليه. واتفقا على تدبير تلك الدسيسه اثناء وجود السلطان فرج في دمشق. فاوقد الشيخ المحمود شرار الثورة في الخفاء باسم الخليفة المستعين بالله ثم اتفق مع الخليفة على استقدام السلطان من دمشق لكي يخمد تلك الثورة

ويطفيء نارها فلم يوافقهما الامراء على استقدامه فانفذا اليه يطلبان منه التنازل عن الملك فاجاب أن جوابه على ذلك هو حد السيف وارتاب ايضاً الامراء في امر الثورة وقالوا أن الواضع لجراثيمها هما المحمودي والخليفة ولا سيما بعد أن دوى صدى لعنة وحروم الخليفه الاعظم في انحاء المملكة ولكن لما كان للتأثير الديني في النفوس شأن عظيم اعرض الناس عن مساعده الامراء وازعنوا لاعلان الخليفة عن خلع فرج اذا صدر خطاً شريفا بتوقيعه فجاء تأثيره على الناس اقوى من حد السيف وهذا نصه (انا نصرح بخلع فرج عن سلطنة مصر وسوريا والسلطان الحقيقي عليهما الآن هو الخليفه سلالة النبي صلعم ونائبه فطوبى لمن ازعن له وويل لمن اعرض عنه والسلام)

فهذا القرار الموجز اوجدنا تأثيراً غريباً ولما داروا به بين الجيوش اعرضوا عن السلطان فرج وقابل العلم الاسلامي ذلك النباء باندهاش وصاروا مضطرين قهراً للخضوع لسلطة الخليفة الزمنية . ولما لم يبق نصير للسلطان فرج حاول الفرار فلم يفلح اذ قبض عليه المماليك وقادوه امام الخليفة فانتحل له الخليفة ذنبا يستوجب المحاكمة فقال انه لكثرة ما انفقه في محاربة التتر اضطر أن يفرض ضرائب فوق العادة على الاهالي فساء حالهم ورفعوا اليه (أي الى الخليفة) ومجلس الائمه والفقهاء عرائض الشكوى بانه خرب البلاد وافلس الاهالي واعظم من ذلك انه تمرد على الخليفة ظل الله على الارض فكان ذلك ذريعة للحكم على فرج بالاعدام

فقتلوه في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ الموافق ٧ مايو سنة ١٤١٢ مسيحية خارج اسوار دمشق وتركوا جثته ملقاة على الارض وبعد مقتل فرج اصبحت السلطه الروحية والزمنيه بيد الخليفة المستعين بالله فاخذوه باحتفال مهيب بين التراتيل والاناشيد الاسلامية وداروا به في وسط القاهرة حتى وصلوا الى قصر السلطان في القلعة فبايعه هناك الشعب والامراء وقواد الجيوش وحلفوا له يمين الطاعة ولقبوه بالملك العادل . فلما استلم مقاليد الاحكام وظف الشيخ المحمودي رئيسا لشوراه ولقبه بالوزير الاعظم وهذا غاية ماناله بعد جهاده في تدبير الفتن والدسائس واسترجاع السلطة الزمنية للخليفه

واول شيء قام به هولاء المحمسون للخليفه الديني أهلاك الاقباط واليهود معا . فتعين ثلاثة عمال من كبار الموظفين المسلمين ليقوموا باحصاء عدد هولاء العنصرين وحصر منابع ثروتهما وانشأ بامر الخليفه بالعماره الملاصقه لجامع الحاكم مكتب تسجيل مخصوص لهذا الغرض يقيدون فيه اسماء مواليد ووفيات هذين العنصرين ثم قسموا اليهود والاقباط الى ثلاثة طبقات فيدفع اكبار اغنياؤهم كل فرد عن نفسه اربعة دنانير جزية سنوية والطبقة الثانية دينارين من الطبقة الثالثه وهم الفقراء دينارا واحدا .

وحكم الخليفه نحو ثلاث سنوات تقريباً ولو أنه ضايق الاقباط واليهود ولكنه اصلح احوال المسلمين وابطل رزائلهم وتعنتهم وعاقب المعتدين منهم ليعيد الامن ويظهر لياقته لمركزه وانصف المظلومين وبذل

العطاء فاحبه الاهالي ولكنه ضغطه على المعتدين قلل من شهرته واوجب اعراض المماليك عنه .

اما الشيخ المحمودى فكان فى اعتقاده انه لم يقم بتلك الثوره خدمة للخليفه بل لاغراضه التي لم ينلها ورأى أنه خرج المعمعه بصفقة المغبون واصبح آله في يد الخليفه فاضمر له الشر وعزم على خلعه ولكنه استعمل الحزم والتأنى واغتنام الفرص خوفا من فشله في سياسته فوطد علاقاته مع الامرآ واقنعهم بطريق البساطه والاخلاص بضعف الخليفه وخموله فضلا عن كونه ليس مصريا فاستمال قلوبهم واشتد ازره بهم وقويت شوكته ثم شكي للخليفه من منصبه فولاه نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ مآربه ثم كثرت احزابه واعوانه واصبحت ازمة البلاد في قبضة يده فطلب من الخليفه أن يمنحه لقب ملك ويشاركه في السلطنه فاجابه الى طلبه خوفا من نفوذه ولقبه بالملك المؤيد ولكنه لم يقنع بذلك فاراد اتمام بغيته والانفراد بالسلطة فحجر على الخليفه وحبسه في قصره . وكان الخليفه قد احسن بزيادة نفوذ المحمودي والخطر المحدق به منه واستعمل سلاحه الديني الذي كان سبباً لاعطائه السلطة الزمنية ولكنه وجد هذا السلاح غير مأضي بل عديم التأثير بالمره فاصدر حكما بخلع الشيخ المحمودي بخطه الشريف كما فعل عند خلع السلطان فرج ولكن هذه الحيل السياسية الممتزجة بالدين لم تفلح فهزأ الشيخ المحمودي والامرأ بذلك الحرم وقبضوا على الخليفه وخلعوه بحجة انه تمرد على

رفيقه في السلطنه (الشيخ المحمودي) وسجنوه ثم نفوه الى الاسكندريه سنة ٨١٨ هـ

واقاموا اخاه داود خليفه مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله وانيط بالرئاسة الدينية فقط كما كان اخوه قبل نجاح المحمودي في دسائسه

اما المحمودي فخلا له الجو وتربع على عرش السلطنة المصرية وسعى في اكتساب ثقة الاهالي واتبع خطة الخليفه المستعين فانصف المظلوم وساعد الفقير فامنت الرعيه وسعدت البلاد وبقي ذلك الحكم العادل نحو ثمان سنوات وخمسة اشهر

وذكر المؤرخون المسلمون اسم الملك المؤيد (المحمودي) مقرونا بالحسنات وكان معاشراً للمقريزي فرافقه الى دمشق مع الحمله التى قامت لمحاربة فرج وكان المقريزي يتلقب في عدة وظائف مهمة في حكم الملك المؤيد . ولكنه مع كل ما ذكره المؤرخون عن حسناته فانهم لم ينسوا تدوين اخبار مضايقته وضغطه على الاقباط حيث صرح لمماليكه باضطهادهم ومعاملتهم بالقسوه . وقائد الحرس الذي كانت وظيفته قاصرة على تلقي اوامر السلطان اغتصب من الاقباط مبالغ عظيمه من المال فضلا عن ضريبة الخمر التي فرضه عليهم ليفرق على جنده وكانت تلال وخرائب بابليون عبارة عن مخازن ومستودعات لتجار الخمر الاقباط لانه بابليون كانت وقتئذ لم تزل آهله بالسكان الاقباط . فامر قائد الحرس جنوده أن يحتلوا ذلك الحي كانه مدينة اجنبيه وصرح لجنوده بنهب الخمر اللازمة لهم

الجيل الذين حجدوا ايمانهم كان المساعد لهم على ذلك الظروف حيث كانت كنيستهم واقعه تحت وتصرف البطريرك كيرلس الممقوت واعماله الشريره. ولو أن أنباً الاقباط الذين كانوا على عهد البطريرك متى وغبريال تعلموا الترفع من ذلك السلوك الرديء

واختفى باقي كبار الموظفين الاقباط في منازلهم حتى يتضح للمسلمين أن حكومتهم لا تستغنى عنهم . ثم ارتد بعد ذلك بعضهم لشدة المضايقه والاضطهاد وخصوصا ليسهل عليهم بعد اعتناقهم الاسلام أن ينتقموا لانفسهم من مضطهديهم .

وفي تلك السنة شرقت رأس ماري مرقس كاروز الديار المصريه من الاسكندرية في مركب ايطالية فكانت اعظم مصيبة حلت باقباط مصر وفي ذلك الوقت فجعت البلاد المصرية بارزاء كثيرة توالت عليها وهي القحط والمجاعه والوبأ فامر المؤيد بالحج الى قبر برقوق فتوجه بنفسه في مقدمة الحجاج الذين كانوا يحملون القرآن وقام اليهود باحتفالات عظيمة دينية وكذلك الاقباط حيث اشترك جميع سكان البلاد المصرية بالصلوات والتضرع الى الله سبحانه وتعالى بان ينقذهم من شر هذا الطاعون.

وبني الشيخ المحمودي (المؤيد) في مدة حكمه جامعا جميلا يدعى جامع المؤيد بالقرب من باب زويله وتوفى في ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ وبعد وفاته عادت القلاقل وجرت الفظائع الدمويه تزاحماً على العرش فتولى بعده ثلاثة سلاطين وخلعوا في خلال سنة واحدة اولهم نجل المحمودي

شهاب الدين احمد الملقب بالملك مظفر وثانيهم هو المظفر سيف الدين تتر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفى في شهر الحجه وبويع ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وهو ثالث من حكم في خلال هذه السنة فخلعه وصيه سيف الدين برس باى بعد أن حكم اربعة شهور وكان برس باي مملوكا رفعه سيده الملك الظاهر تتر الى رتبة الامراه فنجح في تأسيس الملك لنفسه ورفع مقامه وبقي محافظا على مركزه بحسن سياسته فظل قابضا على العرش حتى الممات

الفصل الرابع والستون

الفتح العثماني

سنة ١٤٢٢ مسيحية و ١١٣٨ للشهداء و ٨٢٥ للهجره

اعتلى برس باي عرش الدوله المصريه في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ هـ الموافق سنة ١٤٢٢ مسيحية ولقب بالملك الاشرف . واصله مملوكاً كما تقدم فلما احبه سيده الملك الظاهر تتر فوق عن باقي مماليكه اعتقه ورقاه وجعله وصيا على ابنه

واستبشر الناس خيراً به لانه في أول سني حكمه تزايد وفاء النيل فعمر البلاد بخيرات عميمه وكثر محصول الغلال والحبوب فشبع الفقراء واتخذوا ذلك فالا حسنا بتولي سلطانهم الجديد وقد صدق فالهم اذ تمتعت مصر بسلام وهناء داخلي مدة السنتين الاوليتين من حكمه لانه كان

كالشيخ المحمودي حكيما رحيما برعيته وقد رمم عدة مدن ومبان وشاد في القاهرة جملة آثار جميلة منها جامع الاشرفية بسوق العطارين بناه سنة ٨٢٦ هـ . ووطد دعائم سلطانه بحسن سياسته

ولما كان دوام الحال من المحال عادت الثورات المعتاده في سوريا ففي سنة ٨٢٧ هـ ثار الامير بنيق النجاشي والي دمشق فقام وضربه ضربة أخمدت انفاسه وخمدت الثورة في الحال وكان ذلك بمساعدة أمير زنجي اسمه عبد الرحمن فولاه برس باي بعد معاقبة الثائرين على سوريا بدل النجاشي مكافأة له وهذه الثوره كانت أول وآخر ما حدث من القلاقل المصريه في أيامه ومما يستحق الاعتبار نجاح برس باي الباهر في حملاته الصغيرة المتتابعه ضد الافرنج فقد تغلب عليهم واخضع جزيرة قبرص لسلطته وارغم ملكها يوحنا لوسينيان الثالث بالخضوع له وجعله من اتباعه وولاه سلطنته المصريه بعد أن فرض عليه الجزيه . فقبل بذلك واصبحت قبرص مستعمره مصريه في ذلك الوقت

وبعدئذ طلب ملك قبرص من مولاه برس باي سلطان مصر أن يؤجر له فرقة من مماليكه المسلمين ليحارب الامرأ المسيحيين لشجاعتهم وبأسهم في الحروب لان شهرة هولاء المماليك المسلمين كانت قد طبقت الافاق ولا سيما في اوربا وقد أرسل الملك المذكور قائد فرسانه سفيرا ليبلغ الحكومة المصرية هذا الطلب ويرجو السلطان اجابته — وكانت قد كثرت الطلبات على برس باي بطلب هؤلاء المماليك وانهالت عليه

الاموال لاجل استخدامهم في الحروب اضعاف ماتعهد به مع الملك يوحنا الثالث الذي لما رأى ذلك أعلن احتمأه تحت لواء خصم برس باي وهو مراد الثاني سلطان العثمانيين فان هذا الاخير بعد أن فشل اخذ يقوي مركزه شيئا فشيئا حتى أصبح خطراً على السلطنة المسيحية في اوربا والسلطنه الاسلاميه في مصر والشام . ولكن برس باي عمل بدهائه على عقد عدة معاهدات سلمية مع السلطان مراد ابن محمد تدل على عظيم شوكة برس باي فالتزم السلطان مراد أن يخابر برس باي بطرق سلميه بشأن ملك قبرص ويتوسط له بالعفو عنه لعصيانه واعلان احتمأه بالعثمانيين ثم ارسل سفيراً برسالة الى الحكومة المصريه يطلب فيها عدم مخاطرة السلطان برس باي بارسال مماليكه لملك قبرص كما وعده ففي الحال أصدر برس باي امره لسفير ملك قبرص بالرجوع لبلاده دون أجابة طلبه ثم ارسل المماليك (ولم يذكر التاريخ اذا كان برس باي رد المال لملك قبرص ام لا)

وفي سنة ١٤٢٧ مسيحية (٨٣٠ هـ) توفى البطريرك غبريال وظل الكرسي البابوي خاليا عدة شهور وكان يسوس ادارة الكنيسة راهب من دير طره يدعى ميخائيل ويقول المقريزي أن ذلك الرجل انتخب بطريركا على الاقباط ثم خلع الا ان اسمه لم يدرج في كشف بطاركة الاقباط . ولا شك انه كان لذلك الراهب حزب قوي من الاقباط يعضده في الانتخاب لانهم كانوا ميالين بحسب تقاليدهم القديمة لانتخاب

بطاركتهم من الرهبان ولكن اغلبية الاصوات فازت بانتخاب من يدعى يوحنا (ابو الفرج) . وكان مشهوراً ومحبوبا عند قومه وكان يشغل وظيفة كاهن اول لمدرسة قبطية عظيمة في المكس

ويقول المقريزي انه في سنة ١٤٢٩ (٨٣٢ هـ) اكتشفت دسيسة غريبة . وهي وجود معاهده سرية بين الافرنج (الصليبيين) وامبراطور الحبشة لاشهار حرب دينية مقدسة لمحو الديانة الاسلامية من العالم وكيفية ذلك أن يزحف امبراطور الحبشة برجاله على مصر وسوريا براً من الجنوب والافرنج بحراً من الشمال . وكان السفير والنائب عن الحبشة في اوربا الذي تمت على يده تلك المخابرات تاجر مسيحي سافر من الحبشة بطريق السودان ومصر ثم سافر منها بحراً الى اوربا وكان متنكراً في طريقه مدعياً انه رجل مسلم وتمت مخابراته السياسية بنجاح عظيم وتقرر أن تلبس الجنود في ذلك الحرب الصليبي لباسا مطرزاً فيه شكل الصليب ومنقوشاً عليه بحروف ذهبية اسم الهاتي (١) وبعد اتمام المخابرات وعودة ذلك السفير العظيم الى بلاده وصل الى الاسكندرية فخانه احد عبيده فقبض عليه قبل أن ينزل الى البر وجأوا به امام السلطان برس باي ومعه راهبان حبشيان وعدد عظيم من تلك الملابس العسكرية المطرزة التي اتفق مع الافرنج عليها كما تقدم

فعقد قضاة مصر جلسة لمحاكمة ذلك التعيس وحكموا عليه بالاعدام.

(١) احد القاب امبراطور الحبشة

ولكن قبل اعدامه اركبوه جملاً وساروا به بين تهليل وتكبير في شوارع بولاق والقاهرة والفسطاط ومشي امام الجمل احد المسلمين كان يصرخ باعلا صوته (هكذا يعامل كل من يقدم سلاحاً لاعدائنا)

ثم قطعوا رأسه بالقرب من كلية الصالح امام جمع عظيم

اما امبراطور الحبشة فخارت عزائمه لعدم عودة سفيره اليه

وتوفى الملك الاشرف برس باي يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ مسيحية) في السنة الستين من عمره بعد أن حكم ١٧ سنة و٨ اشهر و٦ ايام وهو ما لم يتمتع به احد من السلاطين المماليك . وكانت مصر في ايامه سعيدة خارجا وداخلا . ويقول المؤرخون انه كان اجدر الملوك الشراكسة بالمدح لعلو همته وتدربه على ادارة الاحكام وفي عهده كانت الحكومة المصرية على غاية النظام فأمن الناس على ارواحهم ولاسيما العلماء كالمقريزي الذي كان لم يزل على قيد الحياة طول مدة حكمه فحماه من اعدائه وشجعه في اعماله الادبية وقيل أن في مدة حكمه انيرت شوارع القاهرة بالمصابيح ليلا وخليت من المتشردين وقطاع الطرق والوقائع الدموية وعم الامن في كل ارجائها ومما يذكر لبرس باي مقرونا بالثناء ويدل على سمو مداركه انه ابدل جميع التذللات والتعطفات التي كانت تقدم للسلطان بتقبيل اليد فقط

وبويع بدله ابنه جمال الدين يوسف الملقب بابي المحاسن ولقب بالملك العزيز ولكنه لم يبق على عرشه اكثر من ثلاثة شهور حيث تمرد

الامرأ المماليك عليه كعادتهم عند تولي ملك ضعيف وتخاصمه ايضا مع سيف الدين جقمق اتابك جيشه فانتهي الخصام بعزل جمال الدين ومبايعة جقمق بدله في ١٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ هـ وكان جقمق اذ ذاك في التاسعة والستين من عمره ولقب بالملك الظاهر ومع جهاده العظيم للحصول على العرش المصري فانه قد نال مبتغاه لحسن حظ البلاد دون حدوث وقائع حربية أو قلاقل داخلية

وبعد ارتقائه على العرش المصري سنة ١٤٣٦ مسيحية عقد مجمع فلورنس المشهور وكانت نتيجة انعقاده عودة اتحاد كنيستي اليونان والرومان ولكن لم يلبث ذلك الاتحاد الا قليلا ثم عادا الى الانشقاق . وكانت الكنيسة المصرية ايضا قد ارسلت نائبا عنها لحضور ذلك المجمع يدعى يوحنا وهو رئيس دير انبا انطونيوس المشهور ولكنه وصل الى فلورنس متأخراً بعد أن خرج مندوبو الكنيسة اليونانية من المجمع فتحصل يوحنا هذا على قرار من اعضاء المجمع بقبول كنيسته المصرية ضمن ذلك الاتحاد العظيم في جلسة المجمع القادمة . ولكن رفضت الكنيسة اليونانية شروط الاتحاد التي صادق عليها مندوبيها في مجمع فلورنس . وظهر بعد ذلك في مصر ان السعي لذلك الاتحاد الكنائسي لم يكن له تأثير يذكر ولم يهتم له الاقباط كثيراً مع انه يوجد روح الشعور الرقيق بين الكنائس (١)

(١) يقول مؤرخو الرومان الكاثوليك أن ذلك الاتحاد الوقتي كان المقصود منه عودة خضوع الكنيسة القبطية الى سلطة بابا روميه (كما كانت خاضعة

وفي سنة ١٤٤٠ مسيحية دهم مصر وباء هائل

وفي سنة ٨٤٦ هـ توفى الامام المعتضد بالله فبايعوا أخاه بالرحم ولقبوه المستكفي بالله وكان صديقا لجقمق وتوفى سنة ٨٥٤ هـ وكان تقيا فتخاصم الاعيان على حمل نعشه وكان جقمق ضمن من حملوه فبويع اخوه خليفه بدله ولقب بالقايم بامر الله فسلك هذا الخليفه غير مسلك سابقيه فبغضه السلطان جقمق وخاف من دسائسه سيما انه كان قد بلغ العثمانين من عمره ولم تعد له مقدرة على مقاومة دسائس الخليفه فتنازل عن الملك لابنه فخر الدين عثمان سنة ١٤٥٣ مسيحيه (٨٥٧هـ) ثم توفى في ٢٩ صفر من تلك السنة وهي السنة التي اضمحلت وتلاشت فيها الامبراطوريه اليونانيه للبيزانطينين وفتح فيها السلطان العثماني محمد الثاني ابن مراد مدينة القسطنطينية وهي حصن المسيحيين المنيع القديم

وبعد مبايعة فخر الدين عثمان وتلقيبه بالملك المنصور قام الخليفه

له من قبل) ولكني اقول انها لو كانت خاضعة له من قبل كما يقولون لما كان يعين بطريركاً خاصاً له في ابروشية الاسكندرية ذاتها التي فيها البطريرك القبطي مما يثبت صحة الانفصال وعدم الخضوع ومع ذلك فانه لم يكن الغرض من قبول الكنيستين اليونانية والقبطية بالدخول في مجمع فلورنس الخضوع للبابا بل مجرد المصالحة والمسامحة بين الكنائس الشرقية والغربية ولم يحبط ذلك السعي الا لما رأى رجال الكنيسة اليونانية والكنيسة القبطية ادعاءات بابا روميه الغربية وطلبه السلطة العليا لنفسه فكان هذا سبب رفض اليونان والاقباط شروط ذلك المجمع وانكارها لما عرضت عليهم وادركوا سوء القصد من ذلك الاتحاد

بدسائسه التي كان يخشاها جقمق طمعا بالسلطه الزمنيه فالف حزبا من الامرأ وحملهم على عصيان نخر الدين فانتشبت ثورة بسبب ذلك انتهت بخلع نخر الدين في أول ربيع آخر سنة ٨٥٧ هـ بعد أن حكم شهراً ويوما واحداً ولكن تحت بعد ذلك الاحزاب عن نصرة الخليفة فخابت مساعيه وبايعوا مملوكا حسنا اسمه ابو النصر فحكم مصر ثمان سنوات وقد قال الخليفه في نفسه أن هذا السلطان اقرب الي اللحد منه الى العرش فلننتظر وفاته ولما انتظر ست سنوات ولم يمت عمد الى الدسائس فعلم به السلطان فوبخه وامر بخلعه فقال له الخليفه (من اين لك ان تخلع الخلفأ ولهم وحدهم أن يولوا ويعزلوا) فاجابه بالنفي الى الاسكندريه فظل فيها حتى مات.

وفي أول سني حكم ابو النصر توفى بطريرك الاقباط واخلفه رجلا يدعى متى لم يعرف عنه الا القليل في التاريخ . ثم وصل ابو النصر سفيرا من قبل ملك الحبش يوصيه خيراً بكنيسة الاقباط المصريه لانه كان يضطهدها وهذا دليل كبير على أن احوال البلاد كانت في ايامه في تعاسة وفساد وقد ظهر بعد البحث أن المماليك الامراء اوقدوا النيران عده مرات في احياء مختلفة من المدن المصريه ولا سيما الاحياء التي يسكنها المسيحيون واليهود ليكون لهم فرصة للسلب والنهب . وتوفى ابو النصر يوم الخميس ١٥ جماد أول سنة ٨٦٥ هـ بعد أن حكم ثماني سنوات وشهرين و١٦ يوما

وتولى بعده ابنه شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح ولقبوه بعد مبايعته بالملك المؤيد ولكنه لم يحكم الا اربعة شهور فقط بالاسم وعزل

في ١٨ رمضان من تلك السنة

فبويع بدلا منه مملوك يوناني الاصل وهو احد مماليك برس باي كان قد رقاه الى اعلا مراتب مماليكه . وكان يدعى سيف الدين خوش قدم فلما اعطى العرش سنة ١٤٦ مسيحية (سنة ٨٢٥ هـ) لم تظهر منه تلك الغطرسة التي كان يبديها من سبقوه وتولوا على العرش من المماليك الشراكسه الاتراك فاكتسب محبة المصريين لانه نظم الحكومة وكان وديعا متواضعا وحكيما باراً حليما محبا لرعيته ساهراً على راحتهم محبا للاداب اليونانية ومحافظا عليها وكان يلقب بالرومي ولا يستوزر الا من يأنس فيهم النزاهة والنشاط وكان هذا سبب ازدياد محبة المصريين واخلاصهم له ويقول المؤرخون انه افضل من حكم مصر من سلاطين الاسلام ولما كان السلطان صاحب البلاد حكيما بهذا المقدار وهو رأس الامة وامامها فلذلك اقتدى به رجال حكومته فساد الامن في البلاد وحكم خوش قدم ست سنوات ونصف دعاها المصريون بالايام الذهبية لان بلادهم لم تحلم بمثلها من قبل ومن العجيب انه حتى في خلال هذه الايام السعيدة انتهز الامراء المماليك فرصة سانحة فاوسعوا البلاد سلباً ونهباً في الاحياء المسيحية في مصر القديمة ولما اشتهر انتظام الاحكام في مدته اخذ السائحون الاوربيون يفدون الى الديار المصرية بلا خوف لزيارة الاماكن المقدسة ولا سيما يسانين البلسم بالمطرية وهليوبوليس وبعد ذلك بزمن قليل زارها ايضا بعض السياح الالمانيين سنة ١٤٨٣ مذ كان قايت باي على العرش المصري وقال السياح

أن السلطان قفل في وجههم النبع المقدس والشجرة اللتان كانتا في قصره القائم في هليو بوليس (عين شمس) وسمح لهم فقط بزيارة النقط المقدسة وقالوا في كتابتهم عن تلك السياحة أن اشهر واهم المناظر في حديقة ذلك القصر حمام جميل يمكن لثلاثمائة شخص الاستحمام فيه في آن واحد وفي الغالب انه يشبه الحمام الموجود الان في حدائق قصر شبرا

وفي سنة ١٤٦٦ مسيحية توفى البطريرك متى واخلفه على الكرسي المرقسي البطريرك غبريال السادس

وفي تلك السنة ايضاً اي في عشرة ربيع اول سنة ٨٧٢ هـ توفى السلطان خوش قدم وسنه ستون سنة فبكاه المصريون جميعا واسفوا على موته كثيراً واخلفه مملوكان آخران ولكنهما خلعا بعد زمن يسير . اولهما ابو سعيد بلباوي الذي لقبوه بعد مبايعته بالملك الظاهر فكان على عكس سلفه اذ استعمل الاستبداد واعاد الاحكام الفوضوية الى عهدها الاول ولما سأت حال البلاد كرهه الناس فلم يمض ٦٦ يوماً على مبايعته حتى خلعوه في ١٧ جماد اولى من تلك السنة وبايعوا بدله الامير ابا سعيد تمار بوغا الملقب بالظاهري ولقبوه بالملك الاشرف فسلك خطة سلفه وكان عاتيا مستبداً فكان حظه كحظه وخلعوه بعد شهرين من مبايعته واخيراً رشحوا للعرش مملوكا من مماليك السلطان جقمق لا يعرف له اصل ولا حسب ويدعى قايت باي الذي يعتبر اشهر سلاطين مصر من المماليك وله قبر معدود من اشهر الآثار العربية الباقية الى الآن ارتقى قايت باي

العرش المصري سنة ١٤٦٨ مسيحية وظل جالسا على ذلك العرش نحو اثنين سنة مع أن البلاد كانت وقتئذ في اضطراب بسبب مصادرة العثمانيين لها ولكنه لعلو همته وحسن سجاياه ظل قابضا على ازمة الاحزاب فثبت في مركزه واصبحت البلاد في اطمئنان وقد صرف اغلب أيامه في صد هجمات العثمانيين التي كانت آخذة في الازدياد حتى كادت تقلب عرش المماليك وتمحو أثر حكومتهم ولكن الستة سنوات الاولى من حكم قايت باي مرت على مصر وهي في سلام تام . وفي ايام الحروب العظيمة الطويلة ضد العثمانيين لم تضطرب البلاد الا قليلا لان رحي الحرب كانت قائمة في سوريا وآسيا الصغرى

واسباب وقوع الحروب مع العثمانيين انه كان قد وصله خبر انتصار محمد الثاني سلطان العثمانيين على ملك الفرس المدعو اوزون وكانت توجد وقتئذ محالفة بين الفرس والمصريين وقد رأى قايت باي بذكائه ان ذلك التحالف سيستفز غيرة العثمانيين لفتح سوريا فاحترس لذلك وارسل حملة عظيمة على حدود سوريا ولكن العثمانيين لم يهتموا بفتحها كما توهم لانهم كانوا يهتمون بفتح البلاد المسيحية ولكن ذلك لم يقلل من خوف قايت باي من العثمانيين لانه كان شديد الحذر وبصيراً بالعواقب فضلا عما يعلمه من بأس العثمانيين فاراد أن يخلي نفسه من مسؤولية ضياع السلطنة المصرية وذهابها الى يد الاجانب ونسبة الاهمال اليه في ذلك ولو أن عدوه اشد منه مراسا فاضطر أن يتنازل عن الملك للامراء المماليك فادركوا سر

سياسته ولم يقبلوا منه ذلك التنازل واجبروه على البقاء على العرش لشدة احتياجهم اليه واستعانتهم بمواهبه العالية في مثل تلك الظروف الحرجة ولكنه لم يكد يقبل بالبقاء في منصبه حتى بلغه نبأ انتصار العثمانيين على النصارى وعزمهم على فتح سوريا فتحقق ظنه لكنه قبل أن يخرج محمد الثاني سلطان العثمانيين من الاناضول ادركته المنية فتخاصم ابناؤه على الملك والمهم ذلك عند فتح سوريا فكانت مصائب قوم عند قوم فوائد لان قايت باي انتهز فرصة هذا الاختلاف وانسحب راجعا بجيشه الى مصر

ثم تحارب ولدا السلطان العثماني بعد الخصام فانهزم احدهما المدعو جم والتجأ الى قايت باي بمصر فاكرمه ولكن خاف من هجوم اخيه بيازيد على مصر للانتقام منه فاستعد للهجوم بدل أن ينتظر دور الدفاع فقطع طريق الحج على الاتراك واسر وفداً قادما من الهند بمهمة سياسية للسلطان بيازيد وفتح ادرنه وترسوس اللتين كانتا في حوزة بيازيد وكان بيازيد ينتظر وقوع فرصة لفتح البلاد المصرية فكانت اعمال قايت باي هذه ضالته المنشودة ولكنه استعمل الحزم في مهاجمة المصريين فطلب من قايت باي تعويضا عن الخسائر فكان جوابه مهاجمة الجيوش العثمانية ففاومه مقاومة شديدة فتقهقر امامه الى غلاطيه فعزز قايت باي جيشه بخمسة الاف رجل وهجم على العثمانيين على غرة في مضايق الجبال وذبح منهم عددا كبيراً وتحصن من بقي منهم في ترسوس وادرنه فارسل اليهم

قايت باي اشهر قواده الامير الازبكي فسار لنجدته وطرد العثمانيين من تينك المدينتين . فشق على بيازيد ضياعهما واتخذ قوة عظيمة بقيادة صهره احمد ابن امير بوسنا واصله البانيا اعتنق الاسلام . ولما التحمت قوته بقوة الازبكي هجم احمد هجمة قوية ولكن رجاله لم يثبتوا في الهجوم فهزمت عليهم الجنود المصرية ووقع احمد اسيراً في يد الازبكي فعاد به الى القاهرة ظافرا وبنى جامعه المشهور المعروف بجامع الازبكية تذكارا لانتصاراته على العثمانيين في سوريا ولقبت باسمه كل الارض الفضاء التي حول الجامع ولو أن هذا الجامع اندثر الان الا أن ذلك الخط المتسع العظيم لم يزل معروفا بخط الازبكية الى الآن وهو من اشهر خطط القاهرة الحديثة

ولم يعان الاقباط اضطهادات مقصودة في مدة حكم قايت باي وكانت الحكومة تستخدم منهم كثيرين في اشغال الهندسة المعمارية لبناء الجوامع والمدارس الكلية في القاهره واعظم المباني المعمارية التي تمت في ايام قايت باي بالقاهرة كانت من وضع هؤلاء المهندسين الاقباط . وجلس على كرسي الكرازه المرقسيه في حكم قايت باي بطريركان لأن البطريرك غبريال كان قد توفى سنة ١٤٧٥ مسيحيه واخلفه البطريرك ميخائيل السادس واخلف هذا الاخير سنة ١٤٨١ مسيحية البطريرك يوحنا الثاني عشر ولكن لم يعلم عن هذين البطريركين (١) الاخيرين في التاريخ الا شيئاً قليلا

(١) سنة ١٤٨٤ مسيحيه ذبح كل رهبان دير انطونيوس وبولوس وظلت

اما السلطان بيازيد فاستشاط غضبا من انكسار صهره فارسل حملة قوية بقيادة من يدعي علي باشا لمحاربة المصريين فعبرت الحملة البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ هـ فاوجس قايت باي خيفة فعمد لمصالحة بيازيد بواسطة صهره احمد فرفض بيازيد ذلك بتاتا وسار بجيشه والتقى بالمصريين في أدرنه وترسوس واخذ هاتان المدينتان منهم بعد حرب هائلة ثم سار لارمنيا الصغري فخضعها واخذها كما اسيراً وارسله لمصر بدل صهره احمد

فارسل قايت باي الامير الازبكي ثانيا لاسترجاع آدنه وترسوس من العثمانيين فقام ذلك القائد الباسل وضرب العثمانيين فغلبوه أولا ثم تقوى وغلبهم ثانيا واسترجع المدينتين منهم وعاد ظافراً للقاهرة مرة أخرى فخلع عليه قايت باي خلعا ثمينة

ثم عرض قايت باي شروط الصلح مع العثمانيين في فرصة انتصاره عليهم فهدده بيازيد انه ان لم يتنازل له عن أدنه وترسوس بالتي هي أحسن سيدعو كل الخاضعين لآل عثمان تحت لوائه في جهاد عام ويفتح مصر فتحا مبينا

فرضي قايت باي باهون الخسارتين وتنازل عن المدينتين.

وفي سنة ٨٩٦ هـ ١٤٩١ مسيحيه دخلت تينك المدينتان

الصوامع (الاديره) مهجورة نحو ثمانين سنة.

وفي ذلك الحين اندثر القسم الاعظم من المكتبه القديمه واخذ عرب البادية يستعملون مجلداتها الثمينه وقودا !!

في حوزة العثمانيين فتصالحوا مع المصريين. وعاش قايت باي خمسة سنوات في سلامة تامه بعد مصالحة العثمانيين وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ ١٤٩٦ مسيحية بعد ان حكم ٢٩ سنه و٤ شهور و٢٠ يوما فبكاه المصريون لعدالة حكمه ومن آثاره جامعه المعروف باسمه الى هذا اليوم في القاهره خارج القرافه مع انه قد اهمل اهمالا كليا وهو بالقرب من جامع ابن طولون الذي هو اقدم منه كثيرا وفي هذا الجامع يوجد مقامه وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة ولقايت باي جامعا آخر في جزيرة الروضة يشاهد الى الآن هناك

وبايعوا بعده ابنه ابو السعاده محمد ولقب بالملك القاصر ولكنه كان رجلا وحشيا ظالما احمقا ديدنه الانغماس في اللذات البهيمية ولو كلفه ذلك الى ارتكاب شر الآثام وقد مضي ستة شهور في حكمه بهذه الكيفية كانت خاتمة نصيبه في الملك لان توحشه عم الجميع حتى المماليك الغشم اذ سلخ احد مماليكه حيا فهاج عليه هؤلاء المماليك وخلعوه وبايعوا بدله احد مماليك ابيه المسمو قنصو الملقب (باي الخمسماية) لانه في الاصل ابتيع بخمسماية دينار وهذا الاخير بعد أن امضى ستة شهور في جهاد عظيم في تنظيم الاعمال عجز عن ذلك والتزم بالتنازل عند الملك اختياراً. فاعدوا بعجل قايت باي ثانية ولكنه لم يبق في السلطنة الا ٨ شهر ونصف ثم ذبحه المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ الموافق يناير سنة ١٤٩٩ واخلفه ثلاثة سلاطين بالتوالي في مدد قصيره جداً اولهم عم قنصو ابو خمسماية

واسمه قونسو الثاني الملقب بابي سعيد ولقبوه بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الا بالرغم عنه ثم خلعوه بعد عشرين شهراً وبضعة ايام . واخلفه ثانيهم قنسو الثالث جان بلد ولقبوه بالملك الاشرف وخلع في ١٨ جماد آخر سنة ٩٠٦ بعد أن حكم سبعة شهور . وثالثهم سيف الدين طومان باي من مماليك قايت باي فحكم ثلاثة شهور ثم قتله الامرأ بعد أن اختبأ اربعين يوما ومن ذلك يظهر أن الامرأ المماليك بعد وفاة قايت باي لم يبالوا باي محذور وبعد قتل طومان ثالث هؤلاء السلاطين في ذي القعده سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١ مسيحية) صمم اولئك المصريون القاتلين على حصر الاحكام في يدهم. فاجتمع المماليك والاعيان وفوضوا كبار مشايخ الاسلام لينتخبوا لهم سلطانا واصبح الشعور العام في مصر وسوريا نحو هذا الغرض قويا جداً حتى ان المماليك اصبحوا غير قادرين للتعرض الى ذلك فاجتمعوا معا وصاروا يتداولون فيما بينهم وبين كبار مشايخهم وانتظروا من تقع عليه القرعه من اهل اللياقة ليحكم عليهم

اما المشايخ فانهم لم يتجاسروا ايضا على ابداء اي اقتراح واخيراً انتخبوا مملوكا عجوزاً من مماليك قايت باي وهو الامير قنسو الرابع الملقب بالغوري وكان رجلاً عفيفا تقيا مخلصا محترما من الناس ولم يكن له نصيب في ما يتخاصم عليه باقي الامرأ ولا في ما كانوا يدسونه من الدسائس بل انه منذ اعتقه سيده وصار حراً عاش عيشة السكينة والهدوء واظهر احترامه وشفقته لكل من يلجأون اليه

ولما وقع عليه الانتخاب اندهش الامرأ لهذه الصدفه ووقع لديه هذا الامر موقع الانذهال ورفض في الحال قبول ذلك المنصب وقال لمنتخبيه (بكسر الخاء) انه تعود أن يكون مأموراً لا آمراً ومحكوماً لا حاكماً . ولكنهم اجمعوا أن صدق نيته واخلاصه وثقة الناس به جعلتهم أن لا يقبلوا سلطانا عليهم سواه فلم ير بداً من الرضوخ لصوت الشعب وقبل السلطنة على شرط أن يقسموا له انهم اذا لم ترضيهم حكومته لا يقاومونه بالعصيان أو القتل بل يسره اذا جأوه يوما والزموه بالاستقاله من منصبه فيستقيل منه حالا ويعود الى معيشة السكينة والهدو كما كان اولا

جلس قنسو الغوري الرابع على العرش المصري في غرة شوال سنة ٩٠٦ هـ ١٥٠١ مسيحية ولقبوه بالملك الاشرف وظل على عرشه مدة ١٥ عاما واول ما استلم مقاليد الاحكام اخلص في الحكم واصدر اوامر نظامية صارمة نفذت حتى على الامرآء فاطمأنت البلاد وعم الامن وقام باصلاحات عمومية مهمة في مصر فابتنى المدارس والمساجد في القاهرة منها مدرسة وجامع يلسبان اليه وهما مدرسة وجامع الغوريه في اول شارع الغوريه بالسكة الجديدة . ومدرسة في شرق الشارع والي جنوبه مدفن فيه مقام بعض عائلته والى الغرب الجامع وهو اعظم مشاهد القاهرة البديعة المنظر في ذلك الشارع والى الشمال سبيل جميل . ولكن لكي يقوم بتلك الاعمال المهمة ولكي يقوم بنفقات الاستعدادات الحربية التي كانت ضرورية وقتئذ

دفاعا عن البلاد التزم بتحميل البلاد ضرائب ثقيله وكان معظم ذلك الحمل الثقيل واقعا على الاقباط كالمعتاد

ووقع الغوري في عداء مع عدو اوربي جديد وهم البرتغاليون الذين لما استولوا على بلاد الهند اضروا بالعلاقات التجارية بينها وبين مصر وكانو ايضا يتداخلون وقتئذ في شؤون الحبشة (١) فالتزم بتسيير اسطول حربي عظيم في البحر الاحمر ليهدد البرتغاليين ويحمي تجارة بلاده ويمنع التعرض لها . ففي سنة ١٥٠٨ مسيحية انتصر عليهم في واقعة خارج شواطئ بلوخستان . ولكن في السنة التالية تغلبوا عليه وطردوه باسطوله الى مصر فعاد وكل مراكبه الحربية محطمة . فلم يثن ذلك عزمه بل جدد اسطوله وعاد به الي الهند قاصداً فتحها ولكنه شعر بعد ذلك بخطر يتهدد بلاده فالتزم بالعودة للدفاع عنها . وذلك انه في سنة ١٥١٢ مسيحية (٩١٨ هـ) لما كان نجلي السلطان بايزيد العثماني متخاصمين وقد تقاتلا مع بعضهما واخذا يتنازعان على عرش ابيهما بعد موته فالذي قهر منهما جاء الى مصر ودخل في حمى الغوري وطلب مساعدته ولما كان السلطان المصري طبعا عالما بالخطر الذي يهدد به بلاده سلاطين العثمانيين الذين كان طمعهم في الفتح وقوتهم آخذتان في الازدياد التزم بمقابلة كركور اللاجئ اليه بالترحاب والصداقه العظيمه ورضى مساعدته على اخيه الذي كان وقتئذ سلطانا على

(١) سنة ١٥٠٢ مسيحية زار بطرس الشهيد سلطان مصر الغوري في مهمة ارسله بها اليه فرديناند وايزابلا حاكمي اراجون .

عرشه بالقسطنطنية بلقب السلطان سليم الاول فامد الغوري كركور بعشرين بارجه حربيه يهجم بها على القسطنطنية ولكن لسوء الحظ قد اشتبكت هذه العمارة المصرية في طريقها الى القسطنطنية في حرب اسطول الصليبيين بقيادة الامير القديس يوحنا فهزم الاسطول المصري وراحت كل قطعه غنيمة باردة للصليبيين في البحر الابيض المتوسط

ولم تقتصر الخسارة المصريه على ذلك بل أن خبر عزمها على فتح القسطنطينيه قد أتصل بمسامع السلطان سليم الاول فاستوجب ذلك سخطه واثارة غضبه على مصر . وهكذا قد جلبت مساعي الغوري عداوة خصمه المره وعزمه على فتح البلاد المصريه والسورية من حيث كان يقصد سحقه ولكن تأكد أن الظروف القهريه قد حولت مساعيه الى ضرر وخطأ فاسرع الى تدارك ذلك الشر فعقد محالفه مع الملك اسماعيل شاه الفرس الذي كان واقعا في حرب عظيمه مع سلطان العثمانيين الباسل . ولما قامت الجيوش المتحدة المصريه والعجميه لمحاربة العثمانيين لم تبال الجيوش العثمانية بكثرتها فضربتهم ضربة قوية تفرقوا على اثرها أيدي سبا فعمد قنسو الغوري لمخابرة السلطان سليم في أمر الصلح طالبا قبول أى شروط يعرضها عليه الا أن خضوع الغوري جاء متأخراً لانه لما وصل أعضاء الوفد الطالب لهذا الصلح لدى السلطان سليم خروا ساجدين امامه وعرضوا عليه طلب مولاهم . فحنق عليهم واحتقرهم ورفض طلب الصلح وقال لهم (لقد فات الاوان فارجعوا وقولوا لسلطانكم ان القدم

لا تعثر بحجر واحد مرتين وها أنا ذاهب لزيارته في القاهرة فليستعد للدفاع أن كان قادراً عليه)

فعادوا واخبروا الغوري بذلك فجمع اليه كل الايات المماليك وباقي جيوشه كلها وسار لملاقاة الجيوش العثمانيه قبل وصولها حدود سوريا فتقابل بهم في مرج دابق قرب حلب فانتشب الحرب انتشابا شديداً واظهر فيها الغوري بسالة واقداما عظيمين الا أن الرجا بفوز المصريين النهائي كان مقطوعا ليس فقط بسبب أن الجيوش العثمانيه كانت كلها من رجال الانكشاريه البواسل فقط بل لان الجيش العثماني كانت متوفرة لديه أحسن المعدات الحربيه الحديثة بينما كان الجيش المصري مؤلفا من ارقاء اورباويين الذين اشتراهم العثمانيون وربوهم للغرض الحربي فقط

فكان العثمانيون يستعملون البارود المخترع حديثا في المواقع فيرشون المصريين رشاً ويحصدونهم حصداً وكان سلاح المصريين الحراب والرماح والسيوف فقط فلما ضربت المدافع الجناح الايمن والايسر من الجيش المصري الذي كان يقوده المماليك الامراء ضربة مريعه اوقعت الرعب في قلوبهم وبددت شملهم فسلم قائدا الجناحين للعثمانيين وكان الغوري نفسه قائداً لقلب الجيش فعملى حركة يريد منها لم شعث جيشه ولما حول شكيمة جواده سقط من فوقه لشدة الزحام فسحق تحت سنابك خيل المماليك الراكبه وذلك في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ بعد أن حكم ١٥ سنة وتسعة أشهر و٢٥ يوما . وبموت الغوري اصبحت دولة المماليك على

وشك الاضمحلال . وكان الغوري قبل مبارحته القاهرة هذه المرة قد استخلف عليها ابن أخيه طومان باي الثاني فلما اتصل خبر موته بالامراء في القاهرة اسرعوا بمبايعة طومان باي ولقبوه ايضا بالملك الاشرف وكان باسلا مقداما

فلما رجعت جيوش عمه منهزمه الى القاهره جدد حملة قوية لمحاربة العثمانيين الذين كانوا قد وقفوا للاستراحة في سوريا فظن طومان باي أن الرمال المتراكمة هناك تحول دون وصولهم الى مصر فزاد نشاطا وحزما في اعداد تلك الحملة ولكنه ظل اشهراً يقلب نظام الجيش ليعده لذلك العمل العظيم فانه كان عارفا بعجزه وبضرورة مونه في الحرب ولو أن هذا الاعتقاد المحزن كان مجهولا

ولكنه لم يكد يتم استعداداته حتى خاب ظنه حيث ورد كتاب من السلطان سليم هذا نصه :

(من السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان الخ الى طومان باي الشركسي —

الحمد لله رب العالمين الخ . أما بعد فقد تمت ارادتنا الشاهانيه وهلك اسماعيل شاه العجم الهرطوقي اما قنسو الكافر الذي حملته القحه على مناوأة حجاجنا الى بيت الله الحرام فقد نال جزاءه منا . ولم يبق لدينا الا أن تتخلص منك فانك جار عدو لنا والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك اذا شئت اكتساب رحمتنا السلطانية اخطب لنا في جوامع مصر

واضرب النقود باسمنا وتعالى الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والا.....الخ)

فلما رأى طومان باي ما يحويه هذا الكتاب من التهديد حنق واصر على المقاتلة وفضل الموت في ساحة الحرب عن التسليم فقوى حصون دمياط والحدود السوريه وكان قد اشترى ثمانين مدفعا من فينيسيا ولكن المماليك لم يكونوا يستطيون استعمالها فكانت الجيوش العثمانية اقوى من الجيوش المصرية بكثير

وسار طومان باي بكل رجاله وعدده للاقاة العثمانيين وعسكر عند الصالحيه . اما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح في طريقه غزه والعريش ولما علم بوجود الجيوش المصرية في الصالحية وتأهبهم للدفاع حتي الموت عرج في طريقه عند الصالحية ووصل الخانكة قرب القاهرة وقام بجيشه لمهاجمتهم من الخلف فالتقى الجيشان عند بركة الحج يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ مسيحية و٢٩ ذي الحجه سنة ٩٢٢ هـ ووقعت بينهما معركه هائلة اظهر فيها المصريون بسالة شديدة ولما كانوا لا يعرفون البارود ولا المدافع كما تقدم كان قوص النصر معقوداً للعثمانيين وهلك المماليك الامراء عن آخرهم وفر الباقون للقاهرة مع قائدهم طومان باي الذي جمع اليه كثيرا من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وتعاهد معهم على طرد العثمانيين . ولكن قبل وصولهم كان السلطان سليم قد عسكر في جزيرة الروضة وحصنها حتى ان كل من يهجم عليها لا يعود الا بالخسارة.

فلما هجم طومان باي مع العرب على السلطان سليم هجمة اليأس رده خاسراً . فعاد للقاهرة وحصنها على نية الحصار وزاد في استحكامات القلعة واقام طابية في كل شارع وفي كل منزل واعطى السلاح لكل من يقدر على حمله للدفاع عن الوطن ولكن رغما عن كل هذه الاستعدادات التي اظهرها طومان باي وامراؤه ومحاربة المماليك مستقتلين دخلها العثمانيون عنوة وامعنوا فيها وفي الفسطاط وبابليون قتلا ونهبا وحرقا بعد استلام القلعة وذبح كل المماليك الذين فيها اما طومان باي الذي لم يصادفه الموت الذي كان يتمناه في ميدان القتال تمكن من الفرار حيث عبر النيل وحده في قارب الى بر الجيزه ثم سار منها قاصداً الاسكندرية حيث كان يؤمل أن يقوم ثانياً منها بجيش يحارب به جماعة العثمانيين ولكنه سقط في ايدي قبائل العربان الرحل فقبضوا عليه وباعوه للسلطان سليم . وكانت تظهر على السلطان سليم امارات الغلظة والقساوة والتجرد من الشهامة والشرف فلما رأى السلطان سليم عدوه الباسل مغلولا تحت قدميه في حالة القنوط واليأس عطف عليه وفك قيوده وعامله باللطف والاكرام ووضعه في سجن صحي واذن له بالحضور في المؤتمرات التي كان يعقدها السلطان سليم للمداوله في امر تنظيم البلاد وبعد أن درس منه ما تعلق بمحصول البلاد وخراجها وحكومتها ولما تأكد من عدم الاحتياج لمشورته أمر حرسه أن يشنقوه خارج المدينة فعلقوه تحت رواق باب زويله بكلاب من حديد في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ . وهكذا كانت آخرة السلطان

الاخير من دولة المماليك الشراكسة وبقتله انتهت تلك الدولة بعد أن تسلط مماليكها على مصر نحو ١٣٩ سنة ومن ذلك الحين اصبحت المملكة المصرية تحت احكام استبدادية بشكل جديد اردأ كثيراً من استبداد المماليك لانه وأن كان السلاطين المماليك كان اغلبهم غشوما مستبدا الا انه كان على الاقل له صالح في البلاد التي اغتصبوا حكمها

ومن ذلك الحين اصبحت مصر آيالة عثمانيه كبرى وصارت فريسة لحكام تعاقبوا الحكم عليها وكان هم كل منهم السعى في ما يعود لنفعه الشخصي وسواء عليه اذا خربت البلاد أو عمرت قبل استدعائهم للقسطنطنية الامر الذى لا مناص منه وقبل أن تضيع منهم رعوية السلطان بينما أن قوة البلاد الحقيقية كانت توؤل شيئاً فشيئاً الى البكوات من المماليك الظالمين.

الفصل الخامس والستون

من ردئ الى اردأ

سنة ١٥١٧ مسيحيه و ١٢٣٣ للشهدا و٩٢٣ للهجره

وأمر السلطان سليم بدفن طومان باي قرب قبر عمه قنسو الغوري وبعد مضي ثلاثة ايام على دفنه دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصرية ظافراً في غاية ربيع أول سنة ٩٢٣ هـ الموافق ابريل سنة ١٥١٧ مسيحية وظل فيها حتى حضر المماليك الامراء وقدموا له يمين الخضوع والطاعه وبعد ذلك سار الى الاسكندريه في فرقة من جيشه لوضع الحماية عليها اما أهلها فكانوا كعادتهم لا يهمهم تغيير الحكام فلم يخف سليم من عدم تسليمهم . اما الاقباط ففرحوا بدخول العثمانيين لبلادهم وانقاذهم من ايدي المماليك الظالمين ولكن يوجد بينهم قليل منهم كان ينظر الى العواقب نظراً بعيداً ويعرف أن وضع النير العثماني يتبعه ضغط اثقل مما هو حاصل وقتئذ خضعت عاصمة القطر المصري للسلطان سليم دون أن تحتاج لضربة واحدة ثم عاد سليم للقاهرة لتأسيس نظام الحكومة الجديد بنفسه قبل أن يرجع الى القسطنطينية

وابتدأ نظاماته بعمل استبدادي ليضمن لنفسه خضوع المسلمين التام والاخلاص له . وكان الخلفاء العباسيون لا يزالون في القاهرة تحت حماية السلاطين المماليك يمارسون مهنة الافتأ الدينيه بين العالم الاسلامي كله ولو أن سلطتهم غير محدوده بكيفية تشبه تمام الشبه حالة بابا رومية

الحاكم على كل العالم الكاثوليكي الروماني ولكن كان من مبدأ السلطان سليم عدم وجود رئيس ديني او زمني سواه وقد رأى ان سلطته لاتؤيد الا اذا قبض على السلطه الدينيه ايضا وكان الخليفه اذ ذاك المتوكل على الله (الثالث) الخليفه الثامن عشر من الدوله العباسيه الثانيه وكان تحت تصرف السلطان سليم فاجبره على التنازل له عن سلطته وكل حقوق وظيفته وقد تم ذلك فعلا ونودي بين الناس انه من الآن فصاعداً اصبح السلطان سليم العثماني الخليفه الديني ونائب النبي الكريم على الارض وسيد البلاد الوحيد وصاحب السلطة الروحيه والزمنيه على كل العالم الاسلامي . ومن ذلك الحين انتقلت الخلافه الدينية من الدوله العباسيه التي آخرها الخليفه المتنازل الى الدوله العثمانيه التي كان أول خلفاءها السلطان سليم الاول

وكان يوجد رجل من اعوان قنسو اسمه خير بك كان اول من سلم للعثمانيين وخان وطنه لما آنس ضعفا في جانب جيش بلاده في واقعة مرج دابق العظيمة فظل السلطان سليم حافظا هذا الجميل حتى اذا توطدت اقدامه في مصر عينه واليا عليها من قبله بصفة نائب السلطان أو بحسب اصطلاحات العثمانيين الرسمية (باشا مصر) ولكن لاحتراس السلطان سليم السياسي ولكونه كان يود تأييد سلطته دائما في مصر خاف أن يترك اميراً مثل خير بك في هذا المركز وربما تتوق نفسه الى العظمة فيسعى في الاستقلال . فاخذ يفكر في طريقة تكفيه موؤنة هذا الخطر فعمد الى تأسيس ثلاث قوات في مصر تراقب بعضها الاولى (الباشا) وهو الحاكم

الاكبر ويكون نائبا عن جلالة السلطان ويبلغ الاوامر السلطانية التي تصدر له من الاستانة الى رجال الحكومة والشعب مع مراقبة تنفيذها ولا يكون للباشا سلطة على الجيش ولا يقدر أن يعمل شيئا بدون رضى وتصديق مجلس خاص يتشكل من الاغوات (ضباط الجيش) وهو مجلس شورى الباشا ولهذا المجلس الحق في ايقاف تنفيذ اي أمر يصدره الباشا وان يستأنفوا اوامر الباشا عند الاقتضاء في الاستانة للبت فيها ولهذا المجلس العسكري الشوروي الحق في خلع الباشا من مركزه اذا ظهر لاعضائه وجه الشبهة والخيانة منه . والقوة الثانية (الجيش) حيث جعل السلطان سليم جيشه المحتل لمصر ١٢ الف جندي ٦ الاف من السواري و٦ الاف بياده وجعل مقر ذلك الجيش في القاهرة والمراكز الرئيسية في القطر وقسمه الى ستة (الآيات) جعلها كلها تحت قيادة قائد عام جعل مقره القلعة فكان فيها اشبه بأسير من اسرى الحكومة مسلوب في حريته الشخصية لان السلطان حرم عليه الخروج من القلعة مهما كانت الاسباب وتنقسم تلك الالايات الى

(١) آلالايات المتفرقة وهم نخبة الحرس السلطاني

(٢) آلايات الجاويشية وهم من صف ضباط جيش السلطان وقد عهد اليهم جباية الخراج

(٣) الآيات الهجانه

(٤) آلايات التفقجيه وهم حاملو البنادق

(٥) آلايات الانكشارية وهم نخبة القبائل الخاصة للعثمانيين

(٦) آلايات العزب

وعلى كل الاي ضابط يلقب (بلاغا) ومعه الكخيا والباش اختيار والدفتر دار والخزندار والروزنامجي والقوة الثالثة (المماليك) وهم بقايا دولتي المماليك المنقرضين والغرض من وجودهم حفظ الموازنة بين الباشا وآلالايات لانهم في الاصل كانوا خصما للفريقين . وغرضهم الانتصار للضعيف من القوي المستبد . وكان اول قائد عام لجيش الاحتلال العثماني على مصر احد كبار قواد السلطان سليم واسمه خير الدين لجعل هذا القائد فرقة من الستة فرق تحت امره الخصوصي وجعل افرادها من المماليك المصريين ولكن السلطان سليمان ابن السلطان سليم ألف له على تلك القوة فرقة مركبة من المماليك الامرأ ايضا وهم الذين قبلوا الخدمة في بلادهم تحت اوامر السلطان العثماني . وانتخب السلطان سليم اثني عشر من المماليك الامراء الذين نجوا بحياتهم بسبب خضوعهم للسلطان الفاتح واعطى كل منهم لقب بك وقسم القطر المصري الى اثني عشر (مديرية) وعين هولاء البكوات المماليك مديرين على تلك المديريات ويلقب بالسنجق ولا يعين ولا يعزل السنجق الا بمصادقة مجلس شوري الباشا المتقدم ذكره

فهذه الترتيبات الدقيقة التي تدل على ذكاء السلطان سليم وسمو أدراكه قد نجحت وافادت فعلا وقد كان غرضه من وضعها استبقاء السلطه له في مصر مع بعده عنها في الاستانة ولكنه رأى في ذلك صالحه ولم يراع صالح

البلاد التي فتحها لان هذه الترتيبات لم تكن في حد ذاتها آيلة لسعادة البلاد لانه لايخفى أن تقاطع المصالح واختلافها وجعلها تحت اوامر كثير من الرؤساء والحاكمين يقود طبعا الى وجود القلاقل والمتاعب في البلاد فجميع السكان من مسلمين واقباط شعروا بصيرورتهم وانتقالهم من رديء الي ارداء واتضح لهم اخيراً أن القوة الحربية وان كانت لم تتحد مع بعضها بحسب نظامها ولكنها قد اتحدت على الاضرار بالمصريين واصبح الاقباط ايضاء يتألمون من شكل الاستبداد والمظالم الجديدة وعدم اتباع مبداء العدالة . والى ذلك الحين لم تمت الفنون والصنائع اليدوية في مصر وفضلا عما كان يعضدها به السلاطين المماليك فان السلطان الاجنبي (سليم الاول) قد نشطها وشجعها كثيرا كما هي الطبيعة الغريزية في الاتراك واغلب الصنائع العظيمة التي تشاهد الي الآن في المساجد والكنائس المصرية يتصل تاريخ وجودها بالنصف الاخير من القرن الثالث عشر وكل القرن الرابع عشر وهي المدة التي حكمت فيها دولة المماليك الامراء على مصر

وكان السلاطين الامراء يضطهدون الاقباط بلا رحمة ولا شفقة كل ما اوغر المسلمون صدورهم عليهم ولكن اصحاب الحرف والفنون من الاقباط وعلمأهم والمهندسين المعماريين والمصورين والمذهبين والمزخرفين والكتاب وعلماء التشريع وحفاري الخشب والمطرزين ونساجي الحرير وبالاختصار كل من اشتهر في اية حرفة أو صنعة كانوا معافين من الاضطهاد وخطأهم محتمل ومن يعتنق الاسلام منهم ينشط اكثر ويكافأ

مكافأة عظيمة وفي زمن الفتح العثماني اعتنق الاسلام كثير من ارباب تلك الصنائع من الاقباط ولكن السلطان سليم ما كان يهمه ذلك وما كان يميز بين المصري المسلم والمصري القبطي . وقد اصدر امره بارسال عدد عظيم من اشهر ارباب الفنون والصنايع المصرية بلا تمييز في الجنس والمذهب الى القسطنطينية . وكانت اوامره شاملة عامة وكانت تنفذ بلا شفقة ولا رأفة حتى أن شعراء من المسلمين قالوا انه بسبب جمع هؤلاء الصناع لديه قد أمات في مصر اكثر من خمسين محل صناعي

وفرض السلطان سليم جزية سنوية ثابتة على مصر وقدرها ستمائة الف غرش علاوة على الغنيمة التي اخذها معه الى القسطنطينية وهي الف حمل جمل من الذهب والفضة بخلاف الهدايا والاسلاب الاخرى كما روى احد المؤرخين المسلمين

وعاش السلطان سليم ثلاث سنوات فقط بعد فتح مصر وكان قبل وفاته قد رسم الخطه التي تتبع في ادارة مصر وبعض مشروعات اخرى توفى قبل ابرازها الى حيز الوجود فتولى تنفيذها ابنه السلطان سليمان الذي لما تولى العرش العثماني سنة ٩٢٦ هـ كان عمره ٢٦ سنة ولبث حاكما نحو نصف قرن وقد انشأ ديوانين آخرين بدل الديوان الواحد الذي انشأه ابوه عرف بالديوان الكبير والديوان الصغير ورئيسهما الباشا الذي جعل مركزه في القلعة تحت ملاحظة قومندانها الاغا وتقرر أن يجدد انتخاب هذا الباشا سنويا ومن شأن الديوان الكبير أن ينظر الاشغال العمومية التي

لا تتعلق بالباب العالي اما الديوان الصغير فينظر في الحوادث اليومية والادارة الثانوية

وخصص السلطان سليمان البكوات المماليك الذين اقامهم ابوه واضاف اليهم ١٢ بيكا آخرين للاعمال التي فوق العادة فصاروا اربعة وعشرين بيكا وانشأ ايضا فرقة عسكرية سابعة من المماليك ولكنه احدث تغييراً عظيما في اقطاع الاراضي المصرية لانه لما عجز عن ايجاد طريقة لاحصاء الاراضي المصرية وثروتها رأى أن يحل تلك الصعوبه باقرار صريح واصدر فرماناً صرح فيه بانه المالك الحر الوحيد (١) لجميع الاراضي المصرية ثم فرق كل الاراضي المصرية على شكل اقطاعات على مزارعين كثيرين كان يدعوهم بالملتزمين الذين لهم الحق بمنحها للفلاحين الذين كانوا يحرثون تلك الاراضي ويتمتعون بخيراتها ويورثونها لاعقابهم ولكن ليس لهم حق التصرف فيها وكانوا يدفعون خراجها للملتزمين فاذا مات الفلاح بلا وارث تعود الارض للملتزم واذا مات الملتزم تعود الارض للسلطان وكان

(١) يقول المؤرخون الغربيون وبالاخص كاتب انكليزي في العصر الحديث أن السلطان سليمان الثاني يعتبر مثال العظمة في المسلمين الحاكمين على المسيحيين ومع ذلك فان ذلك الكاتب الانكليزي الذي كان يحامي ويدافع عنه قال أن السلطان سليمان الثاني لم يقدم على عادة قتل الاخوة كالذين تقدموه من السلاطين لانه لم يكن له اخ يذبحه وقال ذلك الكاتب ايضا أن هذا السلطان كان يأمر بذبح اي احد بدون محاكمة ولكن مع كل ذلك كان من احسن سلاطين الترك المسلمين

الملتزمون يدفعون للسلطان في مقابل هذا الالتزام خراجا سنويا اقل بكثير مما يجمعونه من الفلاحين الذين يعطونهم الارض لزرعها وحفظ السلطان لنفسه الحق في استرجاع الارض من الملتزمين اذا كانوا لا يدفعون له اموالا توافقه

ومن هذا يظهر انه كانت تعطى جوائز على السرقة وعدم الامانة باختلاف انواعهما بين رجال الحكومة لانه بالطبع لا يستطيع الملتزمون دفع الاموال التي ترضي السلطان الا اذا كانوا قد جمعوا اضعافها من الفلاحين بطرق مختلفة

فكان هم الموظفين الوحيد في خدمة الحكومة جمع الاموال والاثراء في مدة خدمتهم القصيرة وهذا المبداء كان معمولا به من أول الباشا الذي يجوز خلعه في اي يوم واسترجاعه للاستانة الى اصغر موظف في الحكومة وهو جابي الضرائب

ومن وقت فتح السلطان سليم لمصر حتى غزوة نابوليون اي منهذ ٢٨١ سنة حكم مصر في هذه المدة نحو ١١٩ باشا كانوا يتغيرون بالتوالي من (الاستانة) خلاف الثورات التي كانت تظهر في خلال تلك المدة وتتلاشي في وقت قريب . واحيانا كان الباشا يعود لمصر ثانيا من الاستانه بعد عزله بسنة أو اثنين وبالاجمال فان كل البشاوات الذين حكموا مصر كانوا غرباً وليسوا من المصريين فكانوا بعد قدومهم من الاستانة يعتبرون ذلك نفيا فيحكمونها بغير اخلاص والذي كان يخفف

عليهم مرارة هذا النفي والغربة كانوا يجدون في هذا المركز طريقاً سهلا لسرعة الاثراء وجمع الاموال

ولما رأى السلطان أن الباشاوات بطول اقامتهم في مصر يستبدون فيها وينزعون بها الى الاستقلال ويتمردون عليه صمم على تقصير مدة اقامة هولاء الولاة في مصر

وفي سنة ٩٤٥ هـ عهدت بشوية مصر الى داود باشا وهو تاسع من حكمها من الباشاوات فبقي فيها نحو ١١ سنة و٨ شهور لان السلطان كان يثق به لاستقامته وكرم اخلاقه وكان محباً للعلماء معضداً لهم ولعاً بمطالعة الكتب العلميه وخصوصاً العربية وانتهز فرصة وجوده والياً في مصر فجعلها كعبة يحج اليها الشرق كله للاستقاء من ينابيع علومها وفنونها . ولم تكن مصر تصل الى مثل هذه الحالة الا نادراً في مدة تتراوح بين قرن أو نصف قرن . وبعض المؤرخين يقولون أن متوسط المده التي اقامها داود باشا واليا على مصر كانت لا تزيد عن سنتين وقد يكون سعيداً اذا عزلته الدولة من الولاية بعد تلك المدة القصيرة فيخرج منها بثروة كبيرة يكون قد جمعها بطرق غير محلله واذا اتصل خبر ثروته بمسامع السلطان سليمان يهيج فيه حب الطمع والجشع فيختلق له ذنبا ويأمر بقتله ويستولى على كل ثروته

وثالث باشا تولى على مصر من ابتدأ الفتح العثماني هو احمد باشا واحيانا يقول المؤرخون أن اسمه سليمان باشا وقد مالت نفسه للاستقلال

فاحدث ثورة في البلاد توصله الى غرضه ولكونه كان عدواً لابراهيم باشا الصدر الاعظم الذي ارسل سرا سنة ٩٣٠ هـ الى امراء القاهرة ليقتلوا احمد باشا فبلغه امر هذه المؤامرة السرية فقبض على المحررات الرسمية وحرقها كلها ويقول بعض المؤرخين انه احرق كل الدفترخانه المصرية وسجلاتها لهذا الغرض وحرقت المحررات الواردة من الاستانة بقتله قبل أن تصل لاصحابها واخبر امرأ القاهرة أن تلك الاوراق أوامر واردة من جلالة السلطان يقتلهم فابوا الامتثال لذلك دون الاطلاع عليها فقتلهم قسرا ولما تأكد من انقراض كل خصومه نادى باستقلاله وامر أن يخطب له في المساجد وتضرب النقود باسمه ثم تغالى في العسف والفجور واختلاس اموال الناس فهاجوا عليه وبينما هو في الحمام خرج اثنان من امرائه بعد كسر باب السجن الذي كان قد سجنهما فيه وبيدهما العلم العثماني يستنصران الناس به فعلم احمد باشا انه سيقتل في الحمام فهرب من سقفه والتجأ عند احد كبار العرب بالشرقية فادركوه هناك وقطعوا رأسه وعلقوه على باب زويله ثم نقل للاستانة سنة ٩٣١ هـ

ويظهر أن سلاطين آل عثمان كانوا يميلون الى الكنيسة اليونانية في مصر اكثر من الكنيسه القبطية الوطنية المصرية ولذلك كان بطاركة اليونان لايخشون الاقامة في مصر وفي زمن الفتح العثماني كان البطريرك القبطي وقتئذ يوحنا الثاني عشر والبطريرك اليوناني مرقس الثالث . لكن لم يعرف في التاريخ عنه شيئا ولا عن الذي اخلفهما وهما يوحنا

الثالث عشر وفيلوثاؤس أو ثاوفيلوس

وفي ذلك الحين انقطعت العلاقات بين الحبشة وامها الكنيسة المصرية بالنسبة لما كان ينتج عنها غالبا من الثورات العظيمة فرض ذوو الاغراض والغايات جلالة امبراطور الحبشة واغروه على قبول مطران على الحبشة من البرتغاليين المقيمين في بلاده وذلك المطران كان يدعى يوآس برمودز وقد سافر فعلا ذلك الرجل الى رومه ليرسمه البابا ويعينه في هذه الوظيفة ولما وصل اليها رسمه البابا مطرانا للحبشة وبطريركا للكرسي الاسكندري — وهو عمل عدواني عظيم —

ومع كل ذلك فقد انكرت الكنيستان القبطيه واليونانية في مصر (١) هذا الاعتداء

وقيل ان الذي اخلف البطريرك يوحنا الثالث عشر سنة ١٥٢٦ مسيحية البطريرك غبريال السابع على انه لم يزل هناك شك في اثبات مدة حكم يوحنا الثالث عشر حتى ان بعض الكتاب ينكرون حقيقة وجوده بالمرة . ومع ذلك فان اسمه ذكر بكشف اسماء البطاركة عند الاقباط ولو فرضنا عدم وجوده جدلا فاننا نرى فاصلا بين مدتي حكم يوحنا الثاني عشر وغبريال السابع وهو ثمانية وثمانين

(١) وهذا العمل هو في الحقيقه من التدابير التي تستخدمها السلطة الدينيه الرومانيه لايجاد سلطة دائمة على الكنيسة القبطيه في مصر ولم يكن اصحاب هذا المبدأ يألون جهدا في تنفيذه من وقت مجمع فلورنس حتى هذا اليوم

سنة (١) وهذا مما يحملنا على عدم التصديق بعدم وجود بطريرك للاقباط طول هذه المدة مع اعتبار أن البطريرك الذي ينتخب بحسب القانون الكنائسي القبطي لابد أن يكون في مقتبل العمر وان كان لا يقل سنه غالباً عن خمسين سنة . ومن هذا يتضح أن الذي كان جالسا على الكرسي المرقسي في عصر داود باشا هو يوحنا الثالث عشر

وقد جاء في تاريخ الكنيسة القبطية أن داود باشا حكم مصر بالعدل وخصص زمنا كبيرا من وقته لجمع مكتبة جميلة وكان الناس في مدة حكمه في بحبوحة السعادة والامن

وبعد أن توفى داود باشا سنة ٩٥٦ هـ اخذت البلاد تنتقل من رديء الى ارداء وزادت طرق السلب والنهب حتى وصلت الى درجة مريعة وقطعت الطرق وهجرت الشوارع القديمة . وآخر من تولى مصر في ايام السلطان سليمان محمود باشا وكان ارداء ممن تقدمه من البشاوات وجاء من الاستانة بموكب عظيم وعند مروره من الاسكندرية الى القاهرة كانت تقدم له الهدايا العظيمة وكان في انتظاره بالقاهرة حاكم الصعيد محمد ابن عمر في ذهبية جمع فيها انواع الهدايا ومبلغ ٥٠ الف دينار فاخذ الباشا منه كل ذلك وامر بخنقه ثم خنق ايضاً القاضي لانه لم يقابله عند مجيئه واستمر على هذا الاستبداد الفظيع - تى قتل كل اعيان القاهرة

(١) يوحنا الثاني عشر رسم بطريركا سنة ١٤٨١ مسيحية وغبريال السابع توفي سنة ١٥٦٩ مسيحية

وكان لا يمر في الشوارع الا مصحوبا برئيس الجلادين فاذا اراد قتل احد اشار الى هذا الرئيس فيزهق روحه في الحال وزاد طمعه وجشعه الى درجة عظيمة فلما توفى الامير ابراهيم الدفتردار الذي كان اميراً للحج استولى على كل ماله ومماليكه وجواريه وكان مقدار هذا المال مائة الف دينار ضمه الى ما يرسله سنويا مع الهدايا للسلطان ووزرأه ليستميلهم اليه ولكنه لم ينتفع من هذه الرشوة حيث تربص له احد القتله كان قد استأجره الناس لقتله ليستريحوا من ظلمه فتربص له بينما كان ماراً في ركبه مع رئيس الجلادين وصوب اليه رصاصة القته صريعا يتخبط في دمائه على الارض وكان ذلك يوم الاربع ٣٠ جماد اول سنة ٩٧٥ هـ وكان القاتل مختبئا وراء حائط البستان الذي كان داخلا اليه بموكبه فقبض حراسه على اثنين من فلاحي البستان وقطعوا رأسيهما في الحال ظنا منهما انهما من القاتلين . اما القاتل الحقيقي فهرب ولم تقف له الحكومة على اثر . وكان الناس ينتظرون وقوع ثورة أو هياج بعد قتله فاسرع التجار بقفل دكاكينهم . ولكن الامراء المدبرين لقتله خوفا من أن يفتضح امرهم ويقعوا في مسئولية عظيمة اخذوا يهدئون خواطر الشعب ويؤكدون لهم بعدم قيام ثورة أو هياج ولم تتجه انظار اي احد للاخذ بثار ذلك الظالم المقتول . وكان السلطان سليمان الثاني قد توفى قبل ذلك بعام واحد وعمره ٧٤ سنة وحكم ٤٨ سنة وتولى بعده ابنه سليم الثاني في ٩ ربيع اول سنة ٩٧٥ فنقل السلطان سليم الثاني سنان باشا والي حلب الى مصر بدل محمود

باشا المقتول واستقبل المصريون واليهم الجديد بترحاب عظيم وبعد وصوله بتسعة اشهر انفذه السلطان لمحاربة اليمن فسار اليها مع جماعة من امرأ مصر يوم ٥ شوال سنة ٩٧٦ هـ

واقام بدله اسكندر باشا الشركسي حتى عاد بعد سنتين ظافراً منتصراً ورأى البلاد هادئة في سلام بفضل همة اسكندر باشا الذي رفع الضرائب عن الفقراء والعلماء فاستلم سيتان باشا الاحكام منه ثانيا في اول صفر سنة ٩٧٩ فايد النظام واعاد حفر ترعة الاسكندرية وبنى حمامات وشارع جديد ومسجد في بولاق يعرف باسمه الى الآن واستدعاه السلطان في ذي الحجة سنة ٩٨٠ هـ بعد أن حكم مصر ثماني سنوات كانت كلها هنأ وسلاما واخلفه حسين باشا وكان كثير اللطف والدعة فكثرت اللصوص في ايامه وكانت مظالم البكوات المماليك لم يزل اثرها باقيا في البلاد وفي ايامه توفى السلطان سليم الثاني في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد أن حكم ٨ سنين و٥ شهور و١٩ يوما

وقد زاد السلب والنهب في مصر في السنتين الاخيرتين من حكم السلطان سليم الثاني الى درجه لا تطاق ولا تحتمل

وكانت البلاد السودانية في ذلك الوقت قد تلاشت واصبحت تئن تحت مظالم اعراب يتاجرون في الرقيق لا يخضعون للحكومة ويسكنون في الصحارى والجبال وفى ذلك الحين اكتسحت قبيلة سوداء المملكة الجنوبية وانتخب رجالها من بينهم سلطانا عليهم وجعلوا مدينة سنار

باسمة ملكهم

وفي مدة حكم السلطان سليم الاول وحفيده سليم الثاني كانت المملكة الحبشية مضطربة تنتابها الحروب الاهلية والدينية. ولما يئس امبراطورها من الانتصار على اعدائه المسلمين بلا مساعدة من الاوروباويين تحالف مع البرتوغاليين لينصروه على المسلمين باجرة غالية وهو ان يقبل بطريرك كنيسته مرسوما من قبل بابا رومية بدلا من بابا الاسكندرية. ثم توفي داود واخلفه ابنه اقلاديوس على العرش الحبشي وكان سنه اذ ذاك ثمانية عشر سنة فقط فسار على خطة ابيه واستمر متحالفا مع البرتوغاليين حتى انكسرت كل القوات الاسلامية التي يقودها الحاكم المسلم (العادل) وتبدد شملها فلما رأى اقلاديوس أن بلاده طهرت من الاعداء واصبحت في سلام وكان يعامل برمودز البطريرك الروماني بكل تجلة واحترام رفض الاعتراف بسيادة بابا رومية في ممالكه وارسل وفداً الى البطريرك القبطي غيريال السابع ليبلغه عن لسانه انه (اي البطريرك) رئيسه الروحي الوحيد ويلتمس منه أن يرسل له مطرانا جديداً. فوصل الوفد وقام بمأموريته وفي الحال رسم البطريرك كاهنا يدعي يوسف وارسله مطرانا للحبشة فقابله الامبراطور وجميع الاحباش بالفرح والتهليل ومزيد الترحاب والاجلال اما برمودز البطريرك الروماني فلما رأى ذلك وتأكد من خيبته في اغراء الحبشة وضمها الى الكنيسة اللاتينية فارق تلك البلاد راضيا من الغنيمة بالاياب وعاد الى البرتوغال حيث كتب تقريراً مفصلا

عما تم له ورآه عن عهد رحلته الى الحبشة حتى عودته منها

وكان وقتئذ القديس اغناطيوس لويولا مقيما في رومية فاتقدت نار الغيرة في قلبه واستأ من هذا الخذلان المعيب والحيبة المخجلة وكان يعتقد انه من الممكن الانتصار على الاحباش وجذبهم الى حضن الكنيسة اللاتينية ومسح العار الذي وقع لهم فتوسل الى البابا أن يرسله الى الحبشة ولكن البابا رفض طلبه لسببين اولهما عدم امكانه الاستغناء عنه وخوفه من تجرؤ الاحباش على قتله وثانيهما خوفه من أن هذه الغيرة الحارة تفقد فطنته وحزمه وتعقله فيجلب على نفسه مالا تحمد عقباه

ثم رأى البابا أن يرسم آخراً من اكليروس الكنيسة اللاتينيه بطريركا للحبشة بدل برمودز فاختار رجلا يدعي نونو باريتو وكاهنين آخرين يكونان بوظيفة معاونين له في خدمته الكهنوتية وسافر هولاء الثلاثة الى جوا فاقام فيها باريتو واستمر الاثنان في السفر حتي وصلا الحبشه فاستقبلهما الامبراطور اقلوديوس بكل لطف لاعتبارهما بمنزلة ضيوف غرباء وبعد أن اكرم مثواهما افهمهما بكل رقة وتأدب أنه يرفض قطعيا الاعتراف بسلطة بابا رومية عليه وعلى شعبه وبلاده وأنه لا يخضع الا لكرسي مارى مرقس الانجيلي . وقد سمح الامبراطور لهذين الزائرين بالبقاء في بلاده ولشدة غيرة الشعب الحبشي على كنيسته الوطنيه وتمسكه بعبادته الارثوذكسية لم يضل ولم يحد عن معتقده بتأثير ذينك الرسولين

اما الامبراطور اقلوديوس فقد تفرغ لترميم واعادة بناء كنائسه

التي خربها المسلمون في الحرب الاخيرة ولقب أحد كنائسه العظيمة التي بناها (بجبل الذهب) لعظمة بنائها وجمال زخارفها

وبعد أن ترك المسلمون البلاد بعد انكسارهم الاخير عادوا ثانيا لغزو الحبشة فاضطر ان يقوم الامبراطور اقلوديوس بنفسه لصدهم عن بلاده كما فعل المرة الاولى ولكن خانته الظروف في هذه الدفعه لان الاحباش الاغبياء الذين كانوا معه اندهشوا من كثرة عدد المسلمين وفروا هاربين من أول وهلة فبقى اقلوديوس وحده في ميدان القتال ومعه فقط عشرون من السواري وثمانية عشر جنديا برتوغاليا من حاملي البنادق فاحتاط بهم المسلمون وبعد أن جاهدوا جهاد الابطال وباعوا حياتهم رخيصة في ميدان القتال قتلهم المسلمون عن آخرهم بعد أن قتلوا كثيرين من المسلمين وبقى الامبراطور وحده ومعه ٢٠ جريحا . ولكن بالرغم عن بسالته وشجاعته التي تحرك لها عواطف العدو الشريف اعجابا قطعوا رأسه وعلقوها لتكون موضوع الهزء والسخريه بين المسلمين مدة ثلاث سنوات حتى قيض الله تاجراً ارمنيا فافتداها ودفنها باحترام ووقار في مدينة انطاكية

وقد اخلف اقلوديوس على العرش الحبشي اخوه مينا او منياس فلم يظهر تلك الدعة ورقة المعاملة التى كان يظهرها أخوه للكاهنين الرومانيين اللذين اصبحا في عزلة وانفراد لا يعرفهما احد ولا يلتفت اليهما فرد من افراد الشعب فاورثهما ذلك مزيد السخط والاستياء ومن ثم أخذا يغريان احد كبار اشراف الاحباش فارتد عن ايمانه واتحد معهما ثم عقد مع

المسلمين محالفة ضد امبراطوره المسيحي فاضطر حينئذ الامبراطور منياس للقيام بجيشه لتأديب هؤلاء العصاة وحلفائهم من المسلمين فهزمهم شر هزيمة ولكن توفى بعد ذلك وفي الغالب ان وفاته كانت بسبب الجروح التي اصابته في الحرب وقبل وفاته ترك العرش لابنه سجود وكان صبيا يناهز اثنى عشر سنة من عمره

ويحسن بنا ان نقول هنا بان بابا روميه استاء من تصرف رسوليه ولو انه لا يعلم اذا كان هذا الاستياء قبل او بعد الانهزام فاسرع وارسل مندوبا الى غبريال البطريرك القبطي فاستقبل البطريرك ذلك السفير البابوي وهو يسوعي يدعي كريستوفر رودريكو بكل لطف واكرام ولما فاتحه برغبة البابا بانضمام الكنيسة القبطية للكنيسة اللاتينية رفض ذلك بكل ثبات رفضا باتا وابى الا المحافظة على عقائد كنيسته الوطنية المستقلة . فطلب السفير منه رجاء لامبراطور الحبشة بالنسبة لنفوذه عنده كي لا يمس الرسولين الموجودين هناك بضرر فكتب له ما اراد وسمح امبراطور الاحباش ثانيا لهذين الكاهنين بالاقامه في بلاده بعد مساءتهما عما فعلاه مع والده ولكن لما اشتهر سوء سيرهما لدى جميع الاحباش سخطوا عليهما فلم ينجحوا في رد احد منهم عن عقيدته فقدما تقريراً للبابا يقولان فيه ان الحبشه لا ترتد عن ايمانها الا بقوة السيف فلما علم بذلك ملك البرتوغال طلب من البابا بيوس ان يعيد رجاله فاستدعاهم الى بلادهم وعلى ذلك انتهت اعمال لارساليه الدينيه البرتوغاليه في الحبشه

الفصل السادس والستون

تأثير الاصلاح في مصر

سنة ١٥٧٤ مسيحية و ١٢٩٠ للشهدا و ٩٨٢ هجرية

وفي ١٠ رمضان سنة ٩٨٢هـ بويع مرادخان ابن السلطان سليم الثاني ولقب (مراد الثالث) فعين رجلا يدعي مسيح باشا الخادم والياعلى مصر بدلا من حسين باشا الذي لم يحكمها الا سنة وتسعة اشهر وكان مسيح باشا هذا خزندارا (ناظر المالية) عند السلطان الثاني فحكم مصر خمس سنوات وخمسة اشهر ونصف وكان اول اهتمامه بها ايقاف تيار الناهبين واللصوص الذين كان يقتلهم بلا شفقة ولا رحمة حتى بلغ عدد من قتله من المجرمين عشرة الاف شخص أو يزيدون . وقد استراحت الرعية واطمأنت قلوبها على اموالها وممتلكاتها من الفاسدين الظالمين وقد اشتهر هذا الوالي بالعدل والذكاء ولو أنه كان يرى دائما عبوسا . ومما يذكر له بالاطراء والاعجاب والنزاهة والتقى انه عوضا من أن يستعمل مصر التعيسة كغيره سلما يتسلق منه الى جمع الثروة الخصوصية كان يرفض الرشاوي والهدايا التي كانت تقدم اليه بلا حصر فضلا من أنه شاد عدة مساجد بالقاهرة لم يبق منها الا واحد يوجد الآن بقرب المقابر المعروفة باسمه وان كان قد بناه باسم الشيخ نور الدين القرافي ووهبه له ملكا حراً وخصص له مالا للانفاق عليه وقد امر مسيح رجال الحكومة أن يستهلوا الكتابات الرسمية دائما بهذه العبارة (الحمد لله والصلاة والسلام

على نبينا وآله وصحبه ان المؤمنين اخوة فاحفظوا السلام بين اخوتكم واتقوا الله)

وفي سنة ٩٨٨ هـ عزل مسيح باشا واخلفه حسن باشا الخادم ناظر مالية السلطان مراد الثالث الذي ما وطأت قدمه مصر حتى عادت الى ما كانت عليه من الفوضى وسوء الحال لانه وجه همته لجمع المال من أي طريق كان وبحالة مخجلة اوجبت تداخل السلطان نفسه واستدعت صراخ المصريين والشكوى من كثرة الرشاوي والهدايا والحجر على الممتلكات والتعديات الخ فاستدعاه السلطان بعد أن حكم مصر سنتين وعشرة اشهر كانت كلها شقاء وعناء وعند خروجه من القاهرة سار مختفيا تحت ستار الظلام بأن خرج من باب المقابر لئلا ينتقم منه الاهالي وأخلفه سنة ٩٩١ هـ ابراهيم باشا وامره السلطان أن يتحرى ويستطلع المظالم والاختلاسات التي اتاها سلفه حسن باشا فعين مندوبا في جامع السلطان فرج ابن برقوق ليستقبل تشكيات المتظلمين من حسن باشا وحدد ميعاداً لقبول التشكيات من ١٠ رجب سنة ٩٩١ هـ الى غاية رمضان من تلك السنة فتقدمت في ظرف تلك المدة مظالم لاتحصى ولم ينج من سرقاته واختلاساته حتى عمال وموظفي الحكومة الذين كانوا معه وتحت ادارته وياليته اقتصر على ذلك بل تعدى ايضا على اموال السلطان نفسه فان ابراهيم باشا اثبت انه سرق من الشون العمومية ١٠٠٤٤٢ اردب قمح وباعها واخذ قيمتها لنفسه فلما قدم ابرهيم باشا تقريراً ضافيا بكل ما تقدم الى السلطان امر باعدام حسن

باشا خنقا في الحال واستولى على كل امواله وممتلكاته التي جمعها من غير الطرق المشروعة اما ابراهيم باشا فقد بدأ بعد ذلك بالتجوال في كل بلاد القطر المصري وهي عادة لم تكن مألوفة من قبل ولم يسبقه اليها ملك أو وال على مصر . وكان غرضه من هذه السياحة أن يتحقق بنفسه احوال البلاد واحوال اهلها ويقف على اغراضهم ومراميهم ليتمكن من اصلاحها ونشر العدل بينهم . ولقد وصل في تجواله الى صحراء مصر الجنوبية وتوغل فيها حتى أم مناجم الزمرد الشهيرة عند كثير من المؤرخين «بابا آرامرود» فرسم بعضها رسما دقيقا يستطيع به الوقوف على كلياتها وجزئياتها وان كانت مهجورة من نحو ٢٠٠ سنة على الاقل . وقد رجع هذا الوالي المجتهد الى عاصمة البلاد وفي فكره آراء كثيرة عن طرق الاصلاح المرجو وبعض احجار جميلة من تلك المناجم الواسعة الغنيه لكنه ما بدأ بأعماله ومشروعاته التي ترقى القطر وأهله حتي استدعاه السلطان الى الاستانه فسافر اليها عام ٩٩٢ هجريه وترك البلاد بين أيدي بعض الحكام الذين تركوا اللصوص والاشقياء ينهبون ويسرقون ويعتدون على عباد الله دون ذنب ولا جريرة ثم اصيبت البلاد فوق ذلك بزلزلة قوية هدمت كثيرا من منازلها ومعابدها واوقعت الرعب والهلع في نفوس الساكنين وبعد اشهر قليلة عين سفان باشا الثاني خلفا لابراهيم باشا على مصر فاساء التصرف كما اساء الاهالي الذين اضطروا من ظلمه وفساد حكمه الى رفع شكواهم للسلطان . غير ان هذه الشكوي ما كادت تصل الى الاستانة

الا وسنان باشا هاربا على وجهه من مصر والشرق بعد أن حكم مدة عامين واخلفه في سنة ٩٨٤ هجريه عويس باشا وكان صارم الاحكام قاسيا غليظا فبغضته الجنود وهجمت عليه في الديوان يوم ٢٨ شوال سنة ٩٨٧ه الموافق لعام ١٥٨٤ مسيحية واهانته اهانة شديدة قامت على اثرها ثورة عظيمة بين امراء المماليك وولاة الحكومة العثمانية استمرت ١٠ سنوات خربت فيها البلاد وهرب كثيراً من اهلها كما اختفى كثيرون في بطن الارض . ولما ان هدأت الثورة عين حافظ باشا احمد الخادم واليا على مصر عام ٩٩٧ ه وكان كثير الحب للعلم وذويه وحاذقا حازما ورؤفا شفوقا بالاهالي وخاصة الفقراء منهم الذين احبوه ومالوا اليه وفي اثناء حكمه اي في ١٧ رمضان سنة ١٠٠٣ه تولى الخلافة السلطان محمد الثالث فولى على مصر فورطباشا وهذا الرجل من اهل الذكاء اشتهر بلطفه ودعته وحبه للعلم وللفقراء كسلفه الا ان مدة حكمه لم تطل سوى سنة واحدة وثمانية ايام واخلفه السيد محمد باشا في شوال سنة ١٠٠٤ وكان ايضا كسابقيه في الاخلاق والاداب فاعاد بناء الجامع الازهر ورتب الطعام لفقرائه من طلبة العلم ورمم المشهد الحسيني ومع دعته واجتهاده بحفظ النظام والامن وفض المشاكل فقد بلي بثورة عسكرية عظيمة نشبت في كل بلاد القطر عام ١٠٠٦ ه واذدادت سعيراً ووهيجا كما ازداد العصاة جرأة والثوار جسارة فاجتمعوا في القاهرة وارادوا ان يبطشوا به ان لم يسلمهم بعض ضباطه لقتلهم فهرب منهم عند قائد الجيوش بالقلعة فانتهزوا فرصة هروبه وقتلوا

بعض القضاة والقواد ثم جالوا في المدينة سلبا ونهبا وقتلا حتى جعلوا منهم في كل منزل اثرا لا يمحي من اذهان سكانه ونال الاقباط طبعا في هذه الثورة فوق ما نال اخوانهم المسلمون من ضروب الاعتداء والسلب والنهب كما قتل كثير من الامراء وغيرهم مما لا متسع لذكره في هذا الكتاب

وفي ١٧ ذي الحجة سنة ١٠٠٦ ه تولى خضرباشا ولاية مصر بعد السيد محمد باشا وكان شديداً اراد ان يستعمل سلطته الاضرار بالناس فامر اولا بقطع رواتب الفقراء والعلماء كما قلل المرتب للجند من الطعام فهاج هؤلاء عليه هياجا عظيما وهموا بقتله في ٢ رمضان سنة ١٠٠٩ ه فلم يتمكنوا من الوصول اليه لكنهم تلاقوا بحاجبه وارادوا قتله فاستعطفهم واعطاهم ما شاؤا من المطالب وقد حدث في اثناء ذلك أن بابا رومية عاد لاتخاذ المساعي والوسائل التي توصله لاعتراف الكنيسة القبطية بسلطته عليها فارسل بعض رجاله الى مصر فاجتمعوا بالبطريرك يوحنا الرابع عشر الذي عقد لهم مجمعا من الاساقفة في بابيلون ليسمعوا آراءهم في هذه المسألة لكن لما اجتمع الاساقفة سمعوا آراء النواب حتى هاجوا وعارضوا معارضة شديدة كما رفضوا اقتراحات البابا رفضا باتا الا أن البطريرك القبطي (١) كان طاعنا في السن وسيالا لتضحية استقلال كنيسته فاعلن

(١) ان البطريرك يوحنا الرابع عشر كان يعتقد انه اذا خضع لسلطة البابا تحت شروط سهلة ومطالب مقبولة يضمن بذلك حماية الاقباط تحت رعاية راع قوي البأس فيأمن غائلة الاضطهادات الاسلامية

الاساقفة بان القوانين الخاصة بقبول الاقتراحات قد تمت ودونت مرتكنا في ذلك الاعلان على نفوذه الديني وتأثيره الشخصي . وما هي الاساعة أو اكثر حتى توفى هذا البطريرك فجأة (١) وانحل المجلس مرتبكا بلا عمل يذكر وبدون ان يرى هذه القوانين التي لم يوقع عليها احد اما مندوبو البابا فقد قبضت عليهم الحكومة بحجة انهم جواسيس غرباء والقتهم في اعماق السجون فعز ذلك على الاقباط وهم مطبوعون على الكرم الطبيعي وهموا لانقاذ اولئك المسجونين فقد قدم بعض اغنيائهم مبلغ خمسة الاف قطعة من الذهب فدية لهم فلبت الحكومة نداءهم واجابت ملتمسهم واخرجت المسجونين من سجنها حالا حيث عادوا بعدها الى بلادهم (٢) وابلغوا الامر الى البابا وبكل ما حصل لهم وحدث اولا وآخرا فاسرع هذا ورد مقدار الفدية الى الاقباط شاكرا لهم حسن عواطفهم وجميل شعورهم

(١) يقول المؤرخون الرومانيون الكاثوليك ان البطريرك مات مسموما ولكن لم تظهر ادلة ولا قراءة تاريخية تؤيد ذلك

(٢) يقول بارونيوس المؤرخ الروماني ان الذي اخلف البطريرك يوحنا الرابع عشر بعد موته فجأة قد اكمل المشروع الذى اسسه سلفه بشأن الخضوع لسلطة رومية مؤكدا روايته هذه بالكتاب الذي نقله في كتابه بهذا الشأن واسنده للبطريرك غبريال الثامن وقال فيه ان الاتفاق والاتحاد المذكور قبلته الكنيسة القبطية المصرية في يناير سنة ١٥٩٥ . ولكن ظهر بعدئذ ان بارونيوس كان مغشوشا فيما اثبت وان كل كتاباته كانت غير حقيقية

اما حالة الديار المصرية في ذاك الحين فقد كانت سيئة للغاية أن لم نقل انها كانت على غاية الفوضى حيث وقعت البلاد تحت نير المظالم والمتاعب لسوء تصرف الولاة الذين حكموها . وقد كانت الثورات التي تقع طبعاً عقب تلك الاحوال تنتهي اما بقتل الوالي أو بارجاعه الى الاستانة العلية وكذلك بايقاع افراد الطبقة الصغرى من السكان سيما الاقباط منهم في مصائب عظيمة . وبعد أن خمدت الثورة التي ثارت في عهد السيد محمد باشا وصدرت له الاوامر بترك منصبه أخلفه علي باشا السلحدار سنة ١٦٠٢ مسيحية وكان بطلا محبا للقتال سفاكا للدماء ميالا الى الجند استعمل القساوة الفائقة في معاملة المصريين حتى قال عنه المؤرخون المسلمون انفسهم انه كان لا يخرج مرة في موكبه الا ويقتل عشرة الاف نفس تحت اقدام جواده بتهم باطلة فازداد خوف الناس منه وزادت تعاسة البلاد في ذلك الحين بوقوع مجاعة هائلة وعقب تلك المجاعة اعظم وافظع الاوبئة فتكا

وكان رجل يسكن بقرب احدي بوابات المدينة قد اخبر شمس الدين المؤرخ انه رأى اكثر من ثلاثماية جثة خرجت امامه من البوابة في يوم واحد . واخيراً لما كثرت الوفيات امر الباشا بابطال عمل الاحتفالات الخاصة بدفن الموتى (المشهد) ثم خاف على نفسه من العدوى فهرب من القاهرة مستخلفا عليها احد الامراء المدعو بيري بك وهذا توفى بعد ذلك بقليل فلم يرجع علي باشا السلحدار ليعين وكيلا آخر له فاجتمع السناجق

واتخبروا الامير عثمان بك ليقوم مقامه فبقي عثمان بك حتى عين الباب العالي خلفا الملي باشا وكان سبب الابطاء في تعيين هذا الخلف من الاستانة وفاة السلطان محمد الثالث في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ

وفي تلك السنة (أواخر سنة ١٦٠٢ مسيحية) مات البطريركان القبطي واليوناني ولكن لم يعلم ان كان سبب وفاتهما الطاعون او انهما ماتا موتا طبيعيا لان ذلك غير مثبوت في التاريخ ويحتمل ان غبريال الثامن بطريرك الاقباط هو الذي مات بالطاعون ولكن مليتيوس بيغا بطريرك اليونان لم يمت به لانه يظهر ان الطاعون لم يكن هكذا شديداً في الاسكندرية حيث يقيم مليتيوس بيغا من وقت قدومه للقطر المصري وقد كان غريبا عن مصر كباقي من تقدمه من بطاركة الكنيسة الملكية اليونانية في مصر حيث ولد في جزيرة كريت ثم ارتقى في وظائف الكهنوت حتى اتى مصر بصفته نقيب نائب عن كنيسة القسطنطينية في مصر وبطريركا للاسكندرية. وتفصيل ذلك انه أتي الى الاسكندرية سنة ١٥٧٤ مسيحية طالبا العلم والمذاكرة ثم رسمه البطريرك سيلفستر كاهنا وهو الذى تقدمه فنجح في وظيفته الكهنوتية وفاق على اقرانه في الاسكندريه ثم ارسل الى كريت ليستدعى ولدا قريبا له وذلك الولد هو الذي صار بعدئذ البطريرك كيرلس لوقار . ولما حضر كيرلس للاسكندرية لم يتم تعليمه فيها فارسله قريبه الى فينسيا حيث امضى بضعة سنوات وعاد الى الاسكندرية وقت انتخاب قريبه مليتيوس بطريركا للاسكندرية بدل سيلفستر . وفي المدة التي كان فيها الكرسي

البطريركي اليوناني خاليا أي من بعد وفاة سيلفستر الى انتخاب مليتيوس كان مجتمع القسطنطينية معقودا سنة ١٥٩١ واقر على انشاء بطريركية جديدة مستقلة بمدينة موسكو عاصمة روسيا وبينما كان مليتيوس بيغا رئيسا على الكنيسة اليونانية في الديار المصرية كان قريبه كيرلس لوقار يتجول بضعة سنين في اوروبا . وفعلا زار ايطاليا وجنيفه وهولاندة ويقال انه زار انكلترا ايضا ولكن الدليل على زيارته لانكلترا مما يقبل الريب وقد اندهش كثيراً من مظاهر التقوى والايمان الحار والعبادة الحقيقية التى رآها فى تلك الممالك التى كانت تخطو فى سبيل الاصلاح ولما كان مثل باقي اعضاء الكنيسة اليونانية الوطنيه فقد عارض كثيرا فى مزاعم وادعآت رومية وكان يشعر ان كنيسته تحتاج حقيقة للاصلاح بخلاف اقرانه من رجال الاكليروس وماتعلمه ورآه في سياحته اثر في ايمانه تأثيرا عميقا لكنه مع ذلك عاد للاسكندريه صادقا في ايمانه وحبه لكنيسته وبعد ذلك بقليل رسمه قريبه مليتيوس بيغا كاهنا واخذه معه الى القسطنطينية وبعد ان بقى هناك مدة سنة ارسلوه في مأمورية صعبة الى بولاندا فلم ينجح فيها ولما عاد منها ارسلوه الى كريت ثم عاد منها ثانيا للقسطنطينية وانتهز فرصة قدومه للقسطنطينية هذه الدفعة فاصطحب مع المسيو نون هاجا وطلب منه ان يرجع معتقدات وتعاليم كلفنوس.(١)

(١) مذهب ديني اوجده احد اللاهوتيين يوحنا كلفن عاش من سنة ١٥٠٩ الى سنة ١٥٦٤ مسيحية

هذا هو الرجل الذي أنتخب ليخلف ملتيوس بينا البطريرك اليوناني الاسكندري بعد ان توفى عقب المجاعة والطاعون اللذين حلا بمصر سنة ١٦٠٢ ولم يعارض في انتخابه احد ولكن ثروته العظيمة التي انفقها على كنيسته ومعارفه العالية أزالا الظنون الناشئة عن فتوره في الايمان الارثوذكسي ولما عين سار على خطة تخالف من تقدمه من بطاركه اليونان لان هولاء كانوا يمضون اغلب ايامهم خارج القطر اما هو فاستوطن في مصر وتراس كنيسته عشرة سنوات واجتهد كثيرا في اصلاح المفاسد ومع كل ذلك ظل مخلصا لكنيسة اجداده

ويقول السائح الانكليزي سانديس الذى زار مصر سنة ١٦١١ مسيحيه انه اندهش كثيراً من تعاليمه وآدابه السامية ويقول ايضا ان كيرلس هذا كان له فكر صائب واعتقاد تام باهمية تعاليم الكنيسه الوطنيه الانكليزيه التى سارت في سبيل الاصلاح دون ان تعمل على خراب نفسها كما عملت الكنائس الاخري ويعتقد ان نقطة الاختلاف والفرق بين الكنيسه الانكليزية والكنائس الشرقيه ليست بذات اهمية ولكنه لسوء الحظ لم يظهر استعداداً لمد يد الصداقه المسيحية الي الكنيسه القبطيه التي كان يري طول زمن تألمها بسبب مظالم المسلمين

لانه من عهد الفتح العثماني كانت الكنيسه اليونانيه في مصر محبوبه من رجال الدوله العثمانيه ونوابها في مصر وقد تحسنت احوال الكنيسه بسبب ذلك نحسنا يذكر . اما الكنيسه القبطيه الوطنية فكانت بعكس

ذلك قد وصلت الى اسفل دركات الانحطاط واصبح الاقباط اذلاء ومستعبدين . يحتقرهم المسلمون ويقولون انهم كفار ويهزأ بهم الاروام (اليونان) ويقولون عنهم انهم هراطقة وكان النصران ينظران اليهم بعين الحسد ويغار منهم المسلمون لانهم يفوقونهم في العلم والاستقامه والامانه التي تجعلهم يمتازون عنهم في دوائر الحكومه حينما احتكروا كل وظائفها — ولان المسلمين واليونان يعرفون ان الاقباط هم سكان مصر الاصليون القدماء ويغار منهم اليونان لان مطالبهم العظيمه تعتبرها الحكومه بانها مطالب الكنيسه الوطنيه . ولا يعذر كيرلس بطريرك اليونان ولا يخلو من المؤاخذه في تجنبه استعمال كل وسائل التودد والصداقه مع بطاركة الاقباط (الذين عاصره اثنين منهم) ولا يعذر ايضا لعناده ورفضه كل الحقائق الواضحه المختصة بالاقباط(١) واحتقاره لهم وتشامخه وغطرسته

(١) كتب في احدي رسائله لاحد أصحابه من تابعي مذهب كالفن يقول ان الاقباط واليعقوبيين هما طائفتان دينيتان مختلفتان ووصف اليعقوبيين قائلا انهم من تابعي نستور (نستوريون) أى تابعي مذهب نستور . والحقيقه انه اظهر جهلا عظيما فيما يختص بالاقباط حتي ان بنيل المؤرخ يشك في وجود تلك الرساله التي كتبت بهذا المعنى لانه لايصح وقوع جهل كهذا من بطريرك اليونان الاسكندرى . ومع ذلك فانه حتى في عصرنا الحاضر الذى يقولون عنه عصر النور يقع يوميا كثيراً من مثل ذلك الخطأ بجهل بعض رجال كنيستنا الانكليزيه الذين يحكمون

بسبب جهلهم المعارف والعادات الاوروبية . ومع ذلك فان قسوس كنيسته ما
عدا الذين تعلموا في الخارج كانوا لا يقلون جهلا بالعالم الغربي والعلوم
باتواعها عن قسوس الكنيسه القبطية وحالة كهنة الكنيستين كانت في اسفل
دركات الانحطاط . وفي خلال ذلك كانت المخابرات جارية بين بابا رومية
وبطاركة الاقباط الذين يخلفون بعضهم بعضا بالتتابع . وكتب البابا
غريغوري الثالث عشر الى البطريرك القبطي يوحنا الرابع عشر يدعوه
الي الاعتراف بالسلطه الرومانية فأرسل يوحنا رده الى البابا سكستوس
الخامس الذي اخلف غريغوري وكان مثل رد البطريرك غبريال الثامن
للبابا كليمن الثامن وهو الرفض مع اللطف والرقة التي جعلت بابا رومية
يظن مدة طويله انه نجح في مساعيه — وهكذا كتب بارونيوس المؤرخ
في تاريخه عن رضى الاقباط بالاعتراف بالسلطه البابويه — ولما جلس
البطريرك مرقس الخامس على الكرسي المرقسي دارت المخابرات ثانيا بينه
وبين البابا . وكان اعتقاد الرومانيين الى هذا اليوم ان الكنيسة القبطية
كانت قد خضعت للسلطة الرومانية لو لم يكن الباشا والى مصر عزل
البطريرك مرقس فجأة ولكن الحقيقة التي لاريب فيها ان الكنيسة
القبطية مع وقوعها في اشد احوال الهول والتعاسة ظلت متمسكة
باستقلالها القديم الى الآن ولو انها كانت راغبة في الاشتراك في السنين

الآن ارض مصر نفسها وهم مسؤلون بصفتهم مسيحيين عن الحالة
التي يتخذونها نحو الكنيسه القبطيه

المتقدمة مع الكنيسه الرومانية واليونانية كما حصل بين الكنائس اليونانية
والكنائس الانكليزيه فانها لم تكن تصرح لاى بابا غريب أو نائب بابا
من أية درجة أو أمة كانت ان يتصدى للقيام بوظيفة التشريع فيها بل
بقيت كما هي الكنيسه القبطيه المصريه الوطنيه المستقله .

وفي سنة ١٦٠٤ وجهت الكنيسه القبطية نظرها نحو مشروعات واعمال
الارساليات الرومانية الكاثوليكيه في الحبشة . وقبل ذلك الوقت باربع
سنوات سافر الى الحبشه يسوعياً يدعى بيدوفيز ولما وصل الى مصوع سجنه
الاحباش هناك ولكنهم اطلقوا سبيله بعدئذ وسمحوا له بالاقامة بين
ظهرانيهم فعاش مدة معتزلا بمدينة فريمونا من اعمال الحبشه وانقطع
لدرس اللغة الحبشيه فبرع فيها حتى قيل عنه انه كان يقرأ ويكتب فيها
بطريقة أصح وامتن من الحبشي الاصلي فاتصلت شهرة ذلك العالم الى
بلاط الامبراطور زارنجل الذى خلف سجود على العرش الحبشي فأرسل
له واستقدمه ليظهر براعته امامه في اللغة الحبشيه وشيئا من معارفه
ومواهبه العلميه . فطار بيز فرحا لهذه الدعوة وتمثل امام الامبراطور فاخذ
يناقش الكهنة الوطنيين بلغتهم في المواضيع العلمية حتى تغلب عليهم ببراهينه
وفصاحته وسمح له الامبراطور ان يلقى موعظة امام الحاضرين . فالقى موعظة
جميله أثر بها على الامبراطور فمال الى اعتناق المذهب الكاثوليكي الروماني
واقتدى به كثيرون من رجال بلاطه وحكومته فأدى ذلك الى قيام الشعب
الحبشي على الامبراطور دفاعا عن ايمان كنيستهم الوطنيه الاصلية وارضاء

لخاطر المطران القبطي وقامت حرب اهلية ذبح فيها الامبراطور من أول معركة وهزم اعوانه وبعد قتله اصبح يطالب بالعرش الحبشي اثنان احدهما من العائله الملوكية والآخر من الثابتين على المذهب الاصلي القديم وبعد نزاع وجهاد بين الطرفين وقع الانتخاب على شنوده الذى يسميه المؤرخون سوسيانوس والذى كان يسمى ايضا سلتام سجود وارتقى الى العرش الحبشي

وبعد ان هدأت الاحوال سمح الاحباش الي اليسوعي بيز بالبقاء في بلادهم . ولما كان يسوعياً حقيقياً وعالماً ماهرا — وكان ذا حماس شديد على مذهبه ولا يتحول عن غرضه مهما حالت دونه العوائق فانه أخذ يجتهد في التأثير على هذا الامبراطور الجديد واستمالته لمذهبه وبسعيه هذا اوقع البلاد ثانيا في حرب اهلية .

وذاع وقتئذ ان وفداً سافر من الحبشة الى ايطاليا ليعلن للبابا خضوع شنوده امبراطور الحبشه ودخول المملكة الحبشية تحت سلطة الكنيسة الرومانية . فاعلن ثانيا المطران القبطي حروما صادقا على الذين يتمسكون بالعقيدة الكاثوليكيه وهاج الشعب الحبشي ثانيا فاشهر السيف في وجه الامبراطور دفاعا عن دينه واستقلاله القديم ولكن الامبراطور انتصر على الشعب هذه المرة . ومن ثم اخذ الهياج يزداد شيئا فشيئا حتي تمرد كل الشعب الحبشي واشهروا العصيان ضد الحكومه واصبحت البلاد في حرب اهلية هائلة . فسحق الامبراطور شنودة رؤساء العصاة الواحد بعد الاخر واذاع علنا ارتداده واعتناقه المذهب الكاثوليكي الروماني . اما بير روبنز

اليسوعي مصدر تلك المصائب فقد مات بعد ذلك سنة ١٦٢٣ مسيحيه . ويعتقد الانسان بلا شك انه بمساعيه الغير شريفه نجح في تخريب المملكة الحبشية المسيحية التي اكرمته واضافته فاقام حربا اهليه فيها بين اهلها وامبراطورها

الفصل السابع والستون

مصر في القرن السابع عشر

سنة ١٦٠٣ مسيحية و١٣١٩ للشهدا و ١٠١٢ للهجره ولما توفى السلطان محمد الثالث بويع بدله ابنه احمد الاول ابن محمد . فولى على مصر في الحال واليا يدعي ابراهيم باشا فاراد ابطال زيادة مرتبات الجند فتمرد عليه رجال الجيش وكان ذلك سببا لقتله فانه بعد توليته ببضعة اشهر تآمروا عليه وانتهزوا فرصة خروجه بحرسه قاصدا شبرا بطرف النيل فاراد القتك به ولما استشعر بالامر التجأ الى قلعة الدولاب بتلك الجهة ولكنه اشار عليه السياجق بالهروب من طريق النيل فلم يقبل فاحاط الجنود الثائرون بالقلعة وارسلوا منهم ١٥ ليأتوا برأس الباشا فلما تمثلوا امامه وبأيديهم السيوف انتهرهم قائلا ألم تأخذوا مرتباتكم والهدايا التي جأتني منذ توليتي (فماذا تريدون اذا) قالوا انطلب رأسك ثم صنعوه على رأسه ووجهه وقطعوا رأسه ورأس أمير آخر انتهرهم على ذلك وعلقوا الرأسين على باب زويله

وكان ذلك يوم ٢٩ ربيع آخر سنة ١٠١٣ هـ . وولى على مصر بعده موقتا عثمان ولكنه لم يقبل البقأفولوا القاضي عسكر مصطفى افندي . ولما علم الباب العالي بقتل ابراهيم باشا أرسل بدله الوزير محمد باشا الكروجي مزودا باوامر صارمه الى السناجق بقمع الثورة وتحقيق اسبابها والقبض على القاتلين فلم يقبل السناجق تنفيذ هذه الاوامر فتوسط الامراء بينهم وبين الباشا الذي وعدهم انهم اذا سلموا اليه القاتلين يعفو عن ذنبهم

فسلموا القاتلين للباشا فامر بقطع اعناقهم امامه في الحال ولكنه لم يبر بوعده للسناجق بخصوص العفو عنهم وبعض المؤرخين يقولون انه عفا عنهم والنتيجة انه لما رأى الناس انه في خلال السبعة شهور التي ولي فيها واليا على مصر قتل من الامراء والبكوات المشاغبين والمحركين للثورات نحو مايتي نفس فاوجد ذلك الرعب في قلوب من يتوقون للثورات والمشاغبات وقل عدد القاتلين وبعد ان حكم سبعة أشهر وتسعة أيام تولى بدله الوزير حسن باشا وكان أقل حزما من سلفه. وفي ٧ صفر سنه ١٠١٦ هـ تولى بعده الوزير محمد باشا وكان حكيما حازما.

وفي اواخر شوال من السنة الثالثه (يناير سنة ١٦٠٩ مسيحية) ثار عليه العساكر لشروعه في الغأ الضرائب الغير عادلة وقد اشتهر بانه ليس له اعدا في البلاد الا هولاء الجنود الذين أراد أن يمنعهم عن السلب والنهب ولما اكتسب محبة الناس له لما اوجده بينهم من النظام وتوطيد دعائم الراحة والسلام حكم مصر نحو أربع سنوات وأربعة أشهر و١٢ يوم واستعفى

من نفسه بلا ضغط ولا اكراه . فلما أمضى نحو سنتين حاكما على مصر ورأى رجال الجيش قد اصبحوا وليس لهم غير مرتباتهم فقط فلا يستطيعون جمع ضرائب غير قانونية لاجل التفرغ الى ملاذهم ولو شقي الفلاحون التعساء سوءا كانوا من المسلمين والاقباط وهذا هو سبب تمردهم وعصيانهم. فتحالف كبار الجيش من الامراء والبكوات في اجتماع عقدوه في برج السيد احمد البدوي على قلب السيادة العثمانيه وارجاع البلاد الى حالتها القديمة حيث كان المماليك فوق القانون فانتخبوا واحدا منهم وجعلوه سلطانا عليهم وآخر جعلوه وزيرا . ثم قسموا مصر الى اقاليم التزم كل واحد منهم أقليما وأستمروا في السلب والنهب . ولكنه كان يوجد بينهم بعض من المماليك ورجال الانكشاريه المخلصين الذين رفضوا الوقوف في وجه الباشا الحاكم العادل فاجتمع معهم الباشا وتشاور واياهم ومع السناجق والجاويشية للتوصل الى مايجب اتخاذه ضد هؤلاء العصاة فاتفق الجميع على القيام لمحاربتهم فساروا بقيادة الباشا في ٩ ذى الحجه سنة ١٠١٧ هو معهم ستة مدافع وبعض قبائل من العرب في الليلة التالية عسكروا في بركة الحج وفي الصباح التالي هاجموا العصاه في الخانكاه وضيقوا عليهم باطلاق النيران فلما رأى الامراء العصاة انهم سيهزمون لا محالة سلموا انفسهم واخذ عليهم الباشا عهدا بتسليم سلطانهم وزعمائهم وهو يضمن لهم حياتهم في مقابل ذلك . فسلموا له بعض رفقائهم وعددهم نحو ٢٣٧٧ من ضباطهم فقتلهم الباشا حالا وبذلك تخلصت الاقاليم من

عبث العصاة ثم اسر الباقين وذبح كثيرا منهم فلما رأى القاضي عسكر تزايد المذابح يوميا نصح للباشا ان يتبع سياسة احكم من ذلك وهي ان ينفي كل من يقبض عليه من العصاة بدل قتلهم فقبل الباشا هذه النصيحة وكبل نحو ٣٠٠ مملوكا بالسلاسل الحديدية وارسلهم على الجمال الى السويس ومن هناك وضعوا في مركب وارسلوا الى اليمن . ولما ارتاح محمد باشا من الثورات صرف باقي مدة حكمه في تخفيف الاثقال عن عاتق المصريين فاصلح ادارة المالية وخص بنفسه النفقات التي كانت تدفع من خزينتها فابطل منها مبلغا عظيما كانت تدفعه الحكومة معاشا يتمتع به الكسالى من ذوات وكبار المسلمين وابطل طريقة المماليك الشراكسيه في جمع الضرائب ونفذ القوانين التي اصدرها السلطان سليمان بشأنها سنة ٩٣٢ هـ ونظم المكوس واذا كانت بعض الاراضي لا تأتي بأيراد عظيم تنازل لصاحبها عن الحكومة ضرائبها .

ولما أقبل وبارح القطر المصريه انهالت عليه الانعامات والمكافآت مما لم يصادفه احد من اسلافه وتولى بعده محمد باشا الصوفي وكان عفيفا لا يقبل الرشوة محبا للعلم والادب ورعا حليما لم يأت ظلما . على الاطلاق

وفي سنة ١٠٢٢ هـ (١٦١٣ مسيحية) ارسل الصدر الاعظم عشرة الاف رجلا من الانكشارية الى اليمن لاخماد ثورة فيها كطلب حاكمها فنزل هؤلاء الجنود بمصر لانها طريقهم الى اليمن وكان مع قائد الفرقة المذكورة

امر شاهاني الى محمد باشا الصوفي والي مصر ليمد رجال تلك الفرقة بالنقود ويقوم بكل لوازمها من المؤونة وغيرها ويسهل لها وسائط النقل من الاسكندريه للسويس . فرأى الانكشاريه ان بلاد مصر جميلة وتلذ الاقامة فيها فادعوا أنهم جاؤا للاقامة بها وانكروا امر رحلتهم ولم يذعنوا للباشا الوالي بالسفر الى اليمن واحتلوا عنوة القسم الذي كانوا فيه من القاهرة بما في ذلك باب النصر وباب الفتوح وطردوا اصحاب البيوت الكائنة في ذلك القسم واقاموا بها وشرعوا في اقامة المتاريس حول ذلك القسم وقفلوا باب النصر وأقاموا المدافع في برجيه . فالتزم الوالي الباشا أتقاء لذلك الخطر اتخاذ الوسائط السياسية في محاصرتهم في نقطتهم بكل مالديه من العساكر والمدافع ولكنه لم يكد يضيق عليهم الحصار حتى تمكن احد ضباط جيشه الامير عابدين بك من الدخول الى حصنهم من مدخل سهرج مدرسة الجانيلاطيه فذعروا وظنوا ان جنودا تتبعهم من ذلك المدخل فخافوا وسلموا في الحال ولكن لم يعاقبهم الباشا على هذا التمرد بل فرق عليهم نحو ثمانين كيسا من النقود وطلب منهم القيام الى مهمتهم في اليمن

وبعد ذلك اعتزل الصوفي وتقاعد في قبة العادليه بعصر حتى أتي خلفه من الاستانه احمد باشا دفتر دار مصر سابقا الذي لما دخل الى القاهره بموكبه رجمه حد الناس بحجر من فوق سطح فكسر الهلال الذي فوق عمامته ولم يصب بضرر فقتل الفاعل في مكانه وبعد ذلك بثلاثة سنوات

اي سنة ١٠٢٥ هـ وصل الوالي امرا من السلطان ليضم ماية جندي على حملته المرسله عن طريق مصر لمحاربة الفرس فارسلهم تحت قيادة صالح بك امير الحج ومروا بالمديريات ولم يشعر الاهالي بمرورهم مع انه لم يكن يتيسر قبل ذلك مرور ماية رجل بعزبه او قرية مالم يسلبوها وينهبوها وينسب ذلك لنفوذ الباشا الوالي ولما اوجده من النظام والعدل في صرف رواتب الجيش في مواعيدها ويقال انه عند ماودع الباشا هذه الفرقه فرق على كل واحد من رجالها ٢٠ دينارا وقد التقت بالجيوش العثمانية عند الخانكة

وبعد مضي سنتين تقريبا تمزقت احشاء مصر والقسطنطينية بسبب عزل السلاطين والولاة والثورات الداخلية التى تخللت ذلك .

ففي يوم الاربع ٢٣ ذي القعده سنة ١٠٢٦ هـ توفي السلطان احمد الاول وأخلفه أخوه مصطفى الاول ولما جلس على اريكة العرش العثماني عزل احمد باشا والي مصر المتقدم ذكره بعد ان حكمها مدة سنتين وعشرة اشهر و١٢ يوما ولم يقتل في اثناء ذلك الا عشرة من المصريين فقط لان أفعالهم كانت تستوجب القتل وما عدا ذلك فانه لم يكن يعاقب احدا الا بعد الفحص والتحقيق الدقيق . وتولى بعده مصطفى باشا لفتلى .

ثم عزل السلطان مصطفى بعد ثلاثة اشهر وثمانية ايام في ٣ ربيع اول سنة ١٠٢٧ والتخب بدله ابن اخيه ابو النصر عثمان فعزل مصطفى باشا والي مصر لانه كان سببا في حدوث ثورة عسكرية في ٧ شوال سنة ١٠٢٧ هـ

قتل فيها كثير من الامراء وغيرهم واضطر الباقون الى الفرار وتولى مكانه جعفر باشا ولكن مدة حكمه لم تدم اكثر من خمسة اشهر ونصف وفي اثناء المدة التي حكم فيها مصر كان معضدا العلم ومكرما العلماء ويريح العباد ولكن حدثت في ايامه مصائب عظيمة للبلاد من طاعون ومجاعه وغيرها وكان هو سببا في موت بطريرك الاقباط كما سترى في سياق هذا الفصل وكان المماليك مدة حكم احمد باشا ومصطفى باشا يسلبون وينهبون ولا يكفون عن الذبح وقطع الطرق ويستخفون بقوة الولاة اتباعا لطبعهم الاستبدادي .

وفي سنة ١٦١٦ مسيحية عاد كيرلس لوقار بطريرك اليونان الى مصر بعد غيابه في اوروبا زمنا وكانت سياحاته في اوروبا قد اثرت عليه وزادت في ميله الى مبادئ كلفن اللاهوتية وفي الحقيقة أنه بسبب ذلك كانت العلائق بينه وبين رئيسه بطريرك القسطنطينية على غير ما يرام ولكن تم الصلح بينهما قبل أن يرجع كيرلس الى مصر . وكانت اول اعماله في مصر بعد عودته من سياحته انه جمع اساقفة كنيسته وعقد مجمعا منهم تحت رئاسته واصدر حروما ضد الارساليات الكاثوليكية الرومانية التي قد تأسست وقتئذ في البلاد

ولم يمض وقت طويل بعد جلوسه على كرسي البطريكيه في الاسكندرية حتي علموا ان قسوس كنيسته جميعا في الديار المصريه جاهلون غبياء لا يدرون شيئا في شؤون وظيفتهم الكهنوتيه وغير كفؤ لتلك الوظائف بالمرة مثل

قسوس الاقباط الذين كان يحتقرهم كثيرا بعكس اولئك الدخلاء الكاثوليك الذين كانوا قد تعلموا العلوم اللاهوتيه حتى أثروا بمواعظهم البليغة على الشعب المصري فاستأ البطريرك كيرلس وخشى عاقبة ذلك وهذا ما جعله أن يبادر الى عقد مجمعه ويحرمهم كما تقدم القول

ثم قدم طلبا الى رئيس اساقفة كنتربري بانكلترا عن يد سفير انكلترا في القسطنتينية يستميد رائيه في أمر جهل قسوسه فاشار عليه رئيس اساقفة كنتربري ان يرسل الي انكلترا كاهنا من الشبان وهو يتعهد بتعليمه اللاهوت ويؤهله لان يكون الساعد الايمن له في مصر. ويحسن بنا هنا أن نأتي على كتاب كيرلس الى رئيس الاساقفة ورد هذا الاخير عليه لما في ذلك من الفائدة واللذة :

خطاب البطريرك الى رئيس اساقفة كنتربري الكلي القداسه والاحترام — مولاي السيد رئيس اساقفة كنتربري — (متروبوليت) مطران ورئيس اساقفة عموم انكلترا — الذي يستحق عظيم الاحترام من داعيكم — اما بعد — فلي الثقة بان كتابي هذا يصل الى يدكم الطاهرة بانكلترا بكل احترام ووقار يليق بمقامكم السامي .

اني كيرلس بنعمة الله بابا وبطريرك كنيسة مدينة الاسكندرية العظيمه وقاضيها الشرعي العام . بعد ان اتمنى لغبطتكم كمال الصحه لفائدة ونمو القطيع المعهود اليكم من الرب رعايته اتشرف بابلاغ مقامكم الرفيع منذ عودتي بنعمة الرب يسوع الى بلاد مصر ويتمتعا بمعونته تعالى بمزايا

السلام الذي اوجدته في كنيستي — أراني مشاقاً للتبرؤ من الوعد الذي قدمته لقداستكم بخطاباتي السالفة وضميري يشعر بان المسيح لا يسر بمشاهدة سلام تام في كنيسة اخرى بدرجة اتم مما في كنيستي ما دمنا قد نزعنا بنعمة الايمان المعلن لنا كل اسباب الشقاق والخصام من عهد ما الجم المسلمين (الذين يعتبرون الداعدأ المسيحية واشد المعارضين لمبادئها) السنة اولئك الذين يحركون عوامل ذلك الشقاق وتلك المخاصمات (١) الذين بسببهم قد وقعنا في تجارب كثيرة مختلفة وتضايقنا كثيراً : ومع كل ذلك فاننا اكراماً لاسم الفادي الحبيب يسوع الذي نطق به بكل ورع وخشوع والذي تحمل معنا علامته دائما . نشعر مسرورين بتلك الآلامات النفسية متحملين كل ذلك الغيظ والضيق بكل ثبات وعلاوة على ذلك فاننا اذا ادت الحالة لوقوعنا تحت العذابات والقصاصات الاليمة فنقبله بكل انشراح معتقدين أنه بهذه التجارب قد يتجلى ايماننا ويظهر اكثر فاكثر ويعلن فينا مجد الله

اذاً لا نخاف من تلك التجارب بل نخاف من اولئك الكلاب اولئك العملة الغشاشون — اولئك المراؤون المنافقون — الذين يقولون غير ما يضمرون — الذين ادت بهم وقاحتهم لمهاجمة الله نفسه اذا كانوا يريدون باية طريقة تأييد مظالم بابا رومية

فاولئك الجواسيس يزعجوننا الآن ويغشوننا لبساطتنا ويستعملون

(١) يقصد بهذا التلميح الارساليات الكاثوليكية الرومانية في مصر

وسائط والآت كثيرة لجذبنا تحت سلطتهم مرتكنين بالاخص على مظاهر براعتهم في العلم والمشاكل التي يوجدونها — بينما نحن نشتغل في امر احتياجنا لرجال متعملين يقدرون أن يقفوا في وجه اولئك المدعين الكاذبين لاننا بسبب خطايانا قد اصبحنا احقر كل الشعوب وبانقلاب المملكة قد فقدنا الفنون الحرة

وبعد طول التأمل والتفكر في هذا الموضوع وصلت الى نتيجة مرضية للافكار وهو فتح باب المواصلات بيني وبين محبتكم الظاهرة طالبا مشورتكم ومساعدتكم

وبينما انا في هواجسي هذه هبطت علي اعظم تعزية من قداستكم حيث تشيرون علينا بامر جلالة ملككم العظيم أن نرسل احد مواطنينا ليدرس اللاهوت بين ظهرانيكم وتحت رعايتكم المقدسة

فها هو اذاً قادم لنبطتكم شاب يوناني الجنس حائز لوظيفة قسيس من وظائف الاكليروس وعارفا بالآداب اليونانية وهو ابن احد اعضاء كنيستنا الاسكندريين . شريف الاصل . ذكي الفؤاد وعلى تمام الاستعداد لتلقي العلوم اللاهوتية العالية . ولنا الثقة في أن الارتقاء الذي سيتحصل عليه يأتي بالفائدة المطلوبة ولا يجعلنا نندم على ما صرفه من الوقت هذا اذا كانت النعمه الالهية تحل عليه من السماء واذا شملته رعاية قداستكم ومساعدة يدكم الطاهرة

هذا وبمناسبة قول قداستكم أن هذا المشروع مقبول لدي صاحب

العظمة والجلالة الملك جامز الاول المتوج على عرش انكلترا بيد الله . يجب علينا تقديم خالص امتناننا ونزيد تشكراتنا القلبية لشفقته هذه التي تقرب شبهاً من شفقة ومحبة الملك السماوي . فبهذا القبول قد اقر عيننا وكان اشبه بملاك يرسله الله سبحانه وتعالى من السماء مزوداً باعظم عطايا نعمته وبعنايته سبحانه وتعالى الخصوصية له قد اسند اليه رعاية تلك المملكة العظيمة النامية . وقبل الختام نلتمس من قداستكم أن تنوبوا عنا في ابلاغ تحياتنا مقرونة باعظم واجبات الاحترام والوقار والخضوع والعبودية الجسدية الى جلالة هذا الملك الشفوق الكريم الذي يتمنى له من كل قلوبنا حياة سعيدة وعمرا مديدا ونتوسل من نقواه الغربزية العظيمة أن يسمح بفيض احسانه العميم على عبده القادم للتعليم

وفي الختام اذا كان ينقص في كتابي هذا شيئا فيما يختص بالتعليم فهذا يمكن تداركه بواسطة فطنتكم التي اقامها الله فيكم وارسلها كمصباح مضيء في مكان سام حتى يمكنكم ليس فقط تعزية مواطنيكم البريطانيين بل ايضا كل ابناء جنسنا من اليونانيين

اني احييكم واستودعكم الله ايها الآب الطاهر واطلب منه سبحانه وتعالى أن يهبكم عمرا طويلا سعيدا وان يعطيكم القوة الجسدية ليمكنكم تحمل متاعب الشعب والكنيسة التي عهد اليكم العناية بها

تحريرا بالقطر المصري في اول مايو سنة ١٦١٦ شرقي (اي سنة ١٦١٧)

فوصل متروفانس القسيس اليوناني بامان الى انكلترا واستقبله

الملك والمطران استقبالا حسنا وأدخل فى جامعة اوكسفورد

وهذه صورة رد المطران على البطريرك اليوناني

من جورج أبوت بنعمة العناية الالهية رئيس اساقفة كنتربرى ومطران سائر بلاد انكلترا ورئيس اساقفتها — الى الكلي القداسة السيد والاخ كيرلس بابا وبطريرك الاسكندرية وقاضيها المسكوني العام دام بصحته في المسيح

أما بعد فانه توجد اشياء كثيرة تشهد بالشعور المشترك والاتفاق الحلو اللذان يتمتع بهما أعضاء كنيسة المسيح العامه . ولكني في هذا الوقت اشعر بهما اكثر من المعتاد خصوصاً لتمكني من معانقة اخوتكم بين ذراعي مع عدم سبوق رؤيتكم وجهاً لوجه ومع بعدكم عني بمسافات طويلة ارضية وبحرية . وذلك لان وحدة الايمان تربط كل منا الواحد بالآخر . وعهد المحبة يوصلنا في شخص واحد وفي روح شخصية واحده حتي بذلك نجد المسيح يسوع وبذلك نستنشق الحياة . وتهنيكم من صميم الفؤاد على السلام الذي تتمتع به كنيستكم التي كما تقولون ليست مضطربة بالانشقاق والشغب والفتن الداخلية . هذا ما تهنيكم بتمتعكم به في وسط الاعداء الالداء الحاملين على اسم المسيح طبقاً للنبوة الملوكية بشأن المسيح الملك — . (لتكن حاكما في وسط اعدائك) وأيضا نلتمس بركة تقوك على عطايا الرب الكثيرة المنسكبه بغزاره على الكنيسه البريطانية ويليق بنا في هذا المقام أن نوضح لكم ما قاله قديسكم العظيم

يوحنا ذهبي الفم عن جزيرتنا (ستسمعون الناس يتفلسفون من الكتاب المقدس بالسنة غريبة ولكن بايمان مألوف يستعملون لغة المتبربرين . ويعترفون بايمان القديسين) لان شعبنا المخصص لعبادة المسيح دائما مسطحب بنور الانجيل الساطع ويطفي ظمأه بغزارة من مجاري مائه الحي القراح بلا خوف ولا وجل وهذه النعم الربانية اللذيذة لا يمكن الحصول عليها في الكنائس الواقعة تحت نير بابا رومية .

أما فيما يختص بتثقيف وتعليم شعبنا فانه يختلف عن الكنائس الاخرى التي طهرت من ادران اليابوية . فاننا متمسكين باقدم شكل من القواعد الاكليريكية فنطلب من الله الذي يعطي شعبه كل شيء حسن أن يحفظهم لنا الى الابد . ولو اننا بعد فساد آداب عقولنا وبالنسبة لخطايانا وبالاخص لكفرنا بالنعمة ونكراننا للجميل قد استحقينا بان ينقل شمعداننا الذهبي من محله ونحن انفسنا قد حرمنا من نور الكتاب المقدس على اننا لا ننسب النعم التي نتمتع بها لاستحقاقنا اياها فاننا في الحقيقة لا نستحقها . ولكن اولا الشفقة والمحبة الالهية وثانيا بالنسبة للمحبة الوحيدة التي ينتخبها الرب لاعلان مجده بواسطتها . فان جلالة مليكنا المعظم جامز الاول الوارث للتاج والرئاسة الدينية من الملكه اليصابات التي نتذكر اسمها مقرونا بالتقوى يعززهما بشرائعه ويضيئها بقدوته الحسنة لان جلالته عرف بانه غيور على سماع المباحث المقدسة وضيف على مائدة الرب وبالاخص في الولائم الاكثر خشوعاً

وهو يتناقش على علم في اعظم اسرار المدارس اللاهوتية العويصه مع أعظم الاساقفة المتعلمين وقد الف أيضا وكتب كثيرا وأحسن كتاباته الدقيقة في علم اللاهوت . وكان مبدأ كتاباته تثبيت الايمان وهدم الاغلاط اللاهوتية وبالاخص الرومانية منها . وعليه فاني اهنيك من كل قلبي للمحبة التامة التى نلتموها من ملك هذه صفاته فانه بعد أن اطلع على الخطابات المرسله الي من قداستكم يهدي غبطتكم تحياته ويتكلم عنكم بكل ثناء وشكر . ولكي ابرهن لقداستكم على صدق نيته قد امرني باستقبال مرسلكم المدعو متروفانس وغمره بكل تعطف ولطف واني سالاطفه واعززه واعتبره وديعة عندي وعنوان محبتكم لي . كما واني بكل امتنان سامده بكل ماهو ضروري ولازم له . وها الآن قد وضعته في مدرسة يونانية صغيرة في حديقة نسر النفوس . حيث يترعرع فيها بين ظهرانينا وفي وقت قريب يثمر ثمراً شهياً .

وفي جامعة اوكسفورد العظيمة التي بها اعظم مكتبة فاخرة وسبعة عشر كلية ويتعلم بها كثيرون من المختلفي الاجناس والعناصر على نفقة المملكة العمومية ادخلنا مرسلكم متروفانس للتعليم و ند ما يستكمل تعليمه ويثمر ثمرا جيدا ويصبح قادرا على خدمة كنيستكم

ولي الان فقط ايها الاخ الكلي القداسة بان اتوسل من غبطتكم وتقواكم مواصلة صلواتكم للرب عن الكنيسة البريطانية كما نحن نصلي أيضا كذلك عن الكنيسة اليونانيه حتى تكون صلواتنا بقوة العناية الالهية

سورا منيعا لكنيستكم معززة بالمحبة والسلام ولكي تتحرر من اعمال اولئك الجواسيس الحدثين الذين يقاومون بخيانتهم حرية المسيحيين ومنهم اولئك الرهبان الكاذبون الذين يجب تجنبهم وعلى الاخص الخارجين حديثا الان من دولاب الفخراني الذين ينتحلون لانفسهم اسم المخلص (١) بغير استحقاق الذين يعترفون بانهم يسعون وراء السلام وهم يجعلون كل شيء في اضطراب وارتباك ويدعون انهم يطلبون الحقيقة وهم دعاة المغالطة والمواربة وقد يعمدون في الغالب الى الخبث وخيانة العهد . فنسأل راعي الغنم العظيم ان يحفظ قطيعه من أولئك الثعالب والذئاب الخاطفة كما نسأله ايضا ان يحفظ تقواكم وقداستكم في سلام وفي نعيم وغبطة الى الابد

ولسوء حظ الكنيسة اليونانية في مصر اتفق ان رجلا هولانديا يدعى داوود ليليودي ولعلم شديد التمسك بتعاليم كالفينس اتى مصر وصرف زمنا طويلا سائحا في انحائها . واختلط مع كيرلس بطريرك اليونان وبقوة عارضته تمكن من التأثير الشديد عليه وكانت نتيجة هذا التأثير ان جعله يجنح شيئا فشيئا عن تعاليم كنيسته حتى شرد كثيرا عن جادة الايمان الارثوذكسي وأصبح يعتقد ان وظيفته الرئاسة الادارية فقط على تلك الكنيسة اليونانية المصرية . وفي سنة ١٦١٨ مسيحيه ارسل خطابا مملوءه الشكر العظيم لمطران اسبلاترو الذي كان قد ترك الاعتراف بالمبادئ الكاثوليكية واذاع الحياد عن الكنيسة الرومانيه

(١) يقصد بذلك اليسوعيين

والميل الى الكنيسة الانكليزية وكان سبب تشكرات كيرلس له انه ارسل له نسخة من كتابه المعروف في ذلك الحين باسم (الجمهور المسيحي)

ونحن نلخص هنا من كتاب الشكر المذكور ما يظهر أمياله العقلية نحو الكنيستين الرومانيه والمصرية :—

ففي جملة ما قاله بهذا الصدد انه عند ما جاؤا لي بخطابك العزيز كنت مريضا وملازما لفراشي . ولكني تجلدت وقرأته فلما عرفت ما هو الكتاب وما هي مواضيعه ومن هو المؤلف له . أمرت باحضاره الي فمكثته بيدي ولم اكف عن مطالعته حتى حضر الطبيب واوقفني عن المطالعة . وبعد ان تقدم وجس نبضي . ناولته الكتاب لانه تابع بدينه الى الكنيسة الرومانية . فماذا تظنه قال لي ؟— انه قال—هل تريد قداستكم ان تسمع رأيي في هذا الكتاب ؟ قلت نعم — قال لا يوجد شيء في هذا الكتاب الا تهمة الرومانيين عامة برفض قبول وظيفة الكهنوت التي كنت انت مشتاقا اليها والتي كانت سببا في سقوطك وترك مذهبك !

واذا كانت اطاعة الانسان لاخلاص قلبه وحرية ضميره لانه لا يستطيع قبول اوهام ومطامع وضلالات البابا الروماني يعتبر كافرا بايمانه فمن فكري انه من الخطأ المبين مع المشهور عن فطنة قداستكم وحذركم واحتياطكم ان تطاوعوا اشارة باروفيوس وتغتروا بتلك الحيلة الاسكندرانية وتتوهموا ان ذلك الوفد الاسكندري هو سفاره أو (١) وفد حقيقي

(١) قيل ان الوفد المذكور أرسل من مصر لمدينة رومة في عصر البطريرك غبريال الثامن

مع ان الحقيقة انه لم يكن الا خدعة رجل قبطي قد توجه لرومية واتخذ لنفسه صفة مندوب من قبل بطريرك الاسكندرية .

وقبل اكتشاف حيلته كان المتملقون الى كليمنث يكتبون ويخطبون بعجائب وغرائب هذا السفير ويخيلون للسامعين كأن الوقت قد حان حيث اصبحت الدنيا باجمعها في قبضة بابا رومية . ولكن عند تولية بولس واكتشاف الخدعة الزموا صاحبها ذلك العميد المدعي ان يهرب سرا من رومية لئلا تظهر حيلته علنا فتسوء العاقبة فهرب وكر راجعا الى مصر .. وكانت هذه الحادثة مثل الحادثة التاريخية التي ساقصها على قداستك بخصوص الاساقفة الروسيين لاني شاهدتها بنفسي حيث كنت نائبا عن بابوي الاسكندرية في بلاد بولاندا من اعمال روسيا . وكان مرافقا لي وزميلي قاصد بابوي في القسطنطينية وكان حاضرا معي بين كل الشعب الروسي في مجلس برزسك الذي كان مجتمعا ضد اولئك الاساقفة الروسيين الذين توجهوا الى رومية ... اخاف أن يكون ذلك ضياعا للوقت وضجرا على قداستكم لانكم لا تحتملون بالنسبة لمرضكم أن تسمعوا سرد حيل ومكر الرومانيين ومكائدهم .

لقد مضى عصر كنا فيه مفتونين مرتبكي العقل قبل أن نفهم المعنى الحقيقي لكلمة الله . ومع اننا لم نتداول ولم نتخابر ونتشارك مع بابا رومية ولم نصرح ولا نعتقد بما اتخذه لنفسه وهو تلقيبه نفسه رئيس الكنيسة مثلا . ومع ذلك فاننا نصدق ان قواعد وعقائد الاعتراف الروماني هي

حقيقية ما عدا في بعض مواضيع في اوقات قليلة قد تختلف فيها الكنيسة اليونانية عن الكنيسة اللاتينية . ولقد بغضنا مبداء وقانون اصلاح الكنائس المغاير لايماننا . والحقيقة التي لا ريب فيه اننا لم نعرف ما هو الذى بغضناه ولكن لما اراد الرب الرحيم أن ينورنا ويفهمنا غلطنا الاول ابتدأنا نتصور ونتأمل انه كان من الواجب علينا قبول الاصلاح . وكما انه من الواجب على الوطنى الحر أن يحامي ويدافع عن الحق اذا قام شغب أو فتنة في البلاد . فهكذا انا اكثر من ذلك افتكر انه من الواجب على كل مسيحي حقيقي أن لا يوارب أو يتصنع الرياً في المواضيع التي تختص بخلاص النفس بل عليه أن يعتنق بكل صداقة وصفاء نية أن المذهب الموافق لكلمة الله . فما الواجب علي اذا ان اعمله تحقيقيا لمبدائي

لما كنت قد تحصلت بواسطة محبة الاخوان على بعض كتابات من علماء الدين المسيحي التي لا يمكن أن يجدها الشرق مطلقا . قداستمديت بواسطة مساعدة الروح القدس وتمكنت في مدة ثلاث سنوات من مقارنة مبادئ الكنيستين اليونانية واللاتينية مع المبادئ التي تم فيها الاصلاح(١) وذلك باني تركت الوالدين وارشاد الآباء الروحانيين واتخذت لي مرشدا الكتاب المقدس ونسبة وقياس الايمان فقط . حتى امكنني اخيرا بنعمة الله أن اكتسب حقيقة راهنة وهو أن مبدأ الاصلاحيين هو الاكثر موافقة للحق والاكثر انطباقاً على مبداء المسيح فاعتنقته .

(١) يعنى بها الكنيسة الانكليزية

ومن ثم صرت لا يمكني أن اتحمل بأن اسمع تفاسير وتأويلات التقاليد التي وضعها بني البشر تلائم وتوازي قوة الكتاب المقدس . لانه من المستحيل أن تقدر نعبر عن مقدار فساد وضرر عبادة الصور والايقونات في مثل الظروف الحاضره . والله شاهد علي بأني اندب متأسفا على حالة الشرق الحاضره وارثي لها لعدم تمكني من اتخاذ الوسائط اللازمة التي يمكن بها شفاء ذلك الجرح القبيح المخجل . واني لا افتكر ولا أظن بان الايقونات لا بد من محوها والقضاء عليها فانها ما دامت لا تعبد ولا يسجد لها الشعب فانها لا تسبب ضررا . ولكني امقت واشمئز من عبادة الاوثان التي يأتيها اولئك العابدين العميان ولو اني لاحظت في بعض الاحيان اثناء صلواتي الخصوصية لله أن الصليب قد يؤثر ويساعد عقلي ويصور امامه سريعا قوة وشكل الآلام التي قاساها المسيح على ذلك الرسم الخشبي الذي هو عبارة خطين مستقيمين متقاطعين ولكني ارى العوام — لا أقول العقلاء ذوي الافكار الصائبة — قد حادوا عن العبادة الروحية الحقيقية والتوحيد الواجب ادآهما لله وحده فقط . وعندي أنه من الافضل أن الناس جميعا يمتنعوا ويكفوا عن خطية عظيمة مهلكة كهذه عوضا عن أن يسيروا بالخياء والمخالفة لناموس الرب لئلا يصدمون في صخرة الذنوب والاثام التى لا تغتفر ويقضون على ذواتهم بالهلاك الابدي

واما مسألة الاستغاثة بالقديسين وطلب الشفاعة منهم فانه مضى

زمن مديد من عمري قبل أن اشاهد القوم يكشفون مجد الرب يسوع المسيح فعارضت بشده ذلك المعتقد في كتابين الفتهما ضد تعاليم العالم ماركوس فوكسيا الذي هو من بلاد تراسيلفانيا . الذى الف ردا على كتابي. والان اطلب من الله أن يكون شاهدا علي عند ما اقول انه بدرس احوال الشعب المسيحي التابع للكنيستين اللاتينية واليونانية يصيبني الم داخلي شديد عند ما اسمع بامر استمداد الناس معونة القديسين في أغلب الظروف تاركين يسوع المسيح فيخسرون بذلك نفوسهم اه

وكان البطريرك كيرلس ميالا لمبادىء الكنيسة الانكليزية ولكن بتأثير صاحبه المسيو دي ولهلم عليه جعله يميل أيضا لتعاليم كالفنيوس واصبح في يأس من اصلاح كنيسته ورجع حالا عن عزمه وممارسته ذلك الاصلاح الذي كان قد شرع فيه وعزم عليه . ولاشك أن الشعب المتعبد لتلك الكنيسة اصبح يعتقد بان ذلك البطريرك هرطوقيا اجنبيا وقد ضاعت الامال والفرص في ايجاد حياة جديدة للكنيسة اليونانية في مصر .

ولم تكن الكنيسة القبطية أيضا في ذلك الحين اصلح حالا من الكنيسة اليونانية اذ ظهر فيها وقتئذ هرطقة جديدة بعد أن كانت تمارس فقط بطريقه غير منظوره . وقد انحطت آداب الاقباط المصريين كثيرا بسبب اختلاطهم الاجتماعي بالمسلمين فكان الاساقفة في اغلب الاحيان يرون انفسهم مضطرين لمقاومة امور التسري واتخاذ زوجات غير شرعيات

على طرق مختلفة . وفي أول ما ظهر هذا العيب الاجتماعي العظيم بين الاقباط قام أحد اساقفة دسياط واعلن على رؤوس الاشهاد بان تعدد الزوجات ليس محرما في العهد الجديد وان ممارسته واتباعه افضل من الزنا والسفاح واخذ يخطب بين الاقباط مصرحا لهم بأخذ اكثر من زوجة

ولما لاحظ البطريرك مرقس الخامس ان هذا الاسقف تمادي في غيه ولم يوبخه ضميره اصدر امرا بحرومه ولو كان هذا الاسقف عند رأى نفسه قد اصبح مشلوحا احتج احتجاجا بسيطا على هذا الحكم واجتهد بالدفاع عن نفسه بابداء ارائه التي تعزز مبدأه الذي يخطب به بين قومه فانه كان يمكن اعتباره صالحا حقيقيا وان ضميره يبطن الاخلاص لقومه ولو انه غلطانا غلطا فاضحا في الواسطه التي اتخذها لتنفيذ الغاية الصالحه التي يضمرها وكانت الغايه تبرر الواسطه . ولكنه اتخذ مسلكا مقابل ذلك الحكم حرم نفسه به من التمتع باستمالة عقل البطريرك لقبول مبادئه وارائه ذلك انه اتي البيت من غير بابه واستعمل تفرده مع نفوذ بعض الاقباط الذين يشغلون مراكز سامية في الحكومه لينتقم من البطريرك فرفعوا الامر الى الحاكم المسلم وهو جعفر باشا الذي فرح لهذا الامر واتخذه فرصة سانحة يذل بها الاقباط . فدعي البطريرك مرقس امامه وامر بضربه ضربا شديدا مؤلما حتى توفى بعد قليل من تأثير ذلك العذاب .

وعلاوة على احوال البؤس والتعاسة التي وصلت حالة مصر اليها في ذلك الحين زارها ايضا الطاعون واشتدت وطأته بينها فصار يحصد السكان

بالعشرات في شتاء تلك السنه وقد هرب من البلاد بين الهاربين المسيودي ولما وقبل مفارقته مصر اهدي كيراس بطريرك اليونان كرثان برسم الارض بصفة تذكار ولما مات مرقص اصبحت الكنيسة القبطيه بلا رئيس . اما كيرلس فانه لم يهرب من البلاد فأنه يتصرف فيها لكي يفقد بقية سلطته على كنيسته في هذه الظروف . وقد حسبوا ان الذين ماتوا بالطاعون لغاية ربيع تلك السنة وهي سنة ١٦١٦ اربعماية الف نفس ماعدا الذين في زوايا المدينة وقال أيضا ان كل شوارع تلك المدينة المتسعة الانحاء كانت ملآى بجثث الموتى بحيث يتخيل للناظر أنه لم يبق احد حيا وقال ذلك البطريرك عن نفسه أني ظليت حابسا نفسي في منزلي في وسط ذلك الخطر العظيم وكنت اعطي الاوامر من النافذة لرجال الكنيسة فيما يختص بترحيل جثث الموتى من المسيحيين وبنعمة الرب أني حي للآن . وقال شمس الدين أنه عمل أحصاء عن الذين ماتوا بالطاعون من أصحاب الدكاكين والجالسين في الاسواق فبلغ نحو سبعماية خمسة وثلاثين ألف نفس ماعدا الذين ماتوا في المحلات الاخرى .

وفي أثناء ذلك انتخب الاقباط بطريركا جديدا لهم وهو يوحنا الخامس عشر الملقب بالملواني فحكم الكنيسة تسعة سنوات ولا نعلم شيئا عن أعماله في خلال هذه المدة .

ثم خلع في ذلك الوقت جعفر باشا الذي عذب البطريرك السابق حتى الموت وتولى بعده مصطفى باشا وذلك بعد زوال الطاعون بسنة واحدة فكان هذا الوالي ظالما عابثا وكانت فاتحة أعماله أنه قبض على مصطفى بك

البتلجي زعيم الثورة التي نشأت أيام مصطفى باشا الفظي وأعدمه فاراح منه الناس . ثم أضطهد التجار أضطهادا عنيفا وانتشر ظلمه فشكاه الناس الى السلطان فعزله وولى بدله حسين باشا فابطل كل الضرائب الظالمة التي كان قد فرضها سلفه على التجار والناس بلا حق . وفي أيامه أرتفع النيل أرتفاعا عظيما فوق العاده وطغي على الارض فسبب اضرارا جسيمة للبلاد بدل النفع الذي كانوا ينتظرونه بعد الطاعون . فيئس الناس وأصبحوا في ضيق عظيم وعقب ذلك مجاعة عظيمة ولكنها لم تكن شديدة الوطأة . ثم عزل حسين باشا واستقدم الى الاستانه وقبل وصول حسين باشا الى الاستانه كان قد خلع السلطان عثمان الثاني يوم الخميس في ٨ رجب سنة ١٠٣١هـ الموافق ١٦٢١ مسيحية وبويع مصطفى الاول الذي كان سلطان قبله . فوصل حسين باشا مسرورا وتقرب من السلطان الجديد وقوي حزبه فتعين صدرا اعظم

وكان السلطان الثاني قد ارسل قبل عزله محمد باشا واليا على مصر بدل حسين باشا المعزول فنفر منه المصريون خوفا من ان يأتي معهم ما كان يأتيه من الاستبداد مذ كان واليا في الرومالي ولكنه لحسن حظ المصريين اسرع حسين باشا الصدر الاعظم وعزله بامر السلطان بعد توليته على مصر بشهرين ونصف وولى بدله ابراهيم باشا الذي بقي واليا على مصر مدة سنه حاز في اثنائها ثقة المصريين به ولكن حدث في ايامه غلاء شديد في المأكولات . ثم عزل ابراهيم باشا ولما جاء الامر بالعزل سافر الى

الاسكندريه بطريق النيل بخلاف عادة الولاة المعزولين الذين كانوا يسافرون برا . وتولى مكانه مصطفى باشا في ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ هـ فابلغه كتبة الديوان ان ابراهيم باشا اخذ مبلغا عظيما من خزينة الحكومه فارسل وراءه بعض الجاويشيه والجنود فادركوه على النيل في منتصف الطريق الى الاسكندريه فهددهم بالقتل ان لم يتركوه فخافوا على انفسهم وعادوا الى القاهره بخفي حنين فارسل الوالي ثانيا صالح بك بشرذمه من الجنود فادركه وقد نزل البحر من الاسكندرية فامره بالنزول الى البر ثانيا وبارجاع الاموال التي معه فقال له انه متوجه الى الاستانة وأن كان عليه ديون يدفعها للسلطان نفسه هناك ثم نشر شراع سفينته فاطلق عليه صالح بك المدافع من طابية مغارة الاسكندرية فلم يبال بها ولما وصل الى الاستانة وجد السلطان مصطفى الاول قد خلع وتولى مكانه السلطان مراد الرابع بن احمد فلم يتعرض أحد لقضية ابراهيم باشا وفاز بامنية من الاموال المصرية

وفي سنة ١٦٢١ مسيحيه أي في المده التي بين حكم السلطان مصطفى الاول للمره الثانية والسلطان مصطفى الرابع كان قد نفض البطريرك اليوناني كيرلس لوقار غبار مصر من قدميه وارتقى بطريركا للقسطنطنية واخلفه على كرسي الاسكندريه البطريرك حراسموس وكان هذا أيضاً من أهالي كريت مثل البطريرك كيرلس ولكنه انضم بثبات الى الكنيسة الشرقية ولم يكن ملأ لتعاليم كلفنيوس . ولما وصل كيرلس الى القسطنطنية انهمك في مشاحنات ومجادلات شديدة مع اليسوعيين الذين كانوا

يشتغلون باجتهاد عظيم في اغراء اعضاء كنيسته في تلك المدينة العظمى على الانضمام الى المذهب الكاثوليكي فاصدر دسقلية كهنوتية نبه فيها ابناء كنيسته المؤمنين بالرجوع الى حضن كنيستهم وعدم الاعتراف بانضمامهم للكنيسة اللاتينية . ولكنه اخطأ بعدم احتراسه من قوة عدوه واستهانته بها فعزم اليسوعيون على اتخاذ كل الوسائط لعزله وقدموا رشوة للوزير المسلم في السلطنه العثمانية وطلبوا منه أن ينفي كيرلس هذا لجزيرة رودس لاسباب يلفقونها له حسب رواية المؤرخ (كريسولولوس) وانتخبوا بطريركا بدله مطران ادرنة بوسائط غير قانونية وبغير استحقاق . فادى ذلك الى خلاف شخصي بين البابا وملك انكلترا فكتب البابا اوربان الثامن يشكر ويهني السفير الفرنساوي في القسطنطينية بنجاح اليسوعيين في سياستهم وكتب جامز الاول ملك انكلترا الى السفير الانكليزي يأمره باجراء اللازم نحو ارجاع كيرلس لوكار الى مركزه مهما كلفه ذلك من المساعي والمصاريف . فاشتغل الخصمان كل من ناحية ضد الآخر وانتهى الفوز اخيراً لسفير انكلترا فرجع كيرلس لوكار لمركزه كما كان . ولما لم يعد في وسع اليسوعيين احتمال خذلانهم أستمروا في مشاجراتهم وكانت نتيجة تلك المشاجرة فوز احد الفريقين الذي كانت رشوته اهم من الآخر . ويمكن قرأة ذلك التاريخ المحزن بتفصيل وايضاح اكبر في كتاب نيبل المؤرخ الفرنساوي المشهور ولكننا نلخص نتيجة هذا الموضوع هنا فنقول . انه من عهد ما انقطعت علاقة كيرلس بمصر بعد أن نقل

من بطريركيتها في نوفمبر سنة ١٦٢١ مسيحية كان اليونان واليسوعيون يتسابقون في بذل الاموال بصفة رشوة للحكام المسلمين الذين راوًا في ذلك فرصة عظيمة لنفعهم وبابًا مهما يدر عليهم رزقًا جميلا سنويا

ولما يئس اليسوعيون من مسابقة اليونان عزموا على بذل جهدهم مع الحكام المسلمين ليس للحصول على امنية تمني كيرلس فقط بل على موته — وقد تم لهم ما تمنوا وقتل المسلمون كيرلس في قارب صغير غدرا وابتعدوا به عن اليابسة في وسط الماء لئلا تبذل المساعي في انقاذه من الموت

أما تلميذه متروفانس الذي صرف عليه رئيس اساقفه كنتر بري مدة خمس سنوات للتعليم في جامعة أوكسفورد فانه لم يخرج من هذه الجامعة العظيمة بانكلترا متحصلا على الشهادة العلمية اللاهوتية التي كانوا ينتظرونها ويتضح لك ذلك باجلى بيان من كتاب رئيس الاساقفة الاتي :

كريشوبولوس متروفانس اليوناني قد اتجه في سفره قريبا من هنا قاصدًا فرنسا أو هولاندا وقال انه سيقوم من هناك برا الى القسطنطينيه. واقول اني ربيته مدة خمس سنوات في جامعة اوكسفورد العظيمة بانكلترا وكنت اصرف عليه بسخاء في المأكل والملابس والكتب وباقي لوازم المعيشة . حتى بلغ مقدار ما صرفته عليه منذ مجيئه الى انكلترا حتى قيامه منها نحو الثلاثماية جنيه انكليزي وكان منشرحا دائمًا مدة وجوده في تلك الجامعة . وفي عيد مار ميخائيل الماضي ارسلته الى لامبث واعطيت التعليمات

اللازمة لركوبه في مركب جيد واوصيت بتسهيل كل وسائط الراحة له في الطريق . ولكن قد اشار عليه بعضهم اشارة ليست في محلها وهي أن يذهب الى مركز الحكومة في نيو ماركت ليقابل الملك قبل سفره من بلاده فتوجه وقابله جلالة الملك بيشاشة . ولكن لاح له أن يطلب مكافأة مالية من الملك ليتمكن من مشترى بعض كتب مهمة يحمله معها الى بطريركه . والوسائط التي عمد الى اتخاذها لنوال غرضه الذي يصعب على الانسان تصديقه هو . أن يعمل له اولا نيشان نيت (وهو لقب من القاب الشرف) . ثم لقب بارونت وبعد ئذ يتخذ الوسائط اللازمة لكي يمنحه الملك امتياز الترشح لنوال راتب كليريكي كبير وقد وعده بعض الكاذبين الذين يشترون وظائف الكنيسة بالدراهم أن يشتري منه هذين الامتيازين بمبلغ وافر من المال . فارسلت له قسيس كنيستي لاقناعه بالعدول عن مثل هذه السفاسف . واستعملت معه طرق التوبيخ والتأنيب لاني اعتقد أن هذه التصرفات لا تليق برجال الدين

ومع كل ذلك اشتريت له بعض كتب مهمة تأليف اعظم المؤلفين اليونان ومن ضمنها مؤلف كريسوستوم وهو ثمانية اجزاء واعطيته ايضا كتبا اخرى لاتينية وانكليزية تستحق الاعتبار اعتقد انها هدية تليق أن تهدى مني الى سيادة بطريرك القسطنطينية . وبعد عيد مار ميخائيل الماضي اسكنته في منزلي واجلسته على مائدتي وكسوته بافخر الملابس وخولته كل وسائط الراحة وكنت اريد أن ارجعه معززًا محترما الى اوكسفورد.

ولكنه بالاسف الف حول بعض اليونانيين المتشردين والدجالين الذين تعينا معهم كثيرا ومع كل فلم يمكني الحجر عليه داخل حظيرتي بل تركته في صحبتهم فصرف وقته ودراهمه هباً منثورا

كتب لي كتابا على شكل رسالة قال لي فيها انه يفضل أن يفقد كتبه ويسجن ويضحي حياته من أن يرجع الى وطنه وانه يرغب أن يعرف كل حقائق الديانة المسيحية . فاستنتجت من ذلك انه اصبح شحاذا ومتسولا شقيا فاعطيته عشرة جنيهات في حقيبته وقبل قيامي للسفر الى مدينة كرويدون باسبوعين طردته من حضرتي ولكني اوصيت السير پول پيندرز بالاعتناء به ولقد سمعت قبلا عن سفالة ذلك الشخص فصرت غير قادر على التصديق بان انسان كهذا نال نصيبا من التعليم والتربيه يمكن أن يصبح بعد سنين كثيرة مجرداً من الذكاء والعقل وكل مزية حسنة من مزايا الانسانية . ولكن قد نال نصيبه وتعلمت بسببه أن لا اعامل احداً معاملة حسنة يكون من الذين على شاكلته

ولقد جئت بهذا موجزا ابلغكم عن سوء سلوك ذلك الشخص .

ولو اني اعد ذلك تصرفاً معيباً ومنافيا للادب ولكن اكراما لخاطر البطريرك فاني لست متذمرا ولا حاقدا عليه

تحريرا بمدينة كرويدون في ١٢ اغسطس سنة ١٦٢٢

ومع كل ذلك فانه لما رجع متروفانس الى القسطنطينية سنة ١٦٢٦ قابله كيرلس البطريرك بكل ترحاب بعد أن سمع عنه ما تقدم وبعد أن

اقنعه متروفانس ببراهين جلية عن اسباب تأخره اربع سنوات في طريقه من انكلترا الى القسطنطينية

وبعد ذلك بعشر سنوات لما رجع جراسيموس الى الدير وترك مركزه في الاسكندرية عين متروفانس بدله بطريركا لليونان في كرسي الاسكندرية ولكن لم يلبث في وظيفته اكثر من سنتين فقط

وفي خلال النصف الاول من ذلك القرن ارسل بابا روميه وفدا كاثوليكيا الى الحبشة فاحدث رجال ذلك الوفد القلاقل الدينية ثانيا في تلك البلاد حتى اوقعها في اهوال ومصائب الحرب الاهلية والذي امكنهم التأثير عليه وادخاله للمذهب الكاثوليكي هو الملك فقط وقد الزموه أن يعترف بالمذهب الكاثوليكي الروماني رسميا حتى ساعة موته . أما الاهالي الاحباش فحملوا السلاح في وجه ملكهم وقاموا يدافعون عن معتقد كنيستهم الاصلية الوطنية ودام الحرب على اشده بين الملك والشعب مدة ست سنوات متوالية وبعد ذلك مات الملك واخلفه ابنه على العرش وفي الحال امر باضطهاد شيعة البابا واعاد المعتقد الاصلي وارسل الى بطريرك الاقباط في مصر ليرسل له مطرانا . وسمح بعدئذ للمرسلين الرومانيين أن يقيموا في البلاد على شرط أن لا يتعرضوا لمعتقد اهلها ولكنه لما عرف بعدئذ انهم ساعون في استحضار الجيوش البرتوغالية ليؤسسوا المذهب الكاثوليكي في البلاد بقوة السيف امر هم الملك فاسيليداس بكل ثبات وتعقل أن يبارحوا بلاده . فعوضا عن أن يطيعوا امره

عمدوا الى الحيل فاتفقوا مع احد نبلاء الاحباش الذي كان عاصياً وقائما في وجه سلطانه ولكنه بعد أن اتحد معهم باعهم كالعبيد الى الاتراك الذين يجوبون البلاد فقدم رئيسهم مبلغا من المال فدية عن نفسه للاتراك اما الباقون فقد عفى عنهم الملك فاسيليداس وخلصهم من ايدي الاتراك ولكنهم وقعوا فريسة في مخالب رعاع الاحباش الذين كانوا ناقمين عليهم ومن ثم صرح فاسيليداس بدخول المرسلين الكاثوليك فحضر تسعة من صعاليك الرهبان الفرنسيسكان واجتهدوا في نشر مذهبهم فقتلهم الاحباش وراحوا ضحية غيرتهم على مذهبهم

وبسبب ذلك لم تهداء الحبشة من حروبها الداخلية مدة قرن من الزمن . وهكذا كانت مساعي باباوات روميا الدائمة التي كانوا يبذلونها لبسط سلطتهم الدينية على ذلك الشعب الحبشي تذهب سدى مع بساطة هذا الشعب وجهله

وبعد تولية مصطفى باشا على مصر بثلاثة اشهر عزل وتولى مكانه علي باشا فطلب منه رجال الجيش أن يعطيهم المكافئات التي تصرف عند تولية كل وال جديد وهي عادة متبعة في الجيش العثماني من قديم الزمان فامتنع بحجة انه لم تمض مدة على الوالي السابق فاصروا على طلبهم وقام جدال بينه وبينهم فاتحدوا جميعا على اعادة مصطفى باشا ثانيا . فاستكتب مصطفى باشا المعزول لما رأى حزب الجيش معه علماء ومشايخ القاهرة شهادة بتثبينه وبعثها للسلطان . وتشاجر الاهالي والجند مع علي باشا في

الاسكندرية فقاموا عليه وطردوه في قارب من مينا الاسكندرية الى الاستانه .

وفي ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٣ هـ وصلت حمامه الى القاهرة وفي عنقها كتاب ينبيء بوصول مندوب من الاستانه بامر سلطاني وبعد ايام وصل وجمع السناجق وكبار الحكومة والامراء والبس مصطفى باشا خلعة مرسلة له من السلطان واعاده للسلطه ثانيا بموجب فرمان سلطاني

وفي السنة التالية زاد النيل حتى بلغ ٢٤ ذراعا فخاف الناس من الغرق لكنه عاد فهبط بسرعة . وفي اوائل ربيع اول سنة ١٠٣٥ انتشر طاعون فتاك في مصر واخذ يتناقص في شهر شعبان من تلك السنة وانقضى في اوائل رمضان ومات بسببه ٣٠٠٠٠٠ نسمة فاغتنم مصطفى باشا فرصة موت الناس واخذ يختلس اموالهم فاقام نفسه وارثا لكل من مات من الاغنياء فشكاه الورثه الاصليون للاستانه فعزله الباب العالي وولى مكانه بيرم باشا فلما اتى مصر الزم مصطفى باشا بدفع الاموال التي اختلسها فباع كل ما يمتلكه وسددها وعاد للاستانه سنة ١٠٣٧ هـ فحكم عليه بالاعدام .

وكان عزل وتولية الباشوات بارادة الجيش والامراء بمصر مخالف للنظام الذي وضعه السلطان سليم الفاتح وكانت موافقة الباب العالي لطلبهم سببا في حصول تحوير في القواعد الاساسية التي وضعها ذلك السلطان

وكان بيرم باشا محبا للعلم وجمع الاموال ولم يتمرد الجند في ايامه

بل ارتاحت مصر من المشاغب

وبعد ئذ دعاه الباب العالي وعينه وزيرا للمره الثالثة وتولي بعده الوزير محمد باشا فساس البلاد بحكمة وكان محبا للعزلة والانفراد ولما سمع بثورات قبائل البدو في اليمن تعهد للسلطان باخضاعها فصرح له السلطان بذلك فعين قنسويك امير الحج المصري قائدا للجيش الذي اعده لذلك ويبلغ عدده نحو ٣٠ الف مقاتل ولكن بعد أن قبض قنسويك اموال الحملة توقف عن السفر وترك الجيش ينهب الناس ويقطع الطرق وكان من ضمن فرق الجيش فرقه من الروملي قائدها جعفر اغا فاخمد الثوره والزم قنسويك بالسير الى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ هـ فسار اليها وانتصر في الحرب . وفي ١٩ شعبان اغرق القسم الاعظم من مكه تيار ماء فهدم جميع بناء الكعبه ولم يبق الا جدرانها الايمن فابلغ محمد باشا الخبر الى السلطان فامر بترميمها

وفي سنة ١٠٤٠ هـ لم يبلغ النيل في شهر توت الا ١٦ ذراعا فامر محمد باشا بفتح الخليج لري الاراضي ثم استدعاه السلطان للاستانه وعينه وزيراً في الديوان الشاهاني مكافأة له على حسن ادارته . وتولى بدله على مصر الوزير موسى باشا فوثق الاهالي به لكنه اضاع هذه الثقة بعد ئذ لانه بوصوله الى مصر اخذ في الاختلاس والاستبداد فقتل اكبر رجال مصر بغير حق لمصادرة ثروتهم

وفي شهر شعبان من تلك السنة امره السلطان بتجهيز حملة لمحاربة

الفرس فجمع ضرائب فاحشة من المصريين باسم اعانة حربية ثم اوعز الى قيطاس بك قائد الحملة بان يدعي أن مصر لا تسمح ماليتها بنفقات هذه الحملة فنصحه قيطاس باتباع الاستقامة فلم يعتبر موسى باشا بقوله بل خاف منه لاطلاعه على تصرفاته المقوته فاستدعاه في القلعة في عيد الاضحى يوم الاربع ٩ الحجة وامر اربعين رجلا بقتله فقتلوه . فابلغ الاميران كنعان بك وعلي بك الخبر للجاويش والسناجق والامراء والقضاة فاجتمعوا في جامع السلطان حسن واقروا على خلع موسى باشا وعينوا بدله موقتا حسن بك ثم كتبوا للسلطان بما كان وطلبوا بصوت واحد خلع موسى باشا فاجاب طلبهم وولى عليهم خليل باشا في ربيع اول سنة ١٠٤١

وهكذا فانه في مدة حكم السلطان مراد الرابع (من سنة ١٦٢٣ مسيحية لسنة ١٦٤٠ حكم مصر باسمه ثمانية باشوات كانوا يضربون جميعهم على نغمة واحدة في استعمال السلب والقتل والنهب واحداث النوارت ولكن احسن هؤلاء الولاة جميعا خليل باشا واردأهم سيرة حسين باشا كما سيجيء . اما خليل باشا فانه عند وصوله الى مصر لم يجمع من اموال الضرائب القانونية ووضع حداً لتمرد الجنود وحسن حالهم . وضيق الخناق على قاطعي الطرق والسالبين الذين يوقعون البلاد في اخطار مختلفة . وفي مقابل ذلك صدرت ارادة السلطان بعزله قبل مضي سنتين على حكمه بعد مصادرة املاكه ونفيه ولم يسمح له السلطان الا باثنين من عبيده يرافقانه في منفاه وكان حسين باشا عند مجيئه الى

مصر قد استحضر معه عدداً عظيما من الدروز فاطلق لهم الحرية في البلاد فعاثوا فيها فساداً واوجدوا الرعب والفزع في قلوب الاهالي وليس من يردعهم ولم يكن وقتئذ في البلاد قانون يعامل به المجرمون أو مقترفو الاثام بل أن ارادة الباشا الوالي هي التي كانت نافذة بلا مسؤلية . وعلاوه على كل ما تقدم من مظالم حسين باشا فانه كان يصادر التجارة ويربك سوقها ويزيف الصكوكات وفي مدة حكمه (سنتين) في مصر تسبب في اعدام ١٢٠٠٠ نفس بلا محاكمة (هذا عدا الذين قتلوا بيده شخصياً) . وتولى مصر بعده باشا آخر كان ظالما مكث في مصر ثلاث سنوات كرس نفسه في خلالها لمعاكسة التجارة المصرية وفرض ضريبة فادحة على نساجي الحرير فخرب معاملهم وامات صناعتهم وكان يوجد في ذلك الوقت نحو سبعة عشر الفا من نساجي الحرير في ثلاث مدن فقط وهي القاهرة وامبابة والجيزه واغلب هولاء النساجين كانوا اقباط (١)

(١) ذكر شمس الدين المؤرخ في الفصل الثاني عشر والثالث عشر من مؤلفه ما يلذ ذكره عن الصنائع والمحصولات المصرية في ذلك الحين ـ

ان حدائق البلسم المصرية الفائقة الشهرة قد محيت آثارها الآن ـ وان البلسم الذي كان يستعمله الاطباء والكيماويون صار يجلب من الحجاز وأعدمت صناعة الاقمشة الكتانية والقطنية الجميله التي كانت تعمل في اسيوط ولكنه كان لم يزل يصنع منها مقدار عظيم في مدينة الفيوم . أما الانواع والاشكال البديعة منها ومن اصناف التطريز فكانت تصنع في مدينة اخميم . وابطل زراعة الكروم في بعض الاقاليم . ومع ذلك فان بلاد مصر كانت ولم تزل مشهورة بعسلها

وفي ذلك الحين توفى البطريرك الخامس عشر انبا يوحنا وأخلفه على الكرسي الرقسي البطريرك متى الثالث وفي اثنا ذلك قد تغير البطريرك اليوناني مرتين اذ اخلف جراسيموس متروفانس الذي تعلم في انكلترا ثم توفى هذا سنة ١٦٣٨ مسيحية واخلفه بطريركا يدعى نيسفورس

وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ توفي السلطان مراد الرابع. فتنفس المصريون الصعداء وظنوا انهم يتخلصون من استبداد واليهم محمد باشا. ولكن لما بويع السلطان ابراهيم بن احمد اخو السلطان مراد الرابع استبدل محمد باشا والي مصر ثم أمر باعادته ثانيا فزاد ظلما وفتكا بالناس ولم يبق ولم يذر ثم استبدله السلطان بمصطفى باشا البستانجي وهو اول وال في عهد

وقال شمس الدين ان الضرائب المصرية التي ضربت على البلاد سنة ١٠٣٥ هـ (١٦٢٥ مسيحية) بلغت نحو ثمانية عشر الف دينار وكان يرسل من هذا المبلغ فقط ستة الاف دينار جزية للقسطنطنية والباقي يحفظ في خزينة الحكومة المصرية للصرف منه على مكة والمدينه والجيوش وهذا المبلغ العظيم الذي يوخذ من سكان البلاد سنويا بخلاف الدخل الخصوصي الذي يأخذه بلير مكة مصر (أي والي مصر) لنفسه

وقال شمس الدين مما يجب ملاحظته هنا ان مصاريف الاشغال العموميه الاصلاحات والتنظيمات أو أي شيء يختص براحة الاهالى العمومية كانت خارجة عن هذا المبلغ . وهذا يدل على ان سكان مصر كانوا في حالة البوس والشقاء تحت احكام ولاة الدوله العليه لان كل ما يتحصل من الضرائب المحصولات يحبس اغلبه في خزائنهم الخصوصية

السلطان ابراهيم . فاستمرت المظالم ايضا على عهده لانه ترك الاحكام بيد كاتبه المستبد . فازدادت احوال السلب والنهب الى درجة عظيمة حتى اصبحت المدن مهجورة من الاهالي خوفا من اللصوص لانه بالكاد ما كانت تمر ليلة دون حصول حادثتي سرقة او سطو في القاهرة نفسها. واذا اتفق القبض على احد اللصوص واوتي به الى رئيس الضابطة يعطى اللص بعض ما سرقه بصفة بقشيش لهذا الرئيس فلا تغيب الشمس عليه وهو في السجن وهكذا كان الحال مع حكام الاقاليم فتواردت الشكاوي للباشا الذي لم يكن يتداخل في الاحكام مطلقا فامر بعزل رئيس الضابطة وعين بدله كنعان بك فسجن عدداً كبيرا من اللصوص ثم تجرأ ذلك الكاتب على بيع الحبوب التي في مخازن الحكومة واخذ ثمنها فتمرد رجالى الجيش فرفت الباشا ذلك الكاتب بالرغم عنه ولكن اعاده ثانيا بتعضيد اعزبه

ثم استقال مصطفى باشا وتولى بدله الوزير مقصود باشا الذي كان واليا لاباريكر فقبض على ذلك الكاتب العاتي والكخيا وجلدهما واجبرهما على ارجاع مايتي كيس من النقود لخزينة الحكومة ومن عهد ان فتح العثمانيون الديار المصرية والطاعون يزورها على التوالي بلا انقطاع بحالة شديدة(١) ففي ايام مقصود باشا قاست مصر عذابا اليما من الطاعون

(١) يمكن ان يعبر عن الطاعون المصري بأنه (حمى الجوع) لانه دائما ينتشر في البلاد بعد حصول مجاعة فيها أو بعد طول زمن الغلاء وقلة المحصول ومما يجب ملاحظته انه قلما كان يهلك به في ذلك الحين أجد من الاغنياء والذين يغذون أجسامهم جيدا

الذى فتكه كان اشد وطأة من الطاعون الذي تفشى في ايام علي باشا وجعفر باشا . فظهر اولا في اوائل شعبان سنة ١٠٥٢ هـ (نوفمبر ١٦٤٢ مسيحية) في بولاق وبعد ذلك بشهرين ظهر في القاهرة واستمر على اشده يفتك بالشيوخ والشبان والاولاد من ابتداء ذي القعدة سنة ١٠٥٢ هـ لغاية صفر سنة ١٠٥٣ هـ (مايو سنة ١٦٤٢م) ثم اخذ يتناقص شيئا فشيئا وقد اهلك سكان نحو مائة وثلاثين بلدا في الديار المصرية عن آخرهم . وقال شمس الدين المؤرخ ان الجثث كانت تنقل بالعشرات مرة واحدة ويمر في الشارع الواحد ثلاثين واربعين جنازة كل ساعة او اقل من ساعة وقال انه في بحر الثلاث شهور دفن نحو ثمانماية الف جثة في القاهرة وحدها وكانت الموتى تدفن دون الصلاة عليها في المساجد والكنائس ولكن لو فرضنا ان شمس الدين كان يقصد بقوله في مصر فقط اعني الدائرة التى يدخل فيها بابيلون والفسطاط ومصر والقاهرة فانه ايضا عدد عظيم وفيه مبالغة كبيرة لان كل سكان هذه الاحياء في الوقت الحاضر اقل من ستماية الف نفس

فلما رأى مقصود باشا ما الم بمصر من الخراب بذل جهده في اصلاح هذا الحال فالغى الضرائب الغير قانونية واعطى حقوق الوراثة لاصحابها الشرعيين مع دفع شيء من الشركة للحكومة وضرب على ايدي اللصوص بيد من حديد فاطمأنت قلوب الناس وبالنسبة للشدائد العظيمه والمصائب والنكبات العديده التي حلت بالبلاد في خلال الستين سنة الماضية ساق

سوء الحظ عدد عظيم من المصريين وجلهم من المسيحيين الاقباط الذين كانوا دائما اتعس من الجميع اذوقوا اسرى في ايدي الحكومة وكان عدد عظيم من الاسرى والارقاء المسيحيين دائما يساقون الى الحروب التي يقيمها السلاطين. فيشتغلون في الاشغال الشاقة التي توجدها الحكومة. وبينما كان مقصود باشا مضطرداً خطة الاصلاح اعترضه وقوع ثورة عظيمة. ففي يناير سنة ١٦٤٤ مسيحية الموافق ٢٠ ذي القعدة سنة ١٠٥٣ هـ بينما كان هولاء الاسرى يشتغلون في بناء المراكب في الاسكندرية اراد حاكم الاسكندرية انزال مركب جديدة ثم صفها الى الماء فدعى هولاء الاسرى وعددهم نحو ستماية نفس وامر برفع السلاسل الحديدية التي كانوا مكبلين بها لانه لا يمكن تسخيرهم في الاشغال وهم مكبلون بالحديد ثم امرهم بانزال هذه المركب في البحر فاتحد نحو ماية وخمسون منهم وفي الغالب انهم من الاوربيين وانقلبوا على رؤسائهم من المسلمين الذين لم يعد في وسعهم مقاومتهم وفتحوا باب الترسانه بالقوة وحملوا الاسلحة وخرجوا الى وسط مدينة الاسكندرية وطفقوا ينهبون ما يحتاجون اليه من الحوانيت والمخازن والبيوت ولما ملأوا جعبة مطامعهم عادوا الى الميناء واستولوا المراكب الراسية بها واقلعوا فيها دون أن يفقدوا رجلا واحدا منهم لانهم فعلوا كل ذلك والمسلمون في مساجدهم وقد هرب باقي الستماية اسير الى داخلية البلاد قبل أن يجتمع احد من رجال الحكومة لاتخاذ الاجرات اللازمة ضدهم . وكادت هذه الحادثة تؤدي الى انتقام المسلمين المقيمين في الديار المصرية لو لم

ينشغل بالهم ويتجه التفاتهم مع الحكومة لما هو اشد واعظم خطارة وهو سرعة تمرد جيوش الممالك بعد ذلك الحادث لان افراد هذه الجيوش كانوا قد خف عنهم الضغط اكثر من سنة ولكن كان تخفيف ذلك الضغط لاجل مسمى . ففي يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٤٥ تامر السناجق على عزل مقصود باشا لانه طلب منهم تسديد الثلث الاول المعتاد دفعه للخزينة عن الاقطاعات الحربيه وذلك رغبة في تشديد رواتب العساكر في شهر رمضان . فرفضوا ذلك وطلبوا عزل المأمورين من انصار فاجاب الباشا طلبهم فلم يقتنعوا بل اشتكوه لاستانه فسأله الباب العالي عن سبب عدم ابلاغ الحضرة الشاهانية بالثورة العسكرية في مصر فاجاب أن الحقيقة انها لم تكن ثورة بل هي اختلافات عادية فامره الباب العالي بمعاقبة المعتدين . فاراد الفتك بالامير ماماي بك والامير علي بك والامير شعبان بك الدفتردار فلم تسمح له الظروف بذلك

وفي ٢٢ ذي الحجة سنة ١٠٥٤ ورد فرمان بعزل مقصود باشا وتولية شعبان باشا موقتاً فازعن للامر ولم يسلمه الاحكام فاطلع السناجق الباب العالي على حقيقة ما حصل من مقصود باشا فانفذ اليهم ايوب باشا احد مأموري السرايات الشاهانية وكان رجلا مستقيما فسادت الراحة في ايامه . ثم استقال وتدروش وعكف على العبادة في احد معابد الروملي فتولى بدله الوزير محمد باشا بن حيدر مدة سنتين ونصف ولم يحسن الادارة فاربكت الاحوال

وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ ثار الانكشاريه في مصر وطلبوا قتل ذلك الوالي فخاف من هذا الزم واستشار قنسو بك فراعى قنسو بك صالحه الشخصي واشار على الوالي بكتابة تقرير سري الى السلطان ينسب فيه سبب الثورة واختلاس الخزينة الى رضوان بك وعلي بك وكان يقصد قنسو بك أن يتوصل بذلك الى الحلول محلهما مع صاحبه ماماي بك

فعلم رضوان بك بذلك وكتب تقريراً يناقض تقرير الوالى وقد وصل الى الاستانة قبله فورد الرد من الاستانة بتفريض رضوان بك وعلي بك للنظر في هذه القضية ووصل الوالي فرمان بذلك في ٢١ جماد اول سنة ١٠٥٧ هـ فامر رضوان بك بقتل قنسو بك وماماي بك في القلعة . ثم ظهرت دسائس مصطفى كخيا الملقب بالششنير لانه لم يتعين سنجاً بدل قنسو بك ثم اصدر الوالي امره لعلي بك بالرجوع الى حكومته بجرجا واراد أن يفتك بزميله رضوان بدسيسه في القلعه فابى حضور الوليمة التى اعدها له الباشا هناك فغضب عليه الباشا فخرج من القاهرة ومعه ٢٠٠ مقاتل واتحد مع علي بك بجرجا فارسل ورأهما الباشا نحو الفين من الجنود وخمسماية من الانكشاريه . ثم ما أمر الباب العالي بتثبيت رضوان بك وعلي بك في منصبيهما فاضطر الباشا الى استحضارهما للقاهرة واعاد اليها الرتب والنياشين وصالحهما مع مصطفى كخيا

وفي ٦ القعده سنة ١٠٥٧ هـ شاع في القاهرة خبر تولية الوزير مصطفى على مصر بدل محمد بن حيدر وفي ٢٦ منه وردت بالاخبار باعادة

محمد باشا ثانياً على مصر وفي ١٧ رجب سنة ١٠٥٨ هـ توفى السلطان ابراهيم وتولى مكانه السلطان محمد الرابع

وبلغت هذه الاخبار مصر في اوائل رمضان متضمنة عزل محمد باشا وتولية الوزير احمد باشا . فحدثت في ايامه فتنة اخرى من جيوش المماليك وهكذا كانت تتكرر الثورات سنة بعد أخرى مدة القرن السابع عشر . فكانوا دائماً يتملصون من اتباع القانون والنظام فيطوفون الشوارع سالبين ناهبين ويقع معظم الضرر من ذلك على الاقباط البؤساء المجردين من أي سلاح أو واسطة للدفاع عن انفسهم . وكانت الحكومة في ذلك الحين تضيق على الصنايع وتفرض عليها الضرائب والمكوس الفادحه حتى اندثرت . وكان البكوات العسكريون الحاكمين في الاقاليم يعيثون فساداً في تلك الاقاليم التي هي تحت ادارتهم ويأتون المظالم الفظيعة لايخافون مسئولية في افعالهم بالنظر لتوالي تغيير الباشوات من الولاة فكانوا لا يتمكنون من النظر اليهم لقصر مدة حكمهم وكان هؤلاء البكوات ادنياً النفس يتحينون تلك الفرص لسلب الاهالي ويبذلون جهدهم في ذلك ليتمتعوا بما يسلبونه بعد عزلهم من مناصبهم .

وفي سنة ١٦٥٠ مسيحية (١٠٦٠ هجرية) ازدادت القلاقل لان النيل كان واطئاً ولم يرتفع اكثر من ١٦ ذراعاً فلم يرو من أرض الصعيد الا ثلثها اما الوجه البحري فلم يرو شيء منه تقريبا فحدثت بسبب ذلك مجاعة فانتهز احمد باشا هذه الفرصة لزيادة الضرائب مع انه لم يكن يرسل

منها الى السلطان بصفة جزية سنوية الا الثلثين ويعتذر بقلة المتحصل منها في مصر . ولسوء نيته كان يرسل الاموال مع رضوان بك لحمل الباب العالي على الشك بامانته فيتغير خاطر السلطان عليه واتماما لمكيرته كان يكتب للسلطان يشكو من تصرفه ويطلب تجريده من امارة الحج وتقليدها لعلي بك الذي هو صديق رضوان ولكنه لم يعلم بدسائس الباشا التي كان غرضه منها ايقاع الضغائن بين الصديقين فيحل عرى اتحادهما لكنه لم يكد يتم مراده حتى وصله خبر عزله يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ . وكانت ذلك نتيجة دسيسة وقد زادت قوة اتحاد الاميرين وكان كل منهما يتنازل لصاحبه عن امارة الحج فاعجب بهما المصريون واحبوهما وبعد عزل الباشا حبس في القلعة فلم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ عظيمة وتولى مكانه الوزير عبد الرحمن باشا فسلك في خطوات سلفه في الدسائس فخلع في اول شوال سنة ١٠٦٢ وسجن وهين مثل سلفه وعين بدله محمد باشا في ٥ شوال من تلك السنة لكنه لم يدخل القاهرة الا في ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ

ونعود الآن فنقول انه في سنة ١٦٦٠ مسيحية الموافق ١٠٧١ للهجرة توفي بطريرك الاقباط وأخلفه البطريرك متى الرابع وفي عصر هذا البطريرك حضر مصر الراهب الدومينيكي ڤانسليب وهذا الرجل هو اول اجنبي أتى مصر منذ فتحها العرب وصادف متاعب عظيمة في سبيل الوقوف على حقيقة تاريخ الكنيسة القبطية المصرية معرفة تامة . وبصفته

من رجال ارسالية رومانيه فطبعا يكون من الصعب عليه أن يحصل على المعلومات اللازمة له بابه كيفية كانت عن الكنيسة القبطية وتكون تلك المعلومات قريبة على نوع ما من الحقيقة وكتابه الذي ألفه عن الكنيسة القبطية ليس هو قيمة عظيمة ولو انه يلذ القارئ باعتبار الظروف التي كتب فيها . ومن مطالعته يتضح انه قد سقط في الغلط الذي وقع فيه كل من يكتب عن الاقباط حيث قال انهم يجهلون لغتهم . ويعزز قوله بانه تناقش بهذه اللغة مع آخر واعظم واحد تكلم القبطية في اسيوط

واني اقول انه وان كانت هذه اللغة ميتة في ايامنا الحاضرة الا انها تشغل قسما عظيما من وقت التعليم لدى القبطي الحسن التربية كما أن اللاتيني او اليوناني مما يهم له المتعلم الانكليزي . وفضلا عن ذلك لا يمكني أن اعرف واثبت اذا كان يوجد عصر لا تمارس فيه هذه اللغة وتدرس بانتظام في المدارس القبطية كما هو مثبوت في هذه الايام

ولم يزل يوجد كتاب باللغة القبطية كتبه رجل قبطي من مدينة ممفيس حوالي منتصف القرن السابع عشر وهذا الرجل هو المشهور في التاريخ باسم ابو ذقن . ولو أني لا اعلم عن تاريخه الا القليل ولكن يظهر جليا أنه كان رجلا سامي الاداب والاخلاق ولذا اشتهر كتابه بمنتهى الرقة والاعتدال في اللهجة ولو أن الكتاب قاصر على ايضاح الاختلافات في الطقوس والقوانين الدينية بين الكنيسة القبطية المصرية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وقد قال في كتابه أن اعضاء الكنيسة القبطية

مشهورون في كل ممالك العالم بلقب ممتاز وهو (مسيحيو الخزام)

ولكن يظهر انه لا يعرف أن اصل هذا اللقب هو باسباب القوانين التي كان يسنها المسلمون القدماء على كل المسيحيين القاطنين بالديار المصرية وهو انهم كانوا يكلفونهم جبرا بان يلبسوا حزاما يشدونه على وسطهم ليكون ذلك علامة التحقير والخضوع

وقال في كتابه ان الاقباط الذين كانوا يخدمون عند الاسلام في مصر كانو دائما يتمتعون بالامان على انفسهم واموالهم واولادهم وبكل انواع التساهل وكانوا يعاملون تماما مثل اليونان والبابويين واثبت في كتابه ايضاحا مختصرا عن كيفية ادارة شؤون الكنيسة بواسطة البطريرك القبطي واساقفته وبعد ذلك دخل في ايضاح طقوسها ونظام خدمة الصلاة في الكنائس وقد فهمنا انه في عصر ابو ذقن كما في ايامنا الحاضرة تعد النعمة الالهية (المسحه بالدهن) احد الاسرار الدينية العظيمة وكذلك الاعتراف وقد صارا في الكنيسة القبطية في درجة عظيمة من سوء الاستعمال وان هذه الفرائض لا تمارس الا في حالة رغبة احد المرضى او عند طلب احد الخطاة الاعتراف بالتوبة . والعماد لا يزال الى الان يمارس في حوض او صهريج كبير يسمونه المعمودية وهو يوضع دائما في آخر الزوايا الغربية من الكنائس . وعند العماد يأخذ الكاهن الطفل من امه عريانا ويغطسه ثلاثا في ذلك الحوض ثم يلبسه مع الخشوع والصلاة التي يتلوها حزاما خصوصيا يقولون عنه (الزنار) وبعد ثلاثة ايام ترفع

والدة الطفل هذا الزنار او تقطعه وترميه واحتفال الغطاس لم يزل يمارس كالطريقة القديمة . والشماسة يلزم ان يصوموا اربعين يوما قبل ان يرسمهم البطريرك لهذه الرتبة الكهنوتية ويدفع له كل واحد منهم ثلاثة جنيهات اجرة سيامته ويلبسهم البطريرك ايضا زنارا اثناء الاحتفال امام باب الهيكل في الكنيسة . والكاهن الذي يقوم بهذه الخدمة يرفض في بادىء الامر قبول اجرة الرسم الديني بحجة انه غير مستحق ثم يرضى بقبولها بعد ان يأمره البطريرك ويبين ايضا ابو ذقن في كتابه كيفية الاحتفال والعوايد التي تمارس في الزواج التي لم تزل متبعة في الكنائس الى الان ولو انه يغلب في هذه الايام اقامة الاحتفال بالاكليل في منزل العريس . ولا شك انه اصل الغرض من اقامة الاكليل في منزل العريس ليكون في مأمن عظيم داخل منزله ويتوقى اعتداء بعض المسلمين عليه

ويقول ابو ذقن ان مدة الحداد على الميت عند الاقباط اربعين يوما يوزع اهله فيها الصدقات على الفقراء ويقيمون القداديس في الكنائس استجلابا لرحمة الله على روحه وقد لاحظ ابو ذقن ان الاقباط اكثر زهدا وتنسكا من رهبان الاوروباويين اذ قد لا تسمح لهم كنيستهم ورجالها باكل اللحم الا في ايام عيدي الكنيسة العظيمين وهما عيد الميلاد وعيد القيامة ويشهد لهم ابو ذقن انهم لا يميلون للكسل ابدا . ويقول انه يوجد في المدن المتمدنة أديرة للنساء بقرب الكنائس ولا تسمح الكنيسة لفرد قبطي ان

يصوم[1] يكون سنه دون السادسة عشرة. وذكر ابو ذقن انه عند ما
يريد احد الاقباط ان يحج الى اورشليم يلتزم ان يدفع جزيتين للاتراك
الاولى عندما ينوي السفر وقيمتها ثمانية ريالات والثانيه وقيمتها اربعة
يدفعها غالبا عند دخوله المدينة المقدسة ويقول ايضا انه عند ما يريد
بعضهم ان يحج داخل بلاده بزيارة أحد الهياكل والمقامات المصرية
المقدسة فيتبعون عادتهم القديمة وهو انهم يقدمون عند ذلك المقام
حيوانات بصفة قربان فيذبحونها ويأكلون لحمها ولاحظ ابو ذقن ان
الهياكل والمقامات المصرية التي للاقباط ليست الا مقامات شهدائهم لانه
لم يوجد قديسون بالديار المصرية الا من ابتداء تاريخ استشهاد الاقباط
في ايام ديوقليوس او ما قبلها بقليل

وقال ابو ذقن انه اذا كان يتفق ان كاهنا يكون موجودا ضمن ضيوف
وزائري احد الاقباط في وليمة فالعادة ان يبتدي الكاهن اولا فيمد يده
على المائدة ويأخذ خبزا ويكسر منه ويعطي كل واحد من الحاضرين قطعة
على سبيل البركه قبل الابتدا في الاكل. وقد اثبت ايضا ابو ذقن ان
الاقباط المصريين من قديم الزمان الى الان يحسنون صناعة الصياغة
والمجوهرات وصنع الاحذية والحدادة والخياطة والحفر على الخشب
(الاويمه) والهندسة المعماريه. ويعلمون اولادهم في مدارسهم فقط القرا

(١) الكنيسة تسمح في هذه الايام للاولاد والبنات الذين دون من السادسة عشر بالصيام فيتلفون صحتهم

والكتابة والجغرافية واللغة العربية واللغة القبطية ومعرفة الكتاب المقدس.
واعتقد ابو ذقن ان تعليم اولاد الاوروباويين ارقى من تعليم اولاد الاقباط.
ولكن من ابتداء القرن السابع عشر فصاعداً لم تكن تربية الاولاد
للاقباط رؤية. ويحتمل ان كتاب ابو ذقن الاصلي مدفوعان بين كتب
مكتبة اوكسفور بانكلترا ولكننا لا نعلم من الذي احضره من مصر اليها
وقد ترجم هذا الكتاب الجليل الى اللغة اللاتينية في اوكسفور سنة ١٦٧٥
مسيحية ثم ترجمه من اللاتينية الى الانكليزية السير ا. سدلير سنة ١٦٩٣
مسيحية

وبعد تولية الوزير محمد باشا الذي وصل مصر سنة ١٠٦٣ كما تقدم
القول عزل وما زالت الولاة تتوالى على مصر ولا شيء من اعمالهم
واحوالهم يستحق الذكر وفي اخر الامر تحول النفوذ الى ايدي البكوات
المماليك اما الباشوات فاذا تولوا مصر وقدموا اليها لا يكون ديدنهم الا
اكتساب الثروة باية طريقة لانهم يعلمون انه لا بد من عزلهم وقلما عزل
احدهم ولم يكن السجن مأواه

وفي مايو سنة ١٦٩٤ مسيحية (١١٠٥ هـ) ثارت في القاهرة زوبعة
شديدة حتى خيل للسكان ان الآخرة قد دنت[1] فاقلقت جامع ابن طولون
وهدمت كثيراً من البيوت عن آخرها وكان الغبار يتطاير كسحب كثيفة

١ ان المطر كان نادرا جدا في مصر مدة القرن السابع عشر ويقول الشوري انه لم ير نقطة مطر واحدة هطلت في بلاد مصر مدة اقامته ثلاث سنوات متتابعة

يحجب ضوء السماء . ومثل هذه العواطف الشديدة نادرة الحصول في مصر والظروف التي جعلت فيها وقع اكثر تأثيرها على المسلمين لانها حدثت اثناء تأديتهم صلاة الجمعة في رمضان وفي هذه السنة ايضا لم يرتفع النيل كعادته فحدث غلاء عظيم في البلاد كما هي العادة ولم يكن الاهالي مستعدين لاتقاء ذلك الخطر وزادت المجاعة عدة شهور رداءة وتفاقما فالفت ذلك نظر البكوات المماليك وكان هياج الشعب قد الفت أيضا نظر الامراء فاوقفهم قليلا عما هم فيه من المخاصمات مع بعضهم فابتدأوا ينظرون في احوال الشعب الهائج وتجمع أو يأس القوم الذين قتلهم الجوع حول القلعه واخذوا يصرخون طالبين الخبز ولما لم يلتفت احد لصياحهم اخذوا يقذفون الحجاره على حصون القلعه وامر الحاكم جنوده فطردوهم فركضوا الى المدينه وقصدوا مخازن الحكومة قبل أن يلحقهم رجالها ويحموها منه ثم تمكنوا من طردهم من مخازن الغلال وابطلوا الهياج موقتا ولكن ذلك لم يدم طويلا واستمرت المجاعة واخذت تزداد ازدياداً هائلا حتى بلغت الحالة انهم اخذوا يقتاتون من جثث الموتى

ومن سنة ١٠٦٣ للجبره لغاية سنة ١١١٩ هـ توالى الحكم على مصر عدة باشوات لا يسع المقام ذكر اعمالهم بالتفصيل والباشا الذي وصل اليها في ايام هذه المجاعة وهو المدعو اسماعيل آلمته عواطف الشفقة والحزن والتأثر على ذلك الشعب الذي يموت جوعا في حالة بؤس وتعاسة فاجبر الامراء بان يتكفل كل واحد منهم باطعام بعض الفقراء يوميا حتى لا

يموتوا جوعا. وجعل نفسه قدوة صالحة ومثالا حسنا فكان يوزع تعيينات من الخبز والخضار مرتين في اليوم على الفقراء طول مدة المجاعة

ثم أعقب هذه المجاعة الطاعون كالعادة فكان الناس يموتون في الشوارع ويتراكمون فوق بعضهم اكواما . وكان ذلك الباشا الذي يختلف من اسلافه اختلافاً بينا في طيبة القلب والشفقة على الشعب يشتغل في دفن الموتى تحت ملاحظته وقد الزم الامراء بان يقتدوا به في هذا العمل . وبعد أن أفاقت البلاد من المجاعة والطاعون اقام احتفالا ووليمة عظيمة لمناسبة ختان ابنه ثم امر أن يختتن عدد عظيم من اولاد الفقراء (١) تذكاراً لذلك اليوم ووزع عليهم جميعا ملابس جديدة على نفقته الخاصة

وفي السنة الاخيرة من القرن السابع عشر مات المؤرخ العظيم المعروف بشمس الدين « أو نور الايمان » وكان من اشهر العلماء في مصر وقد الف عدة كتب اخرى خلاف كتاب تاريخ مصر الذي هو في غاية الاهمية لصحة الحوادث التي دونها فيه عن القرن الذي كان معاصراً له

وفي ٣ محرم سنة ١٠٩٩ هـ اقبل السلطان محمد الرابع

(١) يقول الجبرتي انه عدد اولاد الذين اختتنوا واكتسوا على حساب الباشا ٢٣٣٦ ويقول المسيو مايه الذي كتب في تاريخه ايضاحات عظيمة عن اعياد ولائم ولاة مصر ان عدد الاولاد ٥٠٠٠

الفصل التاسع والستون

استبداد البكوات المماليك

سنة ١٧١٠ مسيحية و١٤٢٣ للشهدأ و١١١٨ الهجره

وبعد تسع سنوات تقريبا من تولية السلطان مصطفى الثاني اقيل وتوفى في السجن سنة ١١١٩ هـ وبويع اخوه احمد خان وهو احمد الثالث وكانت مدة حكمه على المملكه العثمانية نحو عشرين سنة حصلت في اثنائها ثورات عديدة في مصر انتهت كما قلنا في اول الفصل السابع بتحويل سلطة الباشوات ونفوذهم الى البكوات المماليك . وقد تولى على مصر من سنة ١٠٦٣ الى سنة ١١١٩ هـ اثنان وعشرون واليا لم نذكرهم هنا لعدم اهميتهم وفي السنة الاخيرة من ايام السلطان احمد خان تولى على مصر حسن باشا وكانت وظيفة شيخ البلد في القاهرة مسنودة الى قاسم عيواظ بك . الذي كان يرأس طائفة القاسمية كما كان ذو الفقار بك يرأس الطائفة الفقريه كما تقدم الايضاح في الفصل السابق

وقد كانت هاتان الطائفتان قبل تولى حسن باشا في وفاق تام فلما تولى الاحكام خشي اتحادهما فعمد الى الدسائس والقي بينهما الشقاق فحصلت بينهما مواقع سيأتي بيانها بالتفصيل في هذا الفصل

وفي سنة ١٧١٠ مسيحية نشبت الحروب بين روسيا وتركيا فصدر امر من السلطان باخذ بعض الجنود التركية المحتلة لمصر فتخلصت هذه

البلاد وارتاحت من مضايقة واستبداد ثلاثة الآف جندي تركي كانوا يمتصون دم حياتها. غير أن الذين بقوا منهم في القاهرة استمروا يقاومون المخاصمات والمعارك حتى ازداد الشر والضيق في البلاد كثيراً وقضت الحالة الى قيام حرب اهلية في البلاد فنزل حاكم الصعيد بجيوشه الى القاهرة ليشترك في تلك الحرب الشعواء وبقيت بقعة الارض الواسعة الواقعة بين القلعة وجامع السلطان حسن ميدانا لهذه الحروب حتى تحول ذلك الجامع الى حصن حربي فسيح كما تحول ايضا جامعا ابن طولون والمؤيد الى حصون حربية اخرى . وبالجملة استعملت اهم واجمل الجوامع في القاهرة يومئذ الى معامل وحصون لجيوش الامرأ

وقد انتهت هذه الحرب بانهزام حاكم الصعيد الذي كان يقصده الوالي ثم اتحد الامرأ مع بعضهم وخلعوا الوالي المذكور حتى خلى لهم الجو وصاروا يلعبون ويمرحون . غير أن اعداء الامراء عمدوا الى اطلاق النيران على منازل كثيرين منهم فاندلع لسان اللهيب وتطاير شراره الى حوانيت ومنازل الاهالي الذين لم يكن لهم ادنى دخل في تلك الحروب والثورات فكان من وراء ذلك حرق قسم عظيم من مدينة القاهرة امامه لم يحرق من منازل الاهلين المساكين فقد نهبه عساكر الامراء بحالة فظيعة وحتى لقد رؤي الاهالي يسرعون الى الهرب من المدينة تاركين منازلهم وامتعتهم لهؤلاء الجنود اللصوص السالبين والذين بقوا في المدينة على رجاء حماية ممتلكاتهم وقعوا في يد عدو اشد ظلما واستبداد من

العساكر ذلك أن قبيلة البدو التي احضرها الامرأ القاسميه ليضربوا برجالها اعضاء حزب الفقارية انتشرت داخل القاهرة وصارت تسرق وتنهب كل شيء يقع تحت ايديها ثم قطعت مجرى الماء عن المدينة رغبة في ان يموت كل من فيها عطشا

ولم تقتصر اضرار هولاء البدو وعراكهم على مدينة القاهرة وحدها بل تعدتها الى الضواحي والى كل قرية اخرى كان ينتدبهم اليها رؤساء الحزبين المحكي عنهما وقد الحقوا بمدينة اخميم على الخصوص خراباً تاما من افعالهم الوحشية وقتلوا كثيرين من اهاليها وكان جل سكانها في ذلك الوقت من المسيحيين كما كان ذلك لسوء الحظ من اهم الاسباب التي اوجبت هجومهم عليها مع أن سكانها لم يقع منهم أي ذنب يؤاخذون عليه . وقد حصلت وقائع كثيرة بين طائفتي القاسمية والفقارية دامت ثمانين يوما كانوا يخرجون في خلالها من القاهرة الى مكان يعرف بقبة العرب ويأخذون في الكفاح من شروق الشمس الى غروبها ثم يعودون الى القاهرة فيصرفون الليل هادئين في بيوتهم ويعودون في الصباح ثانية الى القتال والخيراً وقع بين الطرفين معركة شديدة بقرب القصر العيني قتل فيها قاسم عيواظ بك . لان حاكم الصعيد الذي كان يقود فرقة الفقارية عمد الى حيلة بان واوجد كمينا يصطاد بواسطته عيواظ ذلك انه اختفى وراء حائط قنطرة كانوا يتحاربون بقربها ثم تظاهر بالهروب السريع فنزل عيواظ الى تحت قباب القنطرة وهو لا يعلم بوجود الكمين فيها فانقض عليه وقتله . وقد

اسف عليه الناس وبكوه بكأهم على حاكم عادل أو أب حنون بار وحتى لم يبق صديق ولا عدو الا وبكاه لانه كان فضلا عن حكمته وعدله ذا عفة وشجاعة كما كان باسلا ابي النفس . وقد اموا ابنه اسماعيل بك شيخا للبلدة مكانه وصادق الباشا على ذلك لظنه أن اسماعيل لصغر سنه (لانه كان في العشرين من عمره) يكون آلة في يده يديرها كيف شاء . وكان اسماعيل هذا مشهوراً بالجمال والشجاعة وقد انتخبه القاسميون زعيما عليهم ايضا بدلا عن ابيه وعقدوا هدنه مع الفقارية مدة ثلاثة ايام . فتكدر ذو الفقار بك من ذلك لانه كان ينتظر أن يأخذ منصب شياخة البلدة وعادت بعد ذلك الخصومات والعداوة بين رجال الحزبين كما تجددت المنازعات بدرجة اشد من الاولى ودامت هكذا حتى هزمت طائفة الفقارية وبقي اسماعيل الشاب سيداً على البلاد المصرية وكان عاقلا حكيما كوالده عارفا وجوه الربح والحق فسعى الى الوفاق مع الطائفة الفقارية فاتحدت الطائفتان جميعا على الباشا الذي كان اسماعيل من جهة اخرى يظهر له الطاعة والرضوخ ظاهراً بصفته رئيساً له ولكنه كان يسعى سرا الى خلعه فكتب عنه الى الاستانة فعاز بعزله وجاء باشا جديد غيره ثم أبدل هذا باخر ثم باخر جاءوا وراء بعضهم من القسطنطينية في مدة ثلاث عشر سنة واسماعيل باقيا في منصبه مكتسباً ثقة الرعية حتى اصبح في مقام حاكم البلاد الحقيقي وكان الناس يحبونه بدرجة تقرب من العبادة . وقد عين اصحابه حكاما على الاقاليم المختلفة واسند الى بعضهم اهم وظائف الحكومة في

القاهرة . ثم عم العدل على كل الناس بالسواء وطهر ضواحي البلاد من البدو السالبين . وكانت هذه هي المرة الاولى التي ذاق فيها المصريون لذة الامن العام والراحة بعد زوال استقلالهم . وقد كان حتى في ايام الوالي اسماعيل الذي بطش بيده القوية على المفسدين يستحيل على سيدة من المخدرات أن تسير لوحدها خارج العاصمة بدون حرس قوي حولها . وفي يوم شم النسيم في السنة التي تقدمت سنة قتله خرج بجماعة من النساء كما هي العادة في مثل ذلك اليوم راكبات حميراً وذاهبات للرياضة خارج المدينة فلما ان وصلن الى كوبري فوق الترعة التي كانت واقعة شمالي القاهرة احتاط بهن خدم المماليك وكانوا سكارى ومدججين بالسلاح ومزقوا النقاب من على وجوههن وسلبوا ما كان عليهن من الحلي والمصوغات برضى وتسليم الضابط المكلف بحفظ الامن في تلك النقطة ثم تركوهن لحراسة هذا الضابط الامين وعساكره وهؤلاء جردوهن من سائر ملابسهن وتركوهن عاريات بالمرة وعرضة للمارين مما صيرهن يتوسلن لكل عابر سبيل أن يشفق عليهن ويعطيهن شيئا يكتسين به حتى يرجعن الى بيوتهن

ولما ان فحصت هذه المسألة اتضح ان اولئك النساء لم يكن قبطيات ولا يهوديات حتى يأتي منهن هؤلاء المستبدين ذلك العمل الفظيع بل اتضح انهن نساء مسلمات وزوجات رجال من طبقة عالية . ومن عائلات عظيمة . ويقول مؤرخ هذه الحادثة انهن رفعن في صباح اليوم الثاني شكواهن الى الباشا طالبات تعويض ما فقد منهن من ملابس والماس

ومجوهرات ومصوغات عظيمة . فامر الباشا باحضار الضابط والرجلين اللذين اشتركا معه في هذه الجريمة وهددوهم بالقتل فاعترفوا بما فعلوا وايدوا شكوى السيدات بكل معانيها نكنهم دفاعا عن انفسهم قالوا انهم لم يفعلوا ذلك الا اطاعة لامر الضابط رئيسهم الذي لا يسعهم مخالفته . وقد كان بعض سكان الحي الذي وقعت فيه الحادثة المؤلمة مشاهدين لكل ما تم فيها ولكنه كان غير ممكن لهم الاعتراف بالشهادة خوفا من بطش المعتدين ولكنهم لما وقعوا تحت المحاكمة شهدوا بما تم فاضطر الوالي الى نفي الضابط الى ابو قير بعد ان الزمه بدفع غرامة كبيرة ثم اصدر بعد ذلك امراً عاما يقضي بمعاقبة كل من يعتدي على النساء اللواتي يسرن بلا حراس في الطريق عقاباً صارما وامر كذلك بانه لا يجوز لاية امرأة كانت ان تخرج خارج بوابة المدينة ولا تركب حمارا — !

وبالاجمال فان اسماعيل بك بذل جهده في ايقاف تيار تلك المسالب والسرقات العلنية المخجلة التي كان يرتكبها اتباع الرؤساء العسكريين وفي اغلب الحوادث كان يرغم السارقون والناهبون برد ما سلبوه الى اصحابه

ومما يحكى عنه انه كان يأدب في ليالي رمضان مآدب ليلية يجتمع فيها العلماء والفقهاء والمشايخ لقرأة القران وكان وقت غروب الشمس يفتح منزله لكل قاصد وفقير لمناولة طعام الافطار على حسابه . وبمثل هذه الشجاعة الادبية كان يغوي اصحابه ومعارفه على ترك القاهرة وزيارة

الذين عينهم حكاما على الاقاليم لافتقاد احوالهم وبذلك تمكن من توطيد دعائم الامن مع انه قبل ايابه ما كان يقدر احدا من الامراء على الذهاب الى خارج القاهرة بمفرده ما لم يكن معه جيشا جرارا والا داهمه القتل لا محالة . وقد كان جميع المماليك الامراء لا يموتون الا قتلا بطرق مختلفة ونادرا من كان يبقى منهم حتى يدركه الموت الطبيعي وكان حظ اسماعيل هذا مثل حظ من تقدمه من البكوات المماليك . فانه بعد ان ظل في منصبه ستة عشر سنة تقلب في اثنائها على مصر جملة باشوات من الولاة كانوا يشغلون مراكزهم بالاسم فقط وكانت قلعة الجبل سجنا لهم وكان لحسن سياسته ماذا جماعة الفقاريين عن كل حركة مضرة لتظاهره انه على وفاق معهم فلم يعط لهم فرصة يتحدون فيها عليه الا انه ارتكب خطأ واحدا ادى الى قتله . ذلك ان ذي الفقار من رجال الطائفة الفقارية كان له عقار كاف لنفقات عائلته فاختلسه منه احد المماليك القاسمية الذين يرأسهم اسماعيل بك فتظلم ذو الفقار الى اسماعيل بك بصفته شيخا للبلد فلم يصغ لظلامته وامر بابقاء العقار مع مملوكه فشق ذلك على ذي الفقار ورفع دعواه الى زعيم الفقارية ويقال له شركس بك وكان خصما لاسماعيل يكرهه كرها طبيعيا فسار الى الباشا الوالي وشكى له تصرف اسماعيل وكان في قلب الباشا حزازات حسد منه فوافقه على الايقاع به ثم قال له ليس لك وسيلة افضل من ان تكلف احد المماليك التابعين لك بقتل اسماعيل وانا اعده بان يكون له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافئة

لاتعابه .

فعين شركس بك اول يوم يجتمع فيه الديوان لاتمام هذه النية السوداء وامر مملوكه ذا الفقار باتمامها ففي اليوم المعين سار ذو الفقار ودخل الديوان وكان جالسا فيه اسماعيل بك وتقدم اليه وقبل يده قائلا «ارجوك أن تأمر بارجاع عقاري الي» فاجابه اسماعيل بك منتهراً (سننظر في طلبك) فالح عليه فانتهره فاستل خنجراً ماضيا وقربه بطنه فدفعت امعاؤه ومات لساعته في وسط الديوان وحينئذ هجم رجال الباشا على كل من وجد هناك من رجال اسماعيل وقتلوهم عن اخرهم ولم ينج منهم الا الذي اسرع بالعدو . وهكذا كان انتهاء حكم اسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ سنة ١٧٢٣ مسيحية ومات وعمره ثلاثين سنة ونقلت جثته الى بيته ثم دفنت بجانب جثة ابيه بجوار باب اللوق . وترك اسماعيل بك بنتا وولدين من زوجات مختلفات ولم يقم هولاء الاولاد بذكرى ابيهم اكثر من بضعة اشهر . وبنى اسماعيل بك جامعين احدهما بدسوق وهو المعروف بجامع سيدي ابراهيم الدسوقي والآخر بمليج وهو المعروف بجامع سيدي علي ورمم جامع الازهر في القاهرة . وترأس قافلة الحج المصري ستة مرات الى مكة وكانت سنة موته سنة حداد عظيم عند جميع المصريين

وفي السنة التي مات فيها اسماعيل قامت ثورة فكرية عظيمة في القاهرة نشأت عن خطبة القاها رجل مسلم تركي الاصل من دعاة

الاصلاح في جامع المؤيد على جمهور من الاهالي دعاهم الى ذلك وكانت خطبته تتضمن ذم المفاسد والمصائب التي شوهت الدين الاسلامي ثم انتقد باسهاب كبير طريقة عبادة الاولياء والمشايخ واعتقاد العامة واكثر الناس بانهم يأتون بعجائب ومعجزات بعد موتهم فاندهش علماء ومشايخ الازهر لهذه التصريحات والانتقادات الغريبة في بابها واستأوا من ذلك الخطيب واصدروا امراً دينيا وزعوه على الناس ينكرون فيه اقوال هذا الخطيب ويفندون ارائه وتعاليمه ويثبتون أن الاولياء والمشايخ يظهرون العجائب بعد موتهم ثم طلبوا من الحكومة معاقبة ذلك الرجل الذي يتعرض للمعتقدات .

فاخذ احد المسلمين صورة من ذلك الامر واعطاه لذلك المصلح اثناء خطابته مرة اخرى فقال انه يود مناقشة العلماء ومباحثتهم امام القاضي الاكبر وطلب من سامعيه تعضيده . فصاح الجمع المحتشد لسماعه يؤكدون اخلاصهم له وتعضيدهم لافكاره ونزل من على منبر الخطابة فاحتاط به نحو الف رجل من المسلمين وتوجه مهرولا بضجة كبيرة الى بيت القاضي . فلما علم القاضي بمجيء ذلك الجيش الى منزله ارتعب كثيراً واجتهد أن يمهل مقابلتهم ثم رفض استقبالهم فتكدر من ذلك الجمع وقصد الاوباش تكدير صفو الأمن غير أن القاضي هرب منهم واختفى في محل النساء

وفي يوم الثلاثاء التالي ليوم هذا الحادث اجتمع خلق عظيم اكثر من الذين اجتمعوا في المرة الاولى ليسمعوا هذا الخطيب في الجامع لكن لم

يحضر فذاع بين المجتمعين أن القاضي الاكبر منعه عن الخطابة بالقوة — فكر الجميع مهرولين كالسيل الجارف الى المحكمة الشرعية وقبضوا على القاضي فانكر معلوميته بشيخهم الخطيب بالمرة فلم يقتنعوا بذلك واخذوا القاضي بالقوة حتى اوقفوه امام الباشا الوالي فامر بقطع رأسه ثم اصدر امرا يعد فيه هؤلاء المتجمهرين بعدم التعرض لما يرغبونه وبذلك انقذوا الشيخ الخطيب من تقيد حريته وحملوه منتصرا على ايديهم وساروا به في هتاف عظيم الى جامع المؤيد وهناك وزعت اعلانات مهيجة . وفي الاثناء كان الوالي ارسل الى رؤساء حزبي الفقارية والقاسمية يخبرهما بان القوم الرعاع المحتشدين حول الشيخ الخطيب قد سبوه واهانوه وانه لذلك يريد بترك البلاد لهم

ولما كان الامراء يميلون بطبيعتهم الى المعارك والقتال انتهزوا هذه الفرصة وجمع كل منهم رجال حزبه وحملوا السلاح وساروا ليقبضوا على الخطيب ويبطشوا بسامعيه . ولكن خبر قيامهم كان سبقهم الى جامع المؤيد فلما وصلوه لم يجدوا فيه احدا فطافوا المدينة كلها وصاروا يجلدون ويضربون بالعصا كل من يجدونه في طريقهم ويقبضون عليه . ويقول الجبرتي — : وبهذه الكيفية انتهى الاختبال والهياج وهدأت البلد اما الخطيب فاختفى وبعضهم يقول انه قتل والبعض الاخر يقول انه هجر البلاد

وفي يونيو سنة ١٧٣٤ تنبأ احد السحرة الاقباط بان العالم سينقضي بعد يومين من اعلان هذا النبأ . ففي الحال انتشرت نبوته هذه بين الناس

وصدقها كل المسلمين المصريين . وانتشر هذا الخبر في القاهرة بسرعة عجيبة يندر حصولها عند الشرقيين(١) واتصل خبرها كذلك لسائر الاقاليم المصرية . وكان كل واحد يودع صاحبه وقريبه وحبيبه قبل مفارقة العالم ويستعد لمقابلة الخطب الجسيم . واخذ الفقراء يهرولون جماعات جماعات الي شواطيء النيل ليغتسلوا فيه ويطهرون انفسهم من خطاياهم بمائه . والبعض يجتمعون في احتفالات خصوصية للوداع بينهم . واخرون يطوفون في الحقول تاركين منازلهم ووقع البعض في حالة رعب وفزع عظيمين لحد الجنون وبعضهم انقطعوا للتوبة والصلاة . اما المشايخ والامراء المماليك ولو انهم شاركوا الاهالي في رعبهم الا انهم اجتهدوا بان يبرهنوا للشعب على فساد الرواية ويحرضوه على الرجوع الى اشغاله اليومية الاعتيادية . ولكن نصائحهم ذهبت ادراج الرياح بلا فائدة لان الشعب الذي كان تقريبا كمصاب بالجنون قال الامراء والمشايخ النبوة حقيقة لا ريب فيها لان الاقباط واليهود قالوا بها ومن يقدر يقول ان هؤلاء القوم يخطئون في اقوالهم ونبوآتهم سيما ان اسرار النبوة والفلك والتنجيم محصورة فيهم ؟ . ثم اوردوا حوادث النبوات القبطية التي تمت على ايامهم . (والمؤرخ المسلم لم يثبت لنا ما هي هذه النبوات القبطية التى تمت) .

(١) كانت الاخبار في قديم الايام تنتشر سريعا بواسطة الحمام الزاجل . والموضوع الذي يلذ البحث فيه معرفة كيف كانت تستعمل ابراج الحمام المصرية في ذلك الحين لهذا الغرض

واخيراً قبضوا على الرجل الذي نطق بهذه النبوه وجأوا به امام احد الامراء . فلم ينكر ولم يجحد ما قاله وقال (اطرحوني في السجن حتى يوم الجمعة وان لم يتم ماقلته فاذبحوني) وبناً على ذلك الاصرار ازداد الرعب واليأس عند جميع الناس . قاربت شمس اليوم الاخير على الغروب ولم تظهر اقل علامة تدل على قرب الساعة . واذا باحد العلماء المسلمين من اصحاب المدارك السامية والعقول الراجحة قام وقال — أن الاقباط قد اخطأوا في تخييمهم سابقا فلماذا لا نضيف خطأهم هذه المرة ايضاً الى خطأهم السابق — ثم أخذ يذيع بين جماهير الناس بوسائط كثيرة أن السيد البدوي وسيدي ابراهيم الدسوقي الامام الشافعي قد توسلوا الله جل جلاله هم وباقي الاولياء الصالحين بمنع هذة النقمة عن العباد رحمة بهم وشفقة عليهم فاجاب الله سبحانه وتعالى صلواتهم وقبل تضرعاتهم ورضي بتأجيل قلب الارض وما عليها الى اجل غير مسمى . أخذ الناس يهنئون بعضهم بعضا ويشكرون الله قائلين نحن الآن ما زلنا احياً فنسأل الله أن يجعل هذا التأجيل نافعا لدينا

وقد وضعت هذه الحادثة في ايام البطريرك يوحنا السابع عشر الذي اخلف بطرس السادس سنة ١٧٢٧ ثم اخلف يوحنا البطريرك مرقس السابع عشر

وبعد وفات اسماعيل بك رجعت البلاد لحالة الفوضى الاصلية حيث اختل الامن العام وكثرت القلاقل والمحاربات بين البكوات المماليك

واحزابهم . فتولى شركس بك مشيخة البلد واخذ ذو الفقار بك الذي قتل اسماعيل جميع ممتلاكاته ونساءه كوعد الباشا له فقويت شوكته واصبح عظيما يشار اليه بالبنان وزاد اعوانه من الممالك والاعيان فخافه شركس بك واراد أن يعمل به ما عمل باسماعيل فدبر له دسيسة فلم بها ذو الفقار وجمع رجاله وهجم على شركس بك وقامت معركة عظيمة لم يثبت فيها شركس بك ربع ساعة وفر الى الصعيد فأخذ ذو الفقار مركزه برضى الباشا ولكن اصبح عدوا للبكوات وخصوصا رجلا يدعي ابي دفيه ثم جمع شركس بك اعوانه ورجع معهم الى القاهرة فارسل ذو الفقار بك عثمان كاشف احد كبار قواده لمقابلته فهزم شركس بك وطرده الي بلاد البربر . ولما عمل ذو الفقار بخمرة النصر عمد الى قتل كثير من البكوات في القاهرة ولم يبق منهم الا رئيس الشرطه ورئيس الانكشارية فبعثا الى شركس بك واتحدا معه على محاربة ذو الفقار فلما اتى شركس بك لمحاربة عثمان القائد تمكن هذا الاخير من التغلب عليه ثم غرقه في النيل واتي عثمان برأسه ورأس شريكه مصطفى القرد وارسلهما لذي الفقار بك الذي لم يهنأ بذلك النصر لانه قتل بعد قتل عدو شركس بيومين بمكيدة اعدت له بمساعي البكوات في القاهرة . وذلك انهم البسوا واحداً منهم دفيه وجأوا به امام ذي الفقار وقالوا له هذا ابو دفيه قد لوقعه الله في ايدينا وكان الرجل يحمل تحت دفيته عيارين ناريين فلما وقف بين يديه اطلقهما عليه دفعة واحدة فسقط ذو الفقار مضرجا بدمائه في وسط ديوانه

سنة ١١٤٢ هجرية فلما علم عثمان بك قائده بما اصابه اسرع الى الاخذ بثاره فدخل القاهرة وجعل يفتك بكل من يصادفه في طريقه فخاف الجميع من استفحال الشر بين الامراء وقتل بعضهم البعض . وكان لهولاء الامراء عادة رديئة في الانتقام من بعضهم وهو أن يدعو احدهم الذين يريد الغدر بهم الى وليمة يقيمها في منزله متظاهراً بالمودة لهم ثم يعطي اشارة لرجاله وخدمه فيقوموا عليهم ويذبحوهم ذبح الاغنام وهم في ضيافته آمنين . وقد وقعت حادثة محزنة من هذا النوع في سنة ١٧٣٦ مسيحية وذلك ان الدفتردار دعي الى منزله احد عشر اميراً وذبحهم بهذه الصورة الفظيعة لان احدهم الذى كان رئيسا لطائفة الفقارية رفض ان يرقي مملوكا من القاسميين لرتبة سنجق وقد هرب من تلك المذبحة الهائلة اعظم امير قادر وقوي وهو عثمان بك الذي كان قائدا لرجال ذي الفقار . واخيراً خاف القاتلون ان يأتي عليهم اعوان الامراء المقتولين ويأخذون بثارهم منهم فالتجأوا الى جامع السلطان حسن فلم يسمح لهم احد بالدخول فيه غير انهم تغلبوا على الذين منعوهم بواسطة حرق الباب ودخلوا الجامع وتحصنوا فيه فنشأ عن ذلك قيام معارك دموية هائلة استمرت لسوء الحظ طول القرن الثامن عشر حيث تحولت الجوامع ثانيا الى حصون ومعاقل حربية وكانت منازل المقاتلين تنهب وتسلب علنا واصبحت الشوارع ملآنة بجثث القتلى . ومما يحسن ذكره ان محمد بك احد البكوات الذين كان يترقبهم عثمان بك رأى منصب مشيخة البلد خاليا بعد قتل ذي الفقار فطمع فيه

وتعاهد مع صاحبه صالح كاشف على قتل كل من بقى من البكوات زملاءه فادب لهم محمد بك مأدبة فاخرة ودعاهم اليها فلبوا دعوته وهم غير حاسبين للشر حسابا غير انهم لما علموا بمكيدته قاوموه حتى تغلبوا عليه وقتلوه وقد هرب صاحبه الى القسطنطينية بعد ان شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق امام الجامع الحسيني . ثم خلع الباشا الوالي كما هي العادة عند حصول القلاقل الكثيرة واعقب خلعه فترة سلام قصيرة وكأنما الشقاء كان حليفا لهذه البلاد المنكودة الحظ فانها ما كادت ترتاح قليلا من حروب وويلات ومذابح هولاء البكوات حتى اصيبت بضربة اشد وطأة من استبداد المماليك وهو الوبأ الذي انتشب في حول البلاد وعرضها ويعرف بطاعون الكبي وقد انتشر انتشارا سريعا وفتك بالناس فتكا ذريعا حتى مات في يوم واحد في منزل واحد لاحد الامرأ ١٢٣ نفسا وكانت الجثث تنقل الى المدافن والخلوات ليلا

وفي ذلك الحين الذي كان فيه الامن العام مستتب نوعا اتى المسيو ريكارد بوكوك الى مصر وكانت الامتيازات الاجنبيه موجودة فيها وقتئذ فكانت هذه الامتيازات نافعه في جعل الاوربايين الوافدين اليها يتمتعون بالامن والضمانه على حياتهم وارزاقهم اكثر من سكان البلاد الاصليين البؤساء لان هذه الامتيازات التى منحها الباب العالي للاجانب جعلت المصريين يتأكدون بان قتل احدهم يؤول الى خطر عظيم فكانوا يقابلونهم ويكلمونهم بكلمات رقيقة واصبح هولاء الاجانب انفسهم في

ارتياح من هذه الحالة ولا سيما لالتجاء المصريين اليهم في احوال كثيرة . وفي ذلك الحين جاء ايضاً الي مصر فردريك نوردرن من ضباط البحرية الدانماركية ليسوح في مصر ويكتب عنها ما يراه ولكن كتابه الذي الفه عنها غير مفيد لانه لم يصف حالة الحكام الاتراك كما هي وتجنب شرح حالة التعاسة التي كانت عليها البلاد المصريه لتقلبه في ارائه وميله الى التخلص من ذكر هذه الحقائق مع انه ساح في اعالي النيل لغايه محل وجود بوكوك والف بعض مجلدات املا في الرجوع اليها بعد عودته والظاهر انه في طول مدة اقامته في وادي النيل لم يتعلم شيئاً عن البلاد اكثر مما يعلمه عنها أي سائح اوروبي بسيط في هذه الايام لا يقيم فيها اكثر من اسبوعين . اما مؤلفات بوكوك فكانت ذات قيمة حقيقية ولو انه اخذ كل معلوماته عن سائر ما يختص بالاقباط من المترجمين الاميين الجهال أو من المرسلين الكاثوليك الذين كانوا يكرهون الاقباط الارثوذكس كثيراً كما فعل غيره من السائحين الذين لم يتعبوا انفسهم في استقراء الحقائق . وقد ساعد على نقل كل رواية غير صحيحة عن الاقباط تاخر القوم انفسهم عن الاجتماع بالسائحين وعدم اعتنائهم بكتابة تاريخهم بانفسهم ولكن هذا غالباً نشاء عن تعلقهم فقط بتاريخ كنيستهم الوطنية وتاريخ بطاركتهم. وقد وصل الدكتور بوكوك الى الاسكندرية من اوروبا في سنة ١٧٣٧ وحال نزوله الى البر توجه توا لزيارة البطريرك اليوناني كوسماس الذي كان مقيما في رشيد وكان البطريرك القبطي في ذلك

الوقت يوحنا السابع عشر. وقد استصحب الدكتور بوكوك في سياحته هذه احد الرهبان الفرنسيسكان الكاثوليك الذين كانت ارساليتهم منتشرة على طول النيل تحت حماية انكلترا. وقد زار المحكمة الكبرى فقالوا له انه يوجد فيها خمسماية من الاقباط ومحل اثري وجد فيه بقايا هيكل عظيم. وبعد أن مكث في القاهرة اياماً زار الفيوم ثم سافر الى الانحاء القبلية بطريق النيل وكان الدير الابيض والدير الاحمر من اشهر اديرة الاقباط في ذلك الوقت وهما الموجود بقاياهما الآن بقرب مدينة سوهاج احدهما دير انبا شنوده والاخر دير انبا بشوي

ومن الكنائس الجميلة التي كانت موجودة في ذلك الوقت كنيسة ارمنت العظيمة فان عظمتها وجمالها اثر كثيراً على نظر هذا السائح لانها كانت تعد من اعظم واقدم الكنائس المصرية. وكانت البلاد في راحة نوعا من القلاقل اثناء الشهور القليلة التي اقامها هذا السائح في مصر فلم يشاهد لحسن حظه شيئاً من محاربة المماليك لبعضهم غير انه لاحظ أن قتل النفوس البريئة بالسم كان مستعملاً بين طبقات الاتراك بطريقة مألوفة وكان لابد من تنفيذ اوامر أي تركي كان مهما كان فيها من الاضرار العامة والخطاء المعيب. ومما لاحظه هذا الزائر في الاقباط انه وجد معظمهم يعرفون القرأة والكتابة الامر الذي لم يجد مثيلاً له عند غيرهم من باقي سكان مصر ومما قاله عنهم في مؤلفاته أن الانكشارية الاتراك كانوا يحصلون ضريبة عن الانفس من الاقباط وقد زاد التضيق

عليهم في امر هذه الضريبة بواسطة تركي من الاستانة بذل رشاوي ثقيلة للسلطان حتى اشترى امتيازها لنفسه وجاء الى مصر واخذ يضايق الاقباط المساكين فيها ويضغط عليهم في تحصيلها منهم بطرق كثيرة جائرة اكثر مما كان يفعل رجال الانكشارية. وقد عاد بوكوك من مصر بعد ذلك وساح ايضاً في اورشليم وقبرص وانتهى امره اخيراً بتعينه اسقفاً على مدينة ميث

وكان قد عزل السلطان احمد الثالث في جمادي الاولى سنة ١١٤٣ هجرية (١٧٣٠ مسيحية) وبويع بدله ابن اخيه محمود بن مصطفى خان وهو السلطان الرابع والعشرون من بني عثمان ويلقبه بمحمود الاول وبقي على العرش العثماني خمسة وعشرين سنة وكان ولاة مصر في ايامه كاسلافهم بلا عمل وكل الاحكام وامور الحل والعقد بيد شيخ البلد واعوانه وليس من يستطيع معارضتهم فيها

وبعد أن قتل ذو الفقار بك كما تقدم تولى مكانه عثمان بك قائده وهذا رقى كثيرين من المماليك اتباعه الى رتبة البكاوات بدل الذين قتلوا وكان عثمان بك هذا اقوى رجل تقلد وظيفة شيخ البلد من سنة ١٧٣٦ مسيحية لسنة ١٧٤٣ واهم ما يذكر له من الفضائل انه ما كان يقبل الرشوه مطلقاً وكان عادلاً حازماً واما باقي صفاته فكانت مثل صفات الذين سلفوا من اقرانه فكان صارماً منتقماً قاتلاً عديم الرحمة. ولكنه لم يقتل مثل اقرانه بل لما كثرت انتقاماته وشعر بشدة مضايقة الناس منه ومنها تمكن

من الهروب (١) الى سوريا ومنها الى القسطنطينية فاستقبله السلطان

(١) ان السبب في هروب عثمان بك ذي الفقار نشأ عن توقعه الشر من اثنين من المماليك هما ابراهيم بك واسماعيل رضوان بك لان ثروتهما كانت قد نمت بسرعة واتحدا مع بعضهما على السراء والضراء فلما رأى اسماعيل انهما طامعين في وظيفته جمع اليه ثلاثة احزاب احدهم حزب ابراهيم بك القطامس وفيه ثلاثة من البكاوات والثاني حزب علي بك الدمياطي وفيه اثنين منهم والثالث حزب علي كخيا الطويل حيث شاور زعماء هذه الاحزاب في الامر فاقروا على قتل ابراهيم بك كخيا الانكشاريه ورضوان بك فبلغ احمد الكري أحد مماليك ابراهيم بك خبر هذا التواطؤ فدبر مكيدة يقتل بها عثمان بك فترصدوا له في القلعة غير انه شعر بالمكيدة فوثب بجواده الى داخل القلعة فلم يظفروا به وبعدئذ هرب الى سوريا ومنها قصد الاستانة كما تقدم الايضاح في غير هذا المكان

وبعد خروج عثمان بك من مصر صفا الجو لابراهيم بك ورضوان بك فقتلا جميع رجال الاحزاب المتآمرة عليهما وطلب من الوالي كيور احمد باشا السماح بقتل باقي البكوات فبذلوا الاموال في سبيل ذلك وكان لهم ما ارادوا وقتلوا علي بك الدمياطي بيد وكيله في وسط الديوان . ثم أمروا بقفل جميع منافذ القلعة على جميع من فيها من البكوات المنوي قتلهم وأوقفوا الجنود على بابي الانكشارية والعرب وبوشر في الذبح وأول من قتل في هذه المؤامرة خليل بك احد انصار الدمياطي ومحمد بك من انصار القطامس وكثيرين غيرهم ولم يبق من مناظري ابراهيم بك كخيا ورضوان بك الا ابراهيم القطامس وعلي كخيا الطويل فالاول مات حزناً بعد قليل والثاني ترك الديار تنعق من بناها فخلى لهما الجو وتولى ابراهيم كخيا مشيخة البلد ورضوان بك امارة الحج وصارا يتبادلان هذين المنصبين سنوياً وكل منهما يستعمل مركزه في جمع الثروة بعد القتل والفتك والنفي ووضعا يدهما على

بالاحترام وعينه والياً على بروحه وسعى أن يحفظ له ممتلكاته واملاكه في مصر فلم يفلح لانها كانت قد نهبت كالعادة ولبث في بروحه حتى مات فيها

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية جاء باشا والياً على مصر اسمه محمد اليدقمي وهذا قصد اصلاح مصر ادبياً فابتدأ باصدار امره بعدم شرب الدخان وكان يرسل ضابطه ثلاث مرات في اليوم يطوف الشوارع بالجنود وكل من يجده يدخن سكاره يعاقبه باشد العقاب . ولكن استدعى الى الاستانة بعد سنتين ولم يثبت التاريخ انه اتى باي عمل اصلاحي يذكر . ثم قام ايضاً شيخ من العلماء وقصد أن يصلح اخلاق مواطنيه فسار يخطب امام الامراء ويبين لهم شرورهم فادى ذلك الى اتفاق خدام الامراء على ذبحه نظير هذا التوبيخ والتأنيب لكنه تمكن من الهرب ثم عدل عن

كل ممتلكات الاغنياء بالقاهرة واستولى ابراهيم كخيا على اموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة بخلاف محصولات البلاد والقرى والجمارك والمخازن والحوانيت حيث لم يبق ولم يذر

واستدعى كيور احمد باشا الى الاستانة وولي حكومة قبرص وجاء القاهرة والي آخر سنة ١١٥٦ هجرية فاحتقره ابراهيم كخيا ولكنه اغتنم فرصة غياب هذا في الحج بمكة وتواطأ مع حسين الخشاب على مكيدة ضد ابراهيم ورضوان ويكافئه الباشا بمنح مشيخة البلد له فلما عاد ابراهيم نجح الخشاب بالقبض عليه وعلى رضوان وسجنهما في القلعة فولاه الباشا مشيخة البلد لكنه لم يهنأ بها اذ قام اعوان ابراهيم كخيا واخرجوه مع رضوان بك من السجن وهموا بقتل الخشاب فهرب الى ابريم من أعمال النوبا أما الباشا فاستدعاه السلطان وعاقبه عقابا شديدا انتهى بموته

خطة تانيب وتوبيخ الامراء ولذا فانه مات موتاً عادياً ونجى من القتل .
ومما يذكر عن تاريخ تلك الايام المظلمة أن جميع المماليك الاتراك كانوا لا يعرفون غير الخيانة التي يبدونها في كل امر تستدعيه مصالحهم المختلفة ومآربهم المتنوعة وما كان يوجد شيء يمنعهم عن ارتكاب هذه الدنايا ومن الغريب انهم كانوا يتعاهدون على ارتكابها بواسطة القسم مع أن القسم يجب اتيانه لمنع الشر لا للمساعدة على ايجاده

وفي سنة ١٧٤٥ مسيحية وصل الى الوالي محمد راغب باشا تعليمات سرية من السلطان بقتل القطامس والدمياطي واعوانهما وهما اقوى المماليك بأساً فعمد الباشا الى مكيدة لقتلهم فدعاهم دعوة عمومية الى الديوان وكانت العادة أن لا يخرج امير أو بك من منزله بغير سلاح استعداداً للطوارىء واتقاً لمثل هذه الخيانات التي كانت مألوفة في تلك الايام (١)

(١) كان الامراء يحبون راغب باشا لانه عرف كيف يعامل شيخ البلد فاحبته الرعية فصرف بينهم سنتين في سلام واجمع البكوات على استبقائه بينهم طويلا . وبينما هم في ذلك ورد للباشا خط شريف من السلطان بقطع دابر البكوات وشيخ البلد فارتبك الباشا وظن ان الباب العالي مشتبه بتصرفه من وشاية الاعداء ثم خاف ان يقتل البكوات بدون ذنب واخيرا قرر في ذهنه افضلية قتلهم فتواطأ مع رجاله ان يقتلوهم أول ما يجتمعون في مجلسه ففعلوا لكن ثلاثة من البكوات وفي جملتهم شيخ البلد تمكنوا من الهرب بعد جهاد شديد فلما احتجوا على هذا العمل الفظيع ولا سيما لعدم وجود داعي لذلك اضطر الباشا ان يطلعهم على فرمان السلطان السري الصادر له بقتلهم فعدلوا عن الانتقام منه وطلبوا من الباب العالي ابداله

وعند اول اجتماعهم لتلك الدعوة المشؤمة قتل منهم اولاً ثلاثة ولكن الباقين دافعوا عن انفسهم وتمكنوا من الهرب من القلعة واستدعوا اعوانهم وقامت حرب اهلية هائلة انتهت بموت كثيرين من الامراء وهروب اخرين منهم الى الصعيد . وفي سنة ١٤٧٨ مسيحية جاء القاهرة والي آخر يدعى احمد باشا وكان كثير الانهماك بالدرس والمطالعة فاراد معرفة مقدار قوة العلماء المصريين ظناً انه يستفاد منهم فجمع حوله كل جهابذة العلماء ومشايخ الازهر فوجد انهم تقريباً لا يعرفون شيئاً مما كان يتصوره وانهم يقتلون اوقاتهم في درس احوال اللغة العربية والفقه ونحو ذلك من المسائل البسيطة جداً فاخر عنده احدهم الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر مدة طويلة حتى يقف على حقيقة معلوماته ومعارفه لئلا يكون مخطئاً في حكمه الاول عليه ولكنه بعد طول الاختبار وجد معارفه قليلة كالباقين . وقد أخذ الباشا بعد ذلك يبحث ويفتش عن العلماء المصريين الذين كان يسمع عنهم كثيراً حينما كان في تركيا فكر عليه شيخ الجامع الازهر ولم يذكر له ما كان يجب أن يعرفه وهو أن البقية القليلة الباقية من العلوم المصرية القديمة التي كان يود معرفة شيئاً عنها ليس من يرشده عنها غير الاقباط . وقد بذل الباشا جهده في البحث عن عالم مسلم تكون معارفه تناسب على الاقل متوسط الدرجة العلمية التي يطلبها فوجد اخيراً شخصاً يدعى الشيخ حسن حبشي الاصل وهو والد المؤرخ الشهير المعروف بالجبرتي وكان هذا الرجل مدرساً لعلم الفلك في الجامع الازهر

وفي اثناء النصف الاول من القرن الثامن عشر كان الاقباط عائشون بسلام لان المسلمين كانوا مشغولين في قتال بعضهم بعضاً . ولم ترجع الفنون والصنائع القبطية الى سابق شأنها من الرواج التقدم من عهد الفتح العثماني لمصر حيث اخذت في الانسحاق والاضمحلال من ذلك الوقت شيئاً فشيئاً بسبب توالى المصائب والمحن على الاقباط خصوصاً والمصريين عموماً ونشاء عن ذلك زيادة استبداد الضيق على الاقباط المسيحيين وعلى الذين اسلموا منهم ايضاً وخاصة من زيادة استمرار السلب وتوالى هجوم العربان وعساكر الامراء على منازل الاهالي وسلب كل مايوجد فيها حتى انه لم يبق في القاهرة قبطي أو يهودي عنده شيئاً يستحق السرقة ولم يسرق منه

وفي سنة ١٧٣٣ مسيحية (١١٤٦ هـ) تلقى حاكم كل قسم من الحكام المعروفين بالكشاف امراً بناء على فرمان من السلطان يقضي بتوقيع ضريبة مالية على كل قبطي أو يهودي ساكناً في دائرة قسمه . وكانت الضريبة التي تؤخذ من هؤلاء البؤساء تنقسم الى ثلاثة درجات فالدرجة الاولى هي تحصيل ٤٢٠ بارة عن كل نفس والدرجة الثانية ٢٧٠ بارة والثالثة ١٠٠ بارة (١)

(١) مقادير النقود المصرية كانت تتغير كثيرا في ايام السلاطين العثمانيين ولذا يتعذر تعيين القيمة التي توازيها بالنسبة للعملة الانكليزية ويقول بوكوك انه في (سنة ١٧٣٧ مسيحية) كان الكيس المصري يساوي ٢٥٠٠٠ مدين والمدين يساوي اثنين بنس ونصف أي غرش صاغ

ومن بعد حادثة استشهاد الاب كليمانت القسيس الفرنساوي لم يعمت احد بامر الحكومة بسبب دينه ولم يصدر امر رسمي بهدم الكنائس . وفضلا عن ذلك فقد كانت الحكومة مضطرة جداً لاستخدام الاقباط في مصالحها بالنسبة لاماتهم ومعارفهم الممتازة بينما كان الجهل وعدم الاستقامة في السيرة متفشياً بين المسلمين

وكان للمرسلين الكاثوليك سنة ١٧٣١ مسيحية تسعة مراكز جنوب القاهره وهي في اثينو واسيوط وابو تيج وصدفا واخميم وجرجا والاقصر واصوان وحتى في دير النوبة وقد علمنا من التاريخ انه في تلك السنة ارسل البابا كليمان الثاني عشر لرؤساء هولاء الارساليات أن يبذلوا ما في وسعهم لحض الاقباط على ارسال اولادهم الى رومية لتعليمها فيها فلم يقبل الاقباط بذلك ولم يتمكن اصحاب تلك الارساليات الا من ابعاث ابناء الروم الكاثوليك للدرس في رومية رغماً عن طرق التهديد والوعيد التي استعملوها مع الاقباط الاصلين لهذا الغرض بلافائدة . وفي تلك الايام قدم الى الديار المصرية جماعة من سواحين الفرنسويين والانكليز فوصلت الباخرة التي تقلهم الى داخل النيل . ولما رست بهم عند اسينا خرج السواحون منها لمشاهدة خرائب تلك المدينة القديمة فاسرع الاقباط الكاثوليك الذين الذين كانوا فيها فقدموا انفسهم للمرسل المقيم هناك وخدموا في كنيسته

وكتب البابا كليمان الثاني عشر المذكور الى بطريرك الاقباط السابع

عشر عن يد الكردنبال بلوجا واحد المرسلين الكاثوليك اللذان كانا عندهما وسائط خصوصية لمخاطبة بطريرك الاقباط باسم البابا بان يوجه همته ويعلم ما فيه تقديم نفسه وكنيسته للخضوع الى الكنيسة البابوية ولكن هذه المخابرات انتهت بلا ثمرة كما حصل مراراً قبل ذلك . ولما اخلف كليمان على العرش البابوي البابا بنديكت الرابع عشر انكر كل قول عن اتحاد الاقباط مع كنيسة روميا وعوضاً عن استئناف المخابرة مع بطريرك الاقباط لترغيبه في الانضمام لكنيسة رومية عين مطرانا كاثوليكياً على مصر يكون له حق السلطة الدينية فيها وذلك في سنة ١٧٤١

وكان هذا المطران قبطي الاصل يدعى اثناثيوس ومقيماً في اورشليم فبعد تعينه ظل مقيماً في القدس وعين له نائباً عاماً في مصر وارسل له البابا بنديكت سنة ١٧٤٥ مسيحية تعليمات مستفيضة فيما يجب عليه اتباعه لجذب الاقباط الارثوذكس للمعتقد الكاثوليكي وفي ذلك الحين كان يوجد شاب قبطي ارثذكسي اسمه روفائيل الطوخي من اهالي جرجا كان اخذه الكاثوليك بالقوة حينما كان صغيراً وارسلوه لدرس اللاهوت في رومية فعينه البابا بعد اتمام دراسته اسقفاً على ارسينوه ولكن يظهر انه لم يتمكن من الاقامة فيها طويلاً (١)

(١) يظهر انه في السنين الاخيرة من القرن الثامن عشر قد نجح الكاثوليك الرومانيين وانتصروا مرة بعد طول ذلك الجهاد مع الاقباط ذلك انه امكنهم ادخال اسقف جرجا القبطي الى مذهب الكنيسة الرومانية ولكن لهرطقته حرم من الكنيسة القبطية وحتى الاسلام حكموا عليه بالعقاب ففر هارباً الى رومية وعاش فيها حتى سنة ١٨٠٧

لان البابا اراد الانتفاع بحسن معارفه فطلبه ثانية الى رومية ليساعد في بعض تأليف دينية باللغة القبطية من ضمنها اجرومية تلك اللغة وتنقيح كتب الطقوس الكنائسية وقد ترجم ايضاً عدة كتب يونانية ولاتينية الى اللغة القبطية والعربية

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية ارسل امبراطور الحبشة وفداً لبطريرك الاقباط يطلب تعيين مطراناً لتلك المملكة بدل المطران خريستو دولس الذي توفى . وهذا الوفد كان مؤلفاً من ثلاثة اعضاء احدهم قبطي الاصل اسمه جرجس والاثنان الاخران حبشيان احدهما اسمه تاوضروس والآخر اسمه ليكانيوس وكانت الموانى المصرية وكل الشواطيء البحرية في ذلك الحين في يد الحكام المسلمين ولم تكن الحبشة قد اكتشفت وانبها القديمة بعد فقبض حاكم مصوع المسلم على هؤلاء الثلاثة رجال اعضاء الوفد وسجنهم واخذ منهم نصف النقود التي كانت مرسلة معهم الى مصر ثم هددهم بالقتل . فاختفى احدهم وهو جرجس القبطي ولكن لم يذكر التاريخ أن كان قتل أو تمكن من الهرب بالحيلة . اما ليكانيوس الحبشي فاطاع الحاكم المسلم واعتنق الاسلام ولكن الاب تاوضروس الكاهن الحبشي اطلق سبيله بعد أن فدا نفسه بالمال وواصل سفره لاجل اتمام مأموريته حتى وصل القاهرة وظل بها الى أن حصل على رسامة مطراناً لبلاده سنة ١٧٤٥ ولما قصد هذا المطران السفر الى الحبشة مع الكاهن الحبشي المشار اليه صادف في مصوع ما صادف الوفد الحبشي

من قبله حيث القاهم الحاكم في السجن غير أن الاب تاوضروس عمد الى حيلة نجى بها صاحبه المطران الجديد من يد الحاكم وتمكن من السفر. ومن الغريب أن الحاكم لم يقتل ذلك الكاهن لهذه الخدعة لكن حجز للفديه فلما وصلت الفديه للحاكم اطلق سبيله وسافر الى بلاده سالماً

وفي ذلك الحين كان المرسلون الكاثوليك قد ثبتت اقدامهم في مصر وتوطدت دعائم ارسالياتهم فيها ولو انهم لم يفلحوا في اغواء الاقباط الاصليين على اتباع مذاهبهم ولكن كثيرون من السوريين المستوطنين في مصر وبعض ابناء الكنيسة اليونانية انضم اليهم وبذلك اصبح لهم كنائس خصوصية كثيرة في بعض المدن المصرية وكان يتردد اليها ايضاً بعض الذين لم يتبعوا مذهبهم وكان امثال هؤلاء يعتبرون على كل حال مرتدين عن مذهبهم الاصلي.

على أن السلطان سمع بزيادة النفوذ الاوروبي بمصر باسباب هذه الارساليات الاتينية فقلق وتضجر من جراء ذلك وارسل فرماناً الى بطريرك الكنيسة اليونانية يأمره فيه بان يحذر كل عضو من اعضاء كنيسته بعدم التوجه الى تلك الاماكن الاوروبية والصلاة فيها والا يصير مجازاتهم بدفع غرامة قدرها الف كيس فجمع السوريون هذا المبلغ ودفعوه للسلطان واستمروا على الذهاب الى الكنيسة اللاتينية. وقد انتهز احد امراء المماليك هذه الفرصة وقبض على اربعة من المرسلين اللاتينيين وسجنهم ولم يفرج عنهم الا بعد أن دفعوا فدية مالية عن انفسهم

وكان محرما على الاقباط الارثوذكس زيارة بيت المقدس من أجيال كثيرة وكان هذا الحرمان موجباً الحزن الدائم عند الاتقياء والمتعبدين منهم. ولكن في سنة ١٧٥٣ مسيحية (١١٦٦ هجرية) عزم كبارهم على استئناف السعي وبذل الجهد في طلب التصريح لهم بهذه الامنية واضطروا لدفع مبالغ طائلة بصفة رشوة أملا في ادراكها. وكان لاحد كبار الامراء المماليك سكرتيراً قبطياً له نفوذ كبير عنده فهذا أخذ على نفسه القيام بالمساعي الموصلة الى ذلك بالنيابة عن بني قومه. فخابر أولا شيخ الجامع الازهر في الامر فقبل الشيخ النظر فيه مبدأياً على شرط ان يأخذ رشوه قدرها الف دينار (٧٠٠ جنيه انكليزي) لكي يصدر فتوى تبيح للاقباط الحج الى بيت المقدس باورشليم والعودة منه بسلام وامان وان لا يعترضهم مسلم بسوء على الاطلاق. فاعطاه الاقباط هذا المبلغ وفعلاً أصدر الفتوى بذلك فرحوا بها واستعدوا للحج باتهاج عظيم جداً وخصصوا نقطة يجتمعون فيها بجوار الصحراء الشرقية الملاصقة للقاهرة حتى يسافروا منها بطريق البر واعدوا الجمال اللازمة لذلك مع التخترونات المعدة لنقل النساء والاطفال وكان يصل الى هذه النقطة مئات مئات من الاقباط يومياً بقصد السفر وقد حضر لوداعهم كثيرون من الاقارب والاصدقاء ومعهم كثير من الهدايا الثمينة للقبر المقدس وقد استأجروا كثيرين من العربان لحراستهم في الطريق وانتشرت أخبار هذا الحج في جميع انحاء القطر المصري فتذمر المسلمون من ذلك كثيرا. وأصبح

الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر وقد رأى نفسه مضطهداً ومكروهاً من جميع المسلمين بأسباب تلك الفتوى ثم افتضح السر الذي حمله على اصدارها فقام كبار المسلمين وعنفوه بشدة على الرشوة التي اخذها اجرة لذلك فانكر امرها بتاتاً مع انه اخذ من الاقباط مبالغ أخرى أيضاً بقشيش عند نهاية فراغه من كتابة الفتوى علاوة على المبلغ الذي اخذه أولا ثمناً لها . على انه لما تحقق ان الانكار لم يجديه نفعاً فكر في طريقة أخرى يسترجع بها شرفه . فدعى طلبة الازهر جميعا وكثيراً من اوباش المسلمين وخطب فيهم محرضاً اياهم على ضرورة الانتقاض على الاقباط المتباهين لزيارة بيت المقدس ومنعهم عن ذلك بكل وسيلة ممكنة . فأخذ التعصب والحماس من الطلبة والعامة مأخذاً كبيراً وقبل ان يتم شيخ الازهر خطبته اسرعوا بالذهاب الى المكان الذي كان الاقباط المساكين موجودين فيه وكانوا على غير علم بما هناك من الشر فانقض عليهم هؤلاء المتعصبين كالوحوش الضارية بينما كانوا قائمين بتجهيز امتعة السفر واعملوا فيهم السيف والنار حتى مزقوهم شر ممزق ونهبوا كلما كان معهم من مال ومتاع وتركوهم على اسوأ حالات البؤس والشقاء . وقد بذل اكابر الاقباط وأصحاب النفوذ منهم كل مساعيهم لاستخلاص ما فقد منهم فراحت اتعابهم والاموال التي دفعوها في سبيل ذلك ادراج الرياح

الفصل الثامن والستون

المسيو دى مابيه في مصر

سنة ١٦٩٤ ميلادية و١١٠٦ هجرية و١٤١٠ للشهداء

وفي اواخر القرن السابع عشر توفى السلطان احمد خان كما تقدم وبويع بدله على العرش العثماني ابن اخيه السلطان مصطفى خان الملقب بمصطفى الثاني وهو ابن السلطان محمد الرابع وكان الباشا الوالي على مصر في ذلك الحين رجل يدعى اسماعيل . وفي ايام هذا السلطان حصلت ثورات عديدة بمصر انتهت بتحويل سلطة الباشوات الى البكوات المماليك وأصبح الباشوات يقيمون في القلعة دائماً كانهم في سجن ولا يهمهم الا كسب الاموال ثم ابتدأت السلطة تسقط شيئاً فشيئاً حتى اصبحت في ايدي شيخ البلد وهو لقب كان يطلقه الاهالي على محافظ القاهرة . وانقسم البكوات المماليك وقتئذ الى حزبين كبيرين هما حزب القاسمية وحزب الفقارية وكان شيخ البلد ينتخب عادة من احد افراد هاتان العائلتان وكان هذان الحزبان لا ينفكان يضاد احدهما الاخر ويحاول كل منهما اكتساب النفوذ له واذلال الآخر وكان كل الامراء والبكوات في مصر سواء كانوا يشغلون مراكز مهمة في الجيش أم لا يحيزون لاحد هذان الحزبان وكان اهالي مصر يقاسون العذاب وتضع على رؤوسهم مصائب نتيجة عداء الحزبين كما كان جمع سكان المملكة